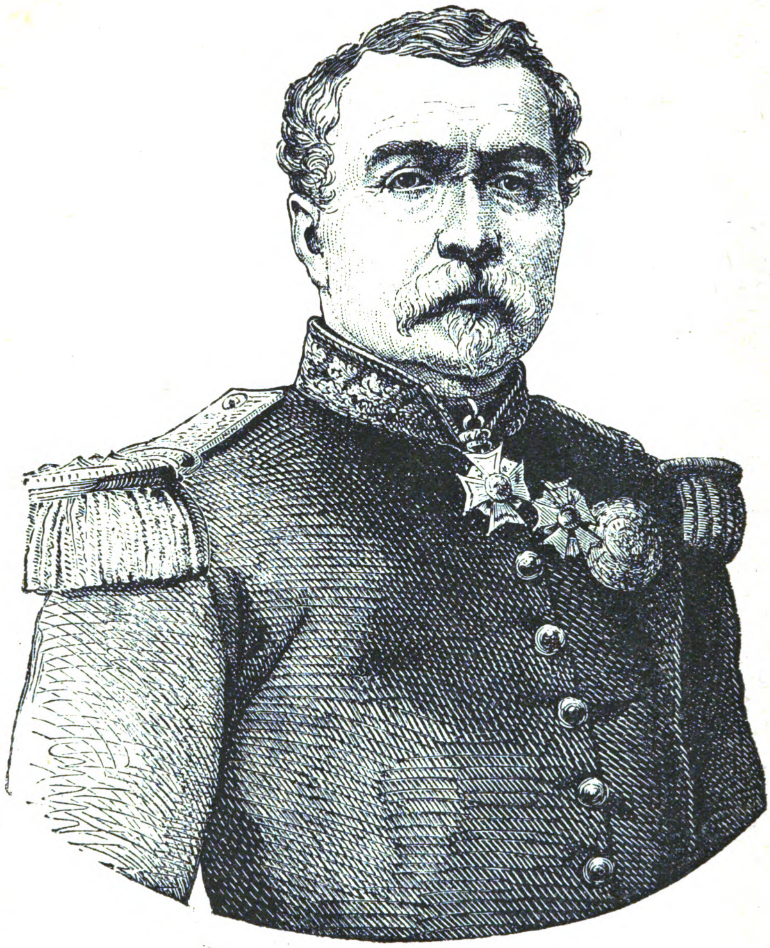


القائد دي لا موريسيير

General Louis Christophe Léon Juchault
La Moricière.

حيوة

The Hero of the Faith and Civilization

بطل الدين والتمدن

by

S. K. Dahdah

او

تاريخ القائد دي لاموريسير

بقلم الاديب الشيخ سليم خطّار الدحداح

نشر تباعاً في جريدة الارز

مطبعة الارز جونية سنة ١٠٨٩-٦

المقدمة

لقد جرت عادات الشعوب والامم المتمدنة ان يتوخوا نشر ذكر من اشتهر وعظم شأنه في الدنيا من ابطال وكتبة ومؤلفين وملوك واحبار تفاخرًا بهم وتمدحًا بما طار لهم من الاسم والصيت بين سائر خلق الله . ومن ثم حق لكل أمة او دولة ان تباهي وحدها بذكرى رجالها العظام وشرف سمعتهم الطيبة . اما القائد الذي نحن بادئون بتعريب ترجمته وهو الجنرال دي لاموريسيير فمع كونه فرنسوي الاصل مشهورًا بخدمة وطنهِ يحسب رجلًا عموميًا ينبغي للعالم المتمدن باسره ان يتمدح بهِ اذ كان احد افرادهِ الأُلى يبخل بمثلهم الزمان .

قد حارب هذا الرجل في مستأخر الحين خلقًا كثيرًا ضاقت بهِ سهول افريقية ورفع على روابيها علَم الحضارة ولواء المدنية وكان اعظم من اقدم على خدمة عاصمة الفرنسيس بذوده عنها اهل الفوضى الذين شغبوا ونشروا الراية الحمراء ايذانًا باراقة الدماء وتدمير الديار فانفرد وما كان اعوانه بكثير بان برَّ بيمين الطاعة للشرائع وابى ان يدين للغاشم المغتصب وبالجملة فانهُ هو الذي جرَّد حسامه الماضي على عنق الماسونية وعلى اعناق اعداء الكنيسة مدافعًا عمّا لرئيسها المنظور من السلطة الدنوية معرضًا نفسه للهزيمة لاول مرة في حياتهِ المجيدة بيدَ انهُ ولئن خانهُ النصر في تلك المعركة فقد بقي لهُ ذكر طنَّان لايبلي جدَّته الجديدان ورفعت منزلته فوق سائر المنتصرين وعقد على هامتهِ اكليلًا من الفخر ليس مثله بين أكاليل النصر ألا وهو « لقب بطل الدين والتمدُّن »

ونحن نجد من حسن الجدّ ان كنا اول من كاشف ابناء الناطقين بالضاد بانباء حياتهِ الدينية واعماله الجندية احياءً لذكرهِ الجميل بين أهل وطننا كما انهُ لم يزل حيًّا باقيًا على وجه الدهر في فرنسا وطنه مطبقًا سائر اكناف المعمور قاصيها ودانيها

الفصل الاول

في اصل اسرة دي لاموريسيير ومولد القائد وحياته حتى يوم بعثته الجزائرية
من سنة ١٨٠٦ الى ١٨٣٠

ان عائلة دي لاموريسيير متوغلة في القدم وكان مولد جدها الجامع غربيَّ فرنسا في مقاطعة الڤانده الشهيرة وهي البلاد التي كانت منذ بضع سنوات ساحة للقتال والحرب العوان اعواماً متطاولة بين دعاة الدين والملك واشياع الثورة ذلك النزال الذي سماه نابوليون الاول حرب الجبابرة وقد جاء في تاريخ هذه العائلة انهُ تقدم المسمى تاوفيل جوكول احد اجداد القائد الى المجلس المؤلف عام ١٦٦٨ بامر الملك لويس الرابع عشر في البحث عن اسماء الحائزين والغير الحائزين ألقاب الشرف في بريطانيا واثبت في حضور تلك الهيئة صحة الحررات الرسمية المؤذنة بان آله مستأثرون بلقب امارات دي لاموريسيير ودي بلوتيرو ودي لورم ودي لابورردري ودي موسو وشارتها ثلاث من الصدف مفضضة في وسط حلقة زرقاء مكتوب حولها الشعار الآتي تعريبهُ « الله رجائي » وقد نبغ من تلك النبعة الكريمة ذلك المسمى ميشال جوكول وهو احد المراقبين في وزارة المالية ومنها الشجاع لويس الذي استردَّ ١٥٧٦ وسنة ١٥٨٧ جبل سان ميشال من الجماعات البروتستانية الثائرة . ومنها رجل آخر كان في سنة ١٦٣٥ رئيساً للجنة المراقبة في المالية وآخر كان في سنة ١٦٤٢ والياً على مدينة نانت وكان لابيه جد القائد قد اقترن بكريمة الشريف دي شافولت (وهذا الاسم هو عزيز جداً عند سكان غربي فرنسا لما انهُ يذكرهم مزيَّة الشهامة وشدة الاستمساك بعرى الدين وكانتا هاتين الحليتين صبغة هذه الاسرة النبيلة) ولم تطل لهما مدة صفو العيش والهناء اذ انهما كانا في اواخر القرن الثامن عشر عصر الاضطرابات والتقلبات في فرنسا خاصةً فان الملكية البوربونية كانت والهيئة المتمدنة حينئذٍ قد انحرفتا كل الانحراف عن جادَّة الحق نازعتين بعض الشيء الى نهج الاصلاحات الماسونية وكان على الشعب الفرنسوي ان يتجشم المصاعب والاضطهادات الهائلة قبل تحققه ان شرفه ومجده ودوامهما يتوقفان على بقاء مجد الدين الكاثوليكي وشرفه . فلما نفخ في بوق الثورة الطامَّة في فرنسا كان لجد القائد صاحب الترجمة عداد في ضباط حرس الملك لويس السادس عشر

الناكص الجد فلما رأى سوء سير الامور ترك الخدمة وانقطع الى املاكهِ في غربي فرنسا معللًا النفس بحدوث هياج في وطنهِ على ضد الثورة وفي ذات يوم جمع مزارعيه وشركاءه وجماعة من اهل الجوار ووقف بينهم مودعًا واعدًا اياهم بالرجوع اليهم ايان بلغهُ تداعيهم وتناهضهم في مقاومة الثائرين ثم سلم بناته الاربع الى المسيو دي سان انيان من ذوي قرباه وانطلق بابنيه الى جيش جالية الاشراف المعروف بجيشِ البرنس دي كونده فعاجلتهُ المنية حال وصوله اليهِ ولحق بهِ اينه البكر ولم يبقَ بعده الاَّ ابنه الثاني المدعو سلفستر وعمره اذ ذاك ١٦ سنة (وهو ابو القائد المترجم لهُ) فترك الجيش المذكور وسار الى انكلترة ومنها عاد الى كانفيل قافلًا الى وطنهِ ولكنه لم يجد فيهِ شقيقاته الاربع لانهنَّ كنَّ قد هربنَ الى مدينة بلوا خوفًا من اضطهادات كاريون وكيل روبسبيير في مدينة نانت ولم يبقَ لهِ من املاكهِ الواسعة سوى الكنيسة الصغيرة المنسوبة للقديس فيلبرت المتخذة مدفنًا لاجداده وكانت عتيدة ان تكون مدفنًا ذات يوم لابنهِ مجد بيتهِ وفخر ذريتهِ فعاش معدمًا فقيرًا خائفًا على دمهِ ومختبئًا في بيوت شركائه ثم لحق بالجيش الملكي الذي كان بامرة القائد شارت (وهو الاول من القواد المشهورين بهذا الاسم حارب مدافعًا عن الدين والملك وتوفي قتلًا بامر قادة رجال الثورة سنة ١٧٩٥) وبقي مشاركًا في جميع النهضات التي اقدم عليها اهل الفاندي الى يوم عادت الحرية الدينية الى فرنسا

فمما سبق بيانه على عائلة ابيهِ يعسر على المطالع ان يفهم عنوان امر الجنرال دي لاموريسيير في سياق حياتهِ المختلفة كثيرًا عمَّا صار اليهِ من النزعة آخر ايامه ولكن يزول الالتباس عند التكلم عن مبادىء عائلة امه فان والده سلفستر قد اقترن بعد استتباب الصلح بالكونتة دازيره دي روبينو دي بوكون وقد كان تشرَّب ابوها واخوتها المبادىء الجديدة وتعلقوا بها ودافعوا عنها بقدر تعلق سلفستر واقاربه بالآراء والمشارب القديمة . فكان ابوها معتزلاً الخدمة حين المناداة بالثورة فمال اليها ولما بلغ اهالي نانت ان رجال الفاندي زاحفون على مدينتهم قام المسيو دي روبينو المذكور وجمع رجالاً ودافع عن مستحكمات المدينة ومعاقلها وحماها من دهمات الحزب الملكي وحصل من لدن الجنرال كانكلو قائد الجمهورية على شهادة ناطقة بحسن خدمتهِ وانهُ ابلى بلاءً حسنًا حبًّا بالوطن وخدمته ونظم بنيه في سلك جيوش الجمهورية فصار بكره ضابطًا في المدفعية وتوفي سنة ١٧٩٧ وهو راجع من مدينة فيلادلفيا ونال الثاني واسمهُ ڤنسان وظيفة كابيتان (او يوزباشي) سنة ١٧٩٢ ولمَّا يتجاوز

كابيتان (او يوزباشي) سنة ١٧٩٢ ولمّا يتجاوز حينئذٍ السنة العشرين من سنيهِ وسنة ١٧٥٩ أُبعد عن باريس لفرط غلوه في المبادىء الاشتراكية ثم ارسلتهُ الحكومة الى جيش ايطاليا فوصله على حين تولى قيادته الجنرال بونابرت الشهير فلازم خدمته الى ان حاصر العدو مدينة «مانتو» فاصابهُ من كرات مدافع المحاصرين ما ذهب باصبعين من اصابع يده اليسرى وبيده اليمنى كلها فاضطر الى مغادرة الخدمة الجندية والعودة الى بلاده وكوفىء على ما كان منهُ بجعل يوسف اصغر اخوته في عداد فرقة المهندسين فاستمرَّ فيها حتى استقال من الخدمة سنة ١٨٠٤ اذ اعلن مجلس النبلاء (السنات) ان نابليون الاول صار امبراطورًا على الفرنساويين علمًا بما وراء ذلك من الاجحاف بمذهب الجمهورية والمخالفة لرأي بيت ابيه وذويه ومع كل هذا الشطط والتمادي في ثورة الخواطر والافكار لم يبرح الموسيو دي روبينو متعلقًا باهداب الديانة محبًا للفقراء مساعدًا لخدمة الدين شارعًا ابواب بيتهِ ليجيئهم فيهِ وقايةً لهم من الاضطهادات وكانت عائلته وعائلة دي لاموريسيير مرتبطتين بروابط القرابة ووشائج المصاهرة القديمة العهد حتى اذا انتهت الحروب الاهلية عاد كلٌّ الى مكانهِ وتنوسيت الاحن والمكاشحات ودفنت النزعات وذرائع التحزبات فاقترن رجل القاندي (وكان منفيًا منبوذًا بعوامل حكومة الثورة) بابنة رئيس حزب الحكومة الجديدة فاصاب بهذه المصاهرة ثروة وراحة واستتاب قسمًا من املاكهِ المفقودة وجعل يقيم تارة بشيلون في مقاطعة أنجو وطورًا في مدينة نانت ثم حدث شؤون سياسية وتقلبت عليهِ احوال مباينة لمشربه ومراده فاعياه التدخل في الامور العمومية ودوائر الحكومة ولما لم يجد في الامر حيلة اخذ على نفسهِ ان يكون ابًا للفقراء يقضي اوقاته بينهم مساعدًا مواسيًا كل من اخنى عليهِ الدهر ونزلت بهِ صروفه ولبث كذلك الى ان توفاه الله بغتة في خلال عام ١٨٢١ وهو في عنوان امره وعنفوان عمره . وكان شديد التعلق بالدين قوي الادراك الاَّ ان ما كان تواليه من البلايا والمحن في سنيه الاولى أصاره أليف السكوت والعزلة بعكس زوجته فانها كانت تختال تائهة في مرامي الاغترار بالمبادىء التي تشرَّبتها لاهية ضاحكة تكثر من الكلام طامحة البصر الى السؤدد والسيادة والدخول في الحوادث العمومية الا ان تلك الاميال كانت محجوبة في نفسها مكتومة مع بقاء زوجها حيًّا يرزق فلما فارقها فراقًا لا لقاء بعده استقلَّت برأيها واستمتعت بتمام حريتها واضحى بيتها حينئذٍ مثابة لجميع رجال الحكومة واصحاب الافكار الجديدة في تلك

الجهة واستأثرت برئاسة عائلتها فكانت الآمرة الناهية فيها

واذ قد فرغنا من الكلام على اجداد القائد المترجم لهُ ومبادىء ابويه ومذهبهم السياسي حان لنا ان نتكلم عنهُ خاصةً فنقول

رزق سلفستر من امرأتهِ السيدة دازيري ولدان ذكران وابنة واحدة لم يطل عمرها فتوفيت في الثالثة منه اما الابنان فاولهما لويس كريستوف لاون وهو القائد والثاني يوسف الذي توفي في المكسيك سنة ١٨٣٦ حيث كان متوليًا كتابة السر لسفارة فرنسا هناك. واما الاول ـ اي لويس كريستوف لاون ـ فانهُ ولد في مدينة نانت خامس شهر شباط سنة ١٨٠٦ في المنزل المعروف باسم دي كولان بشارع ارجنتيري وقد تم تنصيره في كنيسة نانت الكاتدرائية على يد خال ابيهِ الكاهن دي شافول وكان يشابه اباه خُلقًا لا خلقًا بخلاف شقيقه يوسف فانهُ بامهِ كان اشبه منهُ بابيهِ وكان حليمًا سليم القلب يحب اللعب مولعًا بملاعبة اترابه ومقارعة اقرانه على نحو ما يمثل وقائع الحرب ولم يكن شيء ليلهيه عن ألعابه سوى مشاهدة الفقراء فكان اذا رأى احدًا منهم اقبل على خادمهِ وسألهُ ان يحسن اليهِ بنزر من الدراهم او كان ينطلق الى البيت ويرجع مسرعًا وفي يده شيء من الطعام او الدراهم للفقير المتكفف . واول ما عني فيهِ والده انهُ غرس في قلبهِ محبة الدين والعقائد الصحيحة المستقيمة ومثلها تعاليم وان ظهر فتور حبها احيانًا في لبّ المرء لتشاغله بما سواها من امور دنياه الا انها لا تلبث ان تتجدد في نفسهِ عواطفها وتنمو حية ابَّان الشدائد والمحن بقوة بالغة . وكان سلفستر قد اسلم ابنهُ المذكور الى مؤدّب من اصدقائه المشهورين بالمعارف والتقوى ليعلمهُ اصول الدين وهو الكاهن دي لاليس وكان يومئذٍ رئيس ديرفي ڤيلموازان قبل الثورة ثم طُرد من فرنسا ونفي لعدم حلفه اليمين التي فرضها على الكهنة رجال الثورة خلافًا لقواعد الدين الكاثوليكي وقضى في منفاه تسع سنوات ثم عاد الى فرنسا حين عقد عهد التسوية ما بين الكنيسة وفرنسا سنة ١٨٠١ فاخذ يلقن دي لاموريسيير مبادىء التعليم المسيحي وكان كل احد يجمعهُ في دارة الكنيسة برفقائهِ ويمرّنهم على تلاوة اناجيل الآحاد ولكن معظم الصعوبة كانت في الزامه قضاء عدة ساعات كل يوم لتلقي العلوم والمعارف حال كونه لم يطق المكث خلوًّا عن حركة وجري فاسلمهُ ابوه الى المؤدّب الاستاذ الموسيو راتويس وكان شابًّا اديبًا كثير التدين مشهورًا بسعة العرفان والاطلاع وقد احسن النهوض بما ندب لهُ فاجتذب اليهِ قلب تلميذه القائد حتى انهُ

لم ينسه طول حياته وكان يحبهُ محبة عظيمة جامعاً بين اسمه واسم ابيهِ وكان كلما عاد الى وطنـهِ بدأ بزورتهِ . ومما خلف القائد المذكور كثير من الرقائم الخصوصية التي بعث بها الى رفقـائهِ ووالدتهِ وفيها انباء تجوُّلاته وتنقلاته وانهُ تلميذ المسيو راتويس وانهُ كان يقضي قسماً من السنة في قصر عائلة امه في لوروكس والقسم الآخر في مدينة نانت في قصر كركويه . وكل تلك الرسائل ملأى باثار نباهتـه وفرط ذكائه وارتياحه بالسفر الاَّ انهُ لم يكن لينسى عناء الطلب والدراسة . وسنة ١٨٢١ فقد اباه فبات يتيماً وجواد الصبا في اول ميدانهِ فلاقى باليتم شدَّة عظيمة لانهُ فقد بهِ مرشداً كثير الخبرة والدربة واضطُرَّ حينئذٍ ان يطاوع اهواء عائلة امه الا انهُ لحسن جده كان قد شدا من العـلم شيئاً ومن ممارسة الامور طرفاً فلم تطل ايام تقيده بتلك الإهواء وصار آخر الامر الى انتهاج المسالك التي كان ابوه أدَّبهُ عليها ودعتهُ سليقتهُ الى حفظ شدة موالاة من جمعـتهم واياه وشائج القربى والنسب وكلف بحبهم كثيراً وفي تلك السنة نفسها دخل مدرسة مدينة نانت وخرج منها سنة ١٨٢٢ بعد ان نال فيها جائزة الشرف وكانت طريقة التعليم في المدارس اوانئذٍ وفق المشرب المسيحي وقد تلقى ثمة علوم الفلسفة عن كاهن وقور ممن عمروا وعاشوا ملياً من الدهر ثم انضوى الى رهبانية الترابيست ودُعي باسم الاب فولجانس وصار رئيساً على دير الترابيست في بلفونتان ومات بعد القائد تلميذه وقد وصف الاب المذكور تلميذه بانهُ كان كثير البحث والسؤَال بديه العارضة قوي الحجة وكثيراً ما كان يفحم معلميه بقوة اعتراضاته وكان القائد يحبهُ محبة شديدة ويكثر التردُّد فيما بعد اليهِ . وقد حفظ القائد في مدى عمره آثاراً عظيمة من حياتهِ المدرسية وغلب عليهِ حب التاريخ ثم لما أُرسل الى افريقية وهو يذكر المواقع المحكي عنها في مؤلفات سالوست (مؤرخ روماني كتب وقـائع حروب رومية مع جوعورتا ملك بلاد النوميد وهم المغاربة) مقتفياً آثار الجيش الروماني ومما يؤْثر عنهُ كثرة التمثـل في احاديثهِ بشعر ڤرجيل (شاعر روماني كتب الاينايد وغيرها) وقول غيره من الناظمين والمؤلفين وبآي الكتاب المقدس واذ اتم القـائد دروسه استعـد للدخول الى مدرسة بوليتكنيك ميلاً مع هواه الذاتي وعملاً برأْي خاليـه اللذين انتظما في سلك الجندية فاتى باريس ودخل مدرسة لكونت التي دُعيت بعدئذٍ مدرسة جوبه واشتهرت بنبوغ طلبتها وقد ذكر بعض رفقائهِ ومنهم دي كركولي وكيليومين ودينختال ما كان يبدو لهم من مخائيل طباعه واطواره فوصفوه بصفاء الطية وخلوص النية والسذاجة المتناهية والاستقامة وكرم الخلق وعزة النفس الا انهُ لم يكن ليبين منهُ شيء ينبيء عمَّا

كان مزمعاً ان يتأتى لهُ ومما يذكر انهُ كان عنيداً صلب الرأي ثابت الجأش كثير التنقير والتنقيب عن الحقائق العلمية ومزاولتها حتى ترسخ في عقلهِ وتنطبع انطباعاً محكماً فحمل ذلك منه اساتذته وزملاءه على حسبانهِ فهاً قليل الفهم وما دروا ان وراء ما كانوا يتوهمون قوة ارادة ورباطة جاش وتطلع الى جسام امور كانت مخبوءة لهُ في اصلاب ظهور العصور واحناء صدور الدهور وكأنهُ كان يتأهب للقاء الخطوب والاهوال المستقبلة . هذا فضلًا ان الجد في الدرس والاكباب على الطلب امران اقتضاه سر مستقبل قائدنا المترجم لهُ فخلاهُ عن تورد موارد اهواء رفقائه وسائر شبان تلك الايام والتئامه في كفرهم وضلالهم وقلة ايمانهم وساعدتهُ ان يتملص ما امكن من ربقة التعاليم الفاسدة التي كان يبثها وينفث سمها احد اساتذته المسمى اغوست كونت وهو رياضي شهير . وكثيراً ما كان هذا الاستاذ يعدل في شرحهِ المسائل الرياضية عنها متطرقاً الى الدخول في المباحث الفلسفية وتوسيع مذهبه الفاسد فكان لاموريسيير يُسرّ جداً بهذه الابحاث الجديدة مع ادراكهِ خطرها فلم يكن ليجسر على الحكم بها بغير تروية واستبصار وانما كان يرجئ حلّ مشكلها الى ايامه القابلة بحيث يكون اتم علومه العالية وفرغ من دروسه المتتالية كما يؤخذ من منطوق كتاب لهُ الى اخيه يوسف يلومهُ فيه على تشبثهِ بالمبادىء الجديدة دون اكتراث وبهِ يظهر نفوره وامتعاضه من اولئك الشبان الاغمار المتفيهقين على غير خبرة ورويّة بكثرة آرائهم وثرثراتهم الفلسفية . وبعد ان قضى سنته الاستعدادية حاز قصب السبق في امتحاناتهِ وأُذن لهُ ان يدخل المدرسة العالية المار ذكرها (اي مدرسة البوليتكنيك) فكان ذلك ما لقي من الفرح والسرور حتى ذلك اليوم فاقام بها سنتين وخرج منها ضابطاً في سلك المدفعية وأُرسل الى مدينة متس (مدينة في اللورين كانت يومئذٍ لم تزل في حوزة فرنسا ثم غلبتها عليها المانيا في حرب ١٨٧٠) فمكث هناك بضعة اشهر وتعرَّف باعزّ اصدقائهِ وهو الرجل الذي حصل لهُ شأن كبير في مدة حياته نريد بهِ السياسي المشهور الكسيس دي توكفيل وقد قال عنهُ هذا في احدى رسائله ما نصهُ : « قد سررت جداً بروية الضابط دي لاموريسيير وقد توسمت فيهِ مزايا الرجال العظام فاعجبت بما فيه من فرط حب الاطلاع على اسرار الالفاظ والمبادىء والآراء والاخبار الواقعة اليهِ وبالجملة فان اساليب كلامه وطرق بيان آرائه لما اخذ بمجامع قلبي « اه »

ثم ان لاموريسيير قد تعلق بصاحبهِ المذكور وتمكنت بينهما روابط المودّة والاخاء وبقيت ما

ثم ان لاموريسيير قد تعلق بصاحبه المذكور وتمكنت بينهما روابط المودّة والاخاء وبقيت ما بقيا الى ان صرم الموت حبل ولائهما

ثم انتقل لاموريسيير من متس الى مدينة مونبلّايه بوظيفة ملازم ثانٍ في فرقة الهندسة واستمر فيها سنة يتم واجبات خدمته وينتهز اوقات الفراغ للمباحث العلميـــة وقد تعرّف هناك بكثير من الضبّاط والعلماء والشبّان كان يلقاهم في المنتديات العمومية وحيث كانت تدور المحاورات والمناقشات بخصوص الاحزاب السياسية والشيع الدينية والآراء الفلسفية كما لا يخفى ذلك على من قرأ تاريخ فرنسا لذلك العهد ابّان رجوع حكومة البوربون وكانت الخواطر متضاربة في تلك الآونة بداعي انقسام الشعب الى كاثوليك حقيقيين والى طبيعيين والى عقليين وغيرهم ممن كانوا على المبادىء السفسطية كشيعة سان سيمون والسوسياليست وكان قدنشم لاموريسيير في هذه الشواغل متهمكاً بها وحين شبت الحروب الافريقية اذهلتـــه عن ذلك واصبحت سهول تلك البلاد مرمى همه الوحيد مدة سبع عشرة سنة ولم يعاود السياسة والابحاث الدينية الا بعد حصوله على اعلى الرتب العسكرية اثر ثورة ١٨٤٨ بعد ان بلغ ذروة المجـــد وادرك شأو الشهرة الطائرة

الفصل الثاني

في افتتاح عاصمة الجزائر (سنة ١٨٣٠) وانشاء فرقة جند الزواف (سنة ١٨٣١)

في هذه السنة المذكورة عزم الملـــك شارل العاشر ان يأخذ بثـــاره من حاكم الجزائر وينتقم لامته منه على الاهانات التي الحقها بقنصله فشب عليه الحرب وساق اليه اسطولاً عظيماً معقود اللواء لامير البحر « دوبرّي » يقلّ ثلاثين الف جندي من الابطال بقيادة المارشال دي بورمون رجل القاندي البعيد الصيت لافتتاح مدينة الجزائر من غير مبالاة باحتجاجات دولة انكلترة واعتراضاتها

ومما يروى في هذا الشان ان السفـــير الانكليزي في باريس اتى رئيس وزارة فرنســـا البرنس دي بولينياك وقدم له لائحة رسمية من لدن دولته تتضمن الاحتجـــاج على التجريدة الفرنسوية

وتتهدد فرنسا بالحرب فاجابه البرنس قائلًا : خذ لانحتك وقل لمن ارسلها اليك انك قدمتها لي ولم اقرأها

ثم ذهب السفير الى ناظر الخارجية وافرغ جعبة حيله عند فلم ينل سوى الجواب الآتي : « قد اخبرتك يا حضرة السفير عن عدد دوارع الاسطول ,وعدد مدافعه وملّاحيه وجيش التجريدة وعن المكان الذي خرج منه العسكر الى بر الجزائر فقف لنا بالمرصاد في اساطيلك وامنعنا من ذلك ان امكنك »

فاختار الماريشال دي بورمون الملازم دي لاموريسيير في جملة من اختارهم من الضباط والجنود لبعث الحملة فغادر لاموريسيير مدينـة مونبليه في ٢١ اذار سنة ١٨٣٠ ووصل الى ائينيون بمدة بعد ان عاج في طريقهِ على « لونل ونيم وتراسكون وبوكير » (وهي مدن صغيرة في داخلية فرنسا) فلما وطئ لاموريسيير ارض افينيون حيث كانت فرقته مزمعة ان تطيل المكث جعل يتعرف آثارها ويستقري بقاياها التاريخية فدخل الثكنة دخول آسف لاهف لتذكره انها كانت قصرًا للباباوات ملوكها ومرت بباله اخبار البابوية واعمالها الجسيمة خدمة للدين والانسانية في جميع العصور فارتاح مسرورًا بانهُ منطلق لاتيان اعمال تشاكل تلك الاعمال مبدأً وغايةً وهي نشر لواء المدنية في سواحل افريقية . وكذلك كان كريستوف كولومب وهو مسافر لاكتشاف العالم الجديد وبونابارت وهو شاخص الى فتح الاقطار المصرية

ثم قضى دي لاموريسيير ١٥ يومًا في افينيون و ١٥ يومًا في ارل ومنها وصل الى مرسيليا ومنها الى طولون حيث تمّ اخراج الجيوش في ١٦ ايار من السنة المذكورة وهناك وجد عددًا وافرًا من الضباط رفقائه في المكتب الحربي واقاربه واصدقائه .وقد اخبر والدته برقيم عن المعدات التي معه وهي سيف وزوجان من الغدارات وبندقية مزدوجة (جفت) وثلاث ليبرات من الشوكولاتا وقنينة مملوءة عرقًا . وركب الباخرة « اوكسيدان » اي الغرب في ٢٥٠ جنديًا

اما الاسطول فكان مؤلفًا من ١٠٠ بارجة بين صغيرة وكبيرة ويتبعها ٣٥٧ باخرة للنقل حاملة جنود الحملة وعليها ١١٢ مدفعًا وكان معقود اللواء للقبس اميرال دوبرّي . وبداعي تقلب الهواء لم يستطع الخروج من مرفا طولون الاّ في ال ٢٥ من ايار ولم يصل تجاه مدينة الجزائر الاّ في ١٣ حزيران وفيهِ تم اخراج الجنود الى البرّ في مكان يدعى « سيدي فرّوخ » وهو على مسافة

١٥ كيلومترًا من المدينـة المذكورة واعتنى دي لامويسيير حال خروجه بتحصين المعسكر واعداده لنزول الجيش . وهناك صادف لاول مرة الكونت دي كاتربرب وهو احد الضباط في اركان حرب فرقته وكان مزمعاً ان يوافيه ايضاً في باريس وفي انكون . وايضاً لقي اليوزباشي دوڤيڤيـه وعرفه وكان من امثالهِ انتظاماً في سلك جند الزوّاف وقد قُتل عام ١٨٤٨ في معامع باريس

وهنا يجدر بنا ان نلمَّ بجغرافية الجزائر وحالتها السياسية عام ١٨٣٠ وتاريخها لذاك الحين فنقول :

الجزائر اسم لبلاد شاسعة واسعة تحدها صحراء افريقية جنوباً ومملكة مراكش غرباً وتونس وطرابلس الغرب شرقاً والبحر المتوسط شمالاً وهي بين الدرجة ٣٢ و٣٧ من العرض الشمالي والدرجة ٢ من الطول الشرقي و الـ ٩ من الطول الغربي كانت تدعى قديماً نوميديا وجيتوليا واشتهرت في تاريخ الرومانيين بحروب قرطجنة ويوبا و يوغورتا ثم وقعت في ايدي الامم العربية الفاتحة ومنها ذهب العرب الى الاندلس واليها عادت بقايا من طُرِد منهم . ثم في الجيل السادس عشر دانت لامير البحر بربروس العثماني الذي قسمها الى بكويّات ورتبها وجهز لها اسطولاً مشهورًا فاصبحت بعد مماته منبعاً للصوص البحر (القرصان) الذين دوخوا البحار واسروا مراكب النصارى واستبدوا بدول اوربا

وكانت اربعة اقسام يتولى ادارة كل منها والٍ لقبه بك وذلك في وهران وفي قسطنطين وفي تيتري وكان هؤلاء البكوات خاضعين لسلطة والٍ في مدينة الجزائر لقبه داي وكانت البلاد آهلة بالقبائل وهي امة شديدة البأس تسكن الجبال وداخلية البلاد ومنها معظم الشعب والبربر وهي من نسل النوميديين والسكان الاصليين والعرب نسل الفاتحين من اهل الاسلام ومن اليهود ومهنتهم التجارة وكان عددهم قليلًا يومئذٍ وفيهم ضراعة وصغار

وكثيرًا ما انتشب القتال بين الداي والافرنج وخصوصاً الفرنسيس حتى انهُ آخر الامر حظر عليهم صيد المرجان في جوار بونه على حق لهم فيهِ مدعياً ان لهُ مع حكومتهم بواقي مطاليب وبيان ذلك انه كان يطالب ملك فرنسا بخمسة ملايين فرنك باقية من حسابات قديمة وكان الملك المشار اليهِ قد امسكها عليهِ لاباء بعض الجزائريين اداء ما عليهم لتجار مرسيليا

ثم حدث عام ١٨٢٧ ان الداي حسين الآتي الذكر قد اهان قنصل فرنسا في الجزائر

وضرب وجهه بمروحة كانت بيده في مقام رسمي فخرج القنصل واخبر دولته فارسل ملك فرنسا ٣ بوارج لمحاصرة الجزائر ولبثت ثلاث سنين تتجشم الخسائر على غير طائل وكان الداي يسخر بها هازئاً باصحابها حتى اذا كان عام ١٨٣٠ ارسل ملك فرنسا اسطولاً وجيشاً لفتح مدينة الجه كما اشرنا آنفاً

ولنعد الان الى سياق الحديث . فاخذت الجنود الفرنساوية تحصن المعسكر خوفاً من هجمات العدو . وقد غارت عليهم جنود الداي في ١٩ حزيران فصدمهم جنود الفرنسيس بما فطروا عليه من البسالة والشجاعة وما زالوا بهم حتى هزموهم وردوهم على اعقابهم ناكصين الى ما وراء خيامهم في « ستاولي » ومنها عادوا الى معسكرهم وتولى دي لاموريسيير في تلك الموقعة قيادة بلوك من المشاة واستولى على بطارية من المدافع وعلى اثر الواقعة فتح طريقاً للمعسكر وجعله حسن الاتساع وبنى في منتهاه معقلاً لجماعة من الجند يرابطون الدرب هناك

وفي الـ٢٤ من حزيران المذكور حدثت واقعة ثانية في محلة « سيدي كالف » حيث قتل احد اولاد القائد العام دي بورمون وفي ٣٠ في الشهر المذكور بُدئ بحصار قلعة « الامبراطور » وهي اعظم حصون مدينة الجه . وقد ابلى دي لاموريسيير بلاء حسناً في اعمال الحصار حتى ان القائد العام سأل له الوزارة وسام جوقة الشرف

وفي ٤ تموز صباحاً أُخذ باطلاق مدافع الفرنسيس على القلعة المذكورة التي لم تفتر عن المدافعة الاَّ عند الساعة العاشرة قبل الظهر . ثم احرقتها حاميتها ودمَّرتها قبل تسليمها وعند الساعة الثانية بعد الظهر فتحت المدينة ابوابها ووكل الى دي لاموريسيير امر رفع العلم الابيض الفرنسوي على اسوار « القصبة » وهي اسم سراي الداي حيث وضعت خزينة الداي البالغة خمسين مليوناً من الفرنكات خلواً عن ان يمسها احد وقد حاول بعض الضباط اخذ قليل من الآثار والتحف اما دي لاموريسيير فقد ارسل الى امه بعض تذكارات اشتراها من مال جيبه الخاص . ثم طيَّر القائد العام الانباء الى الملك فاجابه بالشكر رافعاً رتبته الى مقام ماريشال وبالتهانيء وتوجيه الرتب الى سائر ضباط جيش الحملة

وبعد ان استراح المنتصرون بضعة ايام في الجه ارسل الماريشال دي بورمون تجريدتين للاستيلاء على مدينة وهران وعلى بونه (وهما مدينتان في الجزائر الاولى واقعة غربي مدينة

الجزائر والثانية شرقيها وكلتاهما على شاطئ البحر المتوسط) وايضاً فانه ساق ١٢٠٠ رجل براً لافتتاح مدينة « بليده » وذلك في ٢٣ تموز وقد رافق دي لاموريسير هذه الشرذمة الاخير فاستولت على المدينة الا ان الجنود منذ اساءوا معاملة سكانها باقبح الطرق الشائنة ولم يشتهر بحسن المعاملة الا بعض الضباط ومنهم دي لاموريسير الذي تمكن من تخليص امرأة ايم ذهب بعلها قتيلاً واعادتها الى عائلتها في الجه وقد كان لسوء مسلك الفرنسيس في تلك المدينة سمعة قبيحة جداً بين الناس حتى ان القبائل المجاورة ثارت عليهم حين رجوعهم الى عاصمة الجزائر وطاردتهم مطاردة عنيفة

ومما صنع القائد العام انه امر برسم المدينة وجميع قلاعها ومواقعها الحربية وندب دي لاموريسير الى هذه المهمة فاقبل على اتمامها ايما اقبال

وفيما كان جمهور الظافرين يهتمون في مواصلة الفتوح وتحسين حالة الجيش والمستعمرة الجديدة وردتهم على بعض البواخر التجارية اخبار انقلابات خطيرة جداً حدثت في باريس . وذلك انهُ في ٢٧ تموز هاج الباريسيون انكاراً لاوامر اصدرها شارل العاشر تعديلاً وتأويلاً للمادة الـ ١٤ من قانون المملكة الاساسي ونادوا على البرنس دي بوليناك ووزارته في الادالة والاركاس ومن الغد كثر الاضطراب وتفاقم الخطب حتى بلغ من تباعث الثائرين وتغاويهم انهم اقدموا على طلب خلع الملك فتمَّ ذلك في اليوم الثالث اي في ٢٩ تموز . وفي ٣ آب نودي بتمليك عم الملك وهو الدوق لويس فيليب دي اورليان فصار ملكاً على امة الفرنسيس باسم لويس فيليب الاول وحلف اليمين المعظمة حفظاً للقوانين الشوروية والمدافعة عن نظامات المملكة وامر باستبدال العلم الابيض الزنبقي بالعلم المثلث الالوان

وهكذا سقطت وزالت حكومة تلك السلالة النبيلة بعد ان عادت الى الملك ومن آثارها افتتاح تلك المستعمرة الانيقة وهي ديباجة املاك فرنسا الخارجية . وقد صبر اصدقاء تلك الاسرة على البلاء والمحنة متعللين بوشك رجوع الامر الى نصابه معرضين عن خدمة الملك ومن جملة هؤلاء الاقوام عدد غير قليل من ضباط جيش الحملة الجزائرية

واما دي لاموريسير فقد حملته المبادئ التي كان قد تلقاها عن والديهِ واخوالهِ ان يتجلد على مظاهر هذه الفتنة رابط الجاش وفيهِ بعض التوجد والارتماض . وبالنظر الى ايهامات قوم من

دعاة الثورة كان سقوط آل بوربون من ذرى مجدهم معزواً الى نهضة شرعية قانونية لحاولتهم خرق حرمة القوانين ومع تمادي هذه الهواجس واتساع الخرق كان لاموريسيير متمالكاً نفسه غير مترام الى الاهتمام والجزع يؤيد ذلك ما كتبه الى والدته في ٢ آب وهو « قد تم كل شيء بلا اضطراب وفي الـ ١٧ من الشهر المذكور قد تمّ استبدال علمنا الابيض بالمثلث الالوان فحياه زملاؤنا القدماء تحية التلاقي بعد طويل الفراق اما انا فقد كنت اودّ لو لم يقع استبدال العلم ولكني لا يسعني ان الوم على ما فعل للوطن من استرجاعه لعلمه »

واما رفقاء دي لاموريسيير اولئك الضباط البريطانيون الكاثوليك والقانديون فانهم استشاطوا غيظاً وحنقاً حين لتاهم النبأ وكسروا سيوفهم وغادروا الخدمة العسكرية ومنهم الكونت دي « كاتربارب » ودي « كركولاي »

ولما وصل الى مدينة الجزائر الجنرال « كلوزل » المعين من قبل لويس فيليب قائداً عاماً خلفاً للماريشال دي بورمون عدوّ المبادىء الجديدة سافر سلفه المشار اليه في بنيه الثلاثة ومعهُ قلب ولده المقتول في موقعة « سيدي كالف » كما ذكرنا في حينه وقد حبط سعياً لدى عدوه الاميرال دوبري الذي كان بامرته في الحصول على سفينة فرنسوية تقله وعائلته الى احدى الفرض (الاساكل) الاسبانيولية واخر ما كان انه اضطر الى السفر على باخرة اجنبية رضيت ان تقله وبينما الوف من الضباط والملاقين يحدقون بالقائد الجديد اسرع القليل من أولي الشرف والمبادىء الى وداع رئيسهم وقائدهم للنصر المنبوذ المكروه يومئذٍ وكان في مقدمتهم دي لاموريسيير الذي ودع رئيسه وابن وطنه الوداع الاخير

وقد اخطأ الكتبة كلاماً بما عزوه من الخواطر المتناقضة الى دي لاموريسيير تحسراً على الدولة الساقطة المزلزلة وترددا بين جاذب التعلق بها ودوافع التملق للدولة الجديدة طلباً للوظائف والتقدم . الا ان الحقيقة هي انهُ مع تفانيه في مركزه كان غير متعلق بالمبادىء الملكية الجديدة واصبح في اختلاف ظاهر مع عائلة امه

وكان ان احد اخواله دخل في مجلس النواب نائباً عن مدينة « انجه » وان خالاً له آخر صار الى مثل هذه الخطة نائباً عن مدينة نانت وفتحت والدته منازلها لاشياع الحكومة الجديدة خلافاً لمبادىء اقارب زوجها وترحاتهم وانشأ دي لاموريسيير يكاتب امه وشقيقه واخواله ساخراً

بالدولة الجديدة لانهُ ما لبث ان تبين تذبذبها وفساد رأيها وسوء مصيرها فتراه في مراسلته تارةً يسخر بالحكومة التي يدعوها « بنت العصيان والحواجز » وطوراً يتأسف على سوء بخت المدرسة العالية في باريس التي قُلدت ادارتها وامور التدريس فيها الى اساتذة غير اكفاء للقيام بما يُطلب منهم وتارةً يهزأ باخيه لتعلقه برجال اليوم الذين لا خطر لهم ولا شان وحيناً يتأفف لما كانت الحكومة الجديدة تسنّه من الشرائع بخصوص نواب الامة ومجلس الاشراف ووراثة النبلاء . وخلاصة الامر انهُ كان متحققاً عدم ثبات تلك الدولة ولكن لبث في سلك الجندية يتوقع الحوادث المستقبلة

وقد اجاب في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٣٢ من كان يُشير عليهِ بترك الجندية بما تعريبهُ : « لم يكن للشعوب البطيء تقدمها مثل الحرب رسولاً حقيقياً الى الهيئة الاجتماعية ولا مثل الفتوح ذريعةً لنشر مبادىء التمدن وبث انوارها ولهذا يجب على الشعوب ان تستمر متسلحة عند حدود التمدن والبلاد المتوحشة على نحو حالتنا في الجزائر »

فهذا القتال الدائم بين التمدن المسيحي والتوحش المغربي قد حقق لهُ صحة دينه وارجعه شيئاً فشيئاً الى اعتقاداته واعتقاد اجداده وابعد عنه السفسطات الفلسفية تشاغلاً عنها بالحروب واعاده الى المنهج القويم وهو انهُ لا يمكن نجاة امة الفرنسيس وتمدن الجزائر بغير الديانة الكاثوليكية . ففي تلك السنين الطوال التي قضاها وحده في الجزائر خلواً عن معين او ظهير مشير لم يعدم البقاء على المبادىء الاصلية وهي وجود الهٍ واحدٍ وهيئة تصل الانسان بهِ وتوصله الى معرفتهِ وان قوام الحكومة بالحق والعدل . وبهذه المبادىء الجوهرية واشتغاله الدائم بتحسين احوال جنوده والشعب استطاع ان يحكم على فساد حكومة « تموز » (اي حكومة لويس فيليب) ومتابعة اتمام نيَّاته بلا خوف ومبالاة بالمضادات والمقاومات العنيفة التي لاقاها من رؤسائه ولهذا طاب لهُ المقام بالجزائر واستمر فيها ١٧ سنة يتابع السعي لبلوغ بغيتهِ وهي رفع العلم الفرنسوي على سهول المغرب وما كانت الدنيا لتضن عليه بما يحتاج اليه في هذه الحيوة الشاقة المتعبة وكان مقرناً للقاء الشدائد والمحن التي قعدت بمثله من الرجال

اما صفته فهي قصر القامة وعرض الكتفين والخفة مضاء والكيس واللباقة في جميع حركاته وقوة الحول وشدة البأس ورحابة الصدر وسعة الجبين يعلوه شعر اسود وحسن الانف وتجل

العينين في اتقاد الحدقتين وجهارة الصوت ونداوته ونجوع الكلام في النفوس . وفي قليل من الزمن احرز قائدنا الجراءة والعزم والاقدام ونحوهما مما يجدر برجال الفتح ويزيد في شهامة الجندي ويشهد بسمو مقام القواد

ولهذا رأى نفسه محصوراً في ربقة من دائرة الهندسة الجندية (منصبه الجديد) فعلى م ندب الى تخطيط الطرق ورسم القلاع والمدن واحتفار الخنادق وهو الذي كان ملتهباً حماسة وحمية حين اخذ عاصمة الجزائر

اما بدء تعلمه اللغة العربية فكان عند قنصل انكلترة ثم ازداد فيها معرفة بالتكلم مع المغاربة والوطنيين في الاسواق والمحلات العمومية ثم لم يمر عليه زمن طويل حتى تمكن بهذه الوسيلة ان يقدم الى قائده لائحة وافية البيان ضمنها رأي المغاربة وحكمهم في مسألة غشيان الفرنسيس بلادهم وما نشأ عن سلوكهم وتصرفهم من التأثير واصفاً حال حكومتهم فاعجب به القائد لوفرة حذقه وفرط ذكائه

وكان دي لاموريسيير يتزايد رغبة في متابعة مشروعه بما رأى من تباشير الفوز والنجاح وطفق يتقصى جميع الامور العارضة له ويكتنه شؤون القبائل والحالة الاجتماعية في المغرب واحوال العرب واليهود هناك واكثر من الجولان في الجهات القريبة من الامصار والمدن حيث كان البعث ضارباً اطنابه وكثيراً ما انفرد في التطواف لتعرف المواضع والسهول والجبال . واستعمل في ركوب الخيل السروج العربية ومهاميزها العريضة وراض نفسه على مجاهدة طول الركوب حتى عاد لا يبالي ببعد الشقة ووعورة الطرق المسالك

ولنعد الى استقراء انباء الفتوح فنقول ان حكومة باريس لم تدرِ اول الامر خطر فتح الجزائر وكانت تحسب ان الحرب قد انتهت بحيازة المدينة . اما الماريشال دي بورمون فكان قد شرع في توسيع نطاق اعماله وكان قد تغلب عن مدينة وهران وبونه ووزع الوظائف الجندية والادارية قاصراً همه على تعاهد شؤون ضباطه تاركاً القضاء لشيوخ القبائل وعظم اهتمامه في تتبع ماجريات حكومة « الداي » متحيناً انقياد العرب الى حكم القدر المحتوم لايقاعهم في ايدي الفرنسيس ولكن شؤم الطالع قد حال دون بلوغ الامنية فحدثت فتنة تموز تلك السنة واحبطت جميع المساعي والاعمال المذكورة ووقع استبدال الفاتح بالقائد كلوزل وتخوفت فرنسا من شبوب

حرب باوربية فاستقدمت اليها جانباً عظيماً من بعوثها الظافرة فغادر القائد كلوزل مدينة وهران ولم يبقَ في حوزته سوى الجزائر وبونه خاصةً فانتشرت القبائل في ارباض الجزائر متهالكة على السرقة واصابة الطرق والسلب. وتزع عرب الداخلية الى الاستقلال والاحتشاد بزعامة رؤساء ذوي اسرة كل منهم وشانه والقابهم بك او والٍ ومنهم والي قسطنطين الحاج احمد وامير مسكرا عبد القادر ولذلك اصبح اكثر من خمسمائة الف عربي شاكي السلاح متأهب لمقاتلة الفاتحين اعدائهم في الجنسية والديانة

ولكن استقرار السلم في اوربا سهل تجهيز البعث واخراجه ثانيةً من فرنسا الى هاتيك الديار فاستأنف القائد كلوزل عزمه على توسيع المستعمرة ونصب بيك اي والٍ على مدينة « مديه » في ولاية « تتري » وهي اقرب الولايات الى ما وراء جبل الاطلس. فتوجه كلوزل بنفسه مع الفرقة المعدّة لفتح مديه واستصحب دي لاموريسير لما كان يعهد فيه من الثبات والاقدام وهاك ما كتب في هذا الصدد مخبرًا والدته عن هذه الحملة قال :

حدث عندنا في الايام ما يجدر بالذكر ذهبنا الى « مديه » حاضرة ولاية « تتري » التي تبعد ستين او سبعين كيلومترًا عن الجزائر وكان ذهابنا بحرًا في اليوم السابع من تشرين الثاني وكان عسكرنا زهاء ستة آلاف جندي حاملين من الذخائر والمؤن ما يكفينا الحاجة مدة خمسة عشر يوماً . وفي اليوم التالي قضينا الليل في مدينة « بليده » وكانت خالية من السكان لان اهلها هربوا منها الى الجبال وقطعوا ماء الشرب الجاري اليها وفي ثالث يوم احرق جنودنا القرى المجاورة وذبحوا من وجدوا من سكانها وكان مرأى الخطب هائلًا وعند المساء عمّ الحريق سائر البلاد القريبة : وفي اليوم الرابع خرجنا من هناك وسرنا الى آخر النهار ثم قضينا الليل . وفي اليوم الخامس ارتقينا الجبل في شعب ضيق جداً يشبه مسلك الماعز حتى اضطررنا ان نصعد أُحادَ أُحادَ مغادرين خلفنا صفوف (بطاريات) مدافع السهل والعجلات مقتصرين على صف مدافع الجبل واذ صرنا الى مسافة الفي متر من قنة الجبل وجدنا الطريق دارسًا داثرًا فطفقنا نصلحه ما امكن فاذا بالعدو يقذف علينا نارًا حامية من افواه البنادق فتوقل كتيبتان من جنودنا في ذلك الطود حتى وصلتا قمته اليسرى واستشرفتا موقف العدو فلم يقع البصر عليه وآخر الامر لم نجد بدًّا من تجشم صعود قنة الجبل في خلال هزمات مدافع الاعداء ولعلعاتها وكان بامكانهم قهرنا برمي الحجارة دون غيرها ثم

نجلدنا المخطب وتقدمنا قائدين الجند بهتاف الدعاء « ليعش الملك – تحيّ فرنسا » والى الآن لم نتعلم ان نقول « لتدم الحرية » وقد نشأ عن هجومنا وهزيم مدافعنا وقوع الرعب في قلوب العرب وكللت العناية الالهية مساعينا بالنصر لانها جعلتنا عدةً لتمدن افريقيا

وقد اشتهر دي لاموريسيير في تلك الوقعة وفرح بما رأى من بسالة الجنود خصوصاً الفرقة السابعة والثلاثين فانها سبقت باقدامها وشدة صبرها الى ارتقاء اعلى الجبل وعلى قيادتها الملازم دي مكماهون الذي كان مزمعاً ان يشتهر امره ويسمو قدراً ومنزلة . حتى اذا جاء المساء لبث دي لاموريسيير في مكان الواقعة وقضى ليلته هناك اذ كان لا بد له من اخذ رسم مضيق « موزايا » وهو المأزم الذي كثيراً ما قاتلنا العرب تمكناً من عبوره واجتيازه ومنه امكن لنا اطلاق البصر على متسع انحاء هاتيك البلاد الجديدة العتيدة ان تدخل في حوزة تسلط الفرنسيس وكانت تلك اول مرة خرج فيها مدة كونه في الجزائر من اربقة الحرجة التي هي عبارة عن « الارتش والمزفران » حول مدينة الجزائر المعروفة باسم سهل «ميتجا » فانهُ بصعوده على قمم الاطلس ابصر امامه جنوباً عدة الفاف من غابات الزيتون وفي اسفلها سهول انيقة تسقيها مياه « الشالف » الذي ينتهي مجراه على مسافة بضعة كيلومترات من مدينة وهران ومن وراء هاتيك الهضاب والسهول يرى الناظر قمم جبال وهران التي تحد الجزائر من صوب الصحراء ومن هنا ينتج ما يأتي وهو انهُ بسبب عدم وجود نهر كبير في الجزائر كنهر النيل في مصر يسقي جميع الارضين وبداعي تعدد المجاري والجداول لم يكن في الطاقة افتتاح البلاد دفعة واحدة وانما يلزم ان يقع الفتح على قسم بعد آخر اي انهُ تعذر على الفرنسيس التوغل في الداخلية قبل الاستيلاء على ما كان من المدن قريباً من مصب مياه الانهر كمدينة مستغانم وبوجيه وبونه ومن هنا نعلم ان من اقبح الاغلاط ما اتاه بعضهم فتحاً لبعض المدن الداخلية مستبقين فيها جماعة من المقاتلة والدفاع عنها كما فعل القائد كلوزل فانهُ خلف في مديه والياً منحه لقب بك وابقى لهُ بضع مئات من الرجال ورجع ادراجه فصادف في طريقهِ حامية بونه محصورة فانقذها وصار الى الجزائر فامسى هو وجيشه عرضةً للبغضاء واللعنات من الجزائريين جزاء ارتكابه الفظائع والمنكرات في بونه وسائر اماكن الحملة

واما دي لاموريسيير فانهُ اظهر من الشجاعة والحكمة والادراك ما حيّر القائد كلوزل وحمله ان يسأل الوزارة له منحة وسام الجيبون دونور ولكن طلبه هذا لم يقترن بالاجابة وذهب سدى

كما ذهب طلب سلفه الماريشال دي بورمون

ولكن دي لاموريسير لم يغتم من هذا الصد والإباء اذ هو كتب الى اسرته في ترك الالحاح بهذا الملتمس مخافة ان يتّهم في شدة الطلب على غير جدارة واستحقاق ولما رأى نفسه محصوراً بسبب انخراطه في سلك اركان الحرب ضمن دائرة ضيقة كما قلنا سابقاً ولا يمكنه ان يظهر ما عنده من الاقدام والادارة اختار الانتظام في سلك آخر

الزوّاف

(من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٣٢)

في ابتداء عام ١٨٣١ سنح فرصة موافقة التبديل فترك سلك الهندسة ودخل في الجيش العامل مع ما كان يخشى من عدم الرجوع الى فرنسا وهاك ما كتب لوالدته حين اخبرها بانه صار كابيتان اي يوزباشي في الطابور الثاني من آلاي الزوّاف

ان اسم ـ زوّاف ـ مأخوذ من اسم القبيلة المكلفة باعداد جلّ الجند لهذا السلك . ولم ينتظم حتى الآن عدد كثير في هذا السلك ولم نزل ننتظر ورود ما نحتاج اليه من الجوخ وما يلحق من المنسوجات ولم اتم السنة الرابعة والعشرين من عمري وهذه سرعة تقدم لم اكن انتظرها حين كنت في الجيش المنظم . اما ملبوسنا فهو يشابه كسوة مماليك الامبراطورية الاولى . وفي امكاني ان اعود في المستقبل الى سلكي الاول . وعليّ الان ان اكون قيد اوامر اليوزباشي دوفيفيه الذي كان معنا في حملة الجزائر . وسأطاق عذاري كسائر رفقائي . وسنعتمّ بعمامة مثلثة الالوان يعلوها بعض ريش النعام ونلبس سلطة ـ كوبران ـ زرقاء وسروالاً احمر مثل سراويل المماليك وزنّاراً واسعاً فيه بعض قطع اسلحة وسيفاً منحنياً

ثم مع كوني يوزباشي فرقة الجند المشاة سيرصد لي حصاناً اجتاز البلاد على ظهره ومأموريتنا هي ان نسبق الجيش تجسساً للاخبار وجوساً للبلاد وبما اني كنت في الهندسة فلا يعسر عليّ ان اعود يوماً حاملاً رسم مدينة ـ تومبوكتو ـ (عاصمة بلاد العبيد في داخلية الصحراء وهي منذ ثلاث سنوات في حوزة فرنسا) فمن كان يحدس اني اكون من فاتحي الجزائر ؟

قلنا ولكنه لم يتعوّد لبس هذا الزي ولذا فانهُ بدّلهُ في اول ساعة من تقدمه في المناصب

ولم يستبق منهُ سوى الطربوش. واما كلوزل فانهُ لما لم يستطع حشد فرق جنود مشاة من فرنسا عمد الى تأليف جيش وطني دعاه بالزواف كما قدمنا. وعهد بقيادة الكتيبة الاولى منهُ الى اليوزباشي ـ مومه ـ وخلفه في ـ مديه ـ. وعهد بقيادة الكتيبة (الطابور) الثانية الى اليوزباشي ـ دوفيڤيه ـ وعيّن دي لاموريسيير يوزباشياً للبلوك السابع من الطابور الثاني فتسنى لهُ حينئذٍ ان يدرس فنون الحرب وغوامض مسألة الجزائر دفعةً واحدةً وهي فرصة لا توجد في اوروبا اذ كل ضابط لا يخرج عن دائرة سلكه وهي ندحة عظيمة عادت على جندية فرنسا بقادة من مثل دي لاموريسيير بطلنا هذا الشهير ومثل تلاميذه في الحرب وهم ـ كافنياك وبوسكه وشرّاس ـ وغيرهم. وتألفت صفوف الزواف ايضاً بالمتطوعين الباريسيين وكان معظمهم من عصاة سنة ١٨٣٠ في تموز الذين اسسوا الحكومة الملكية وقتئذٍ. ونظراً الى اطوارهم لم يفلح بينهم عملاً الاَّ دي لاموريسيير فانهُ تمكن في برج ـ بازون ـ من قيادة ثلاثة طوابير من هؤلاء الشبان

وفي تلك الآونة فُصل الجنرال كلوزل عن حكومة الجزائر وسُمّي الجنرال ـ برتزن ـ والياً عاماً لتلك المستعمرة وذلك في ٢٠ شباط سنة ١٨٣١ وهذا القائد كان قليل الخبرة في حروب الجزيرة جاهلاً ضروب الادارة واساليبها ظاناً ان كل حرب في الجزائر تقوم بحركات الفرق والالوية والغزو ليس الاَّ فابتدأ عمل سلطته بالذهاب الى ـ مديه ـ حيث ذهب متولياً رئاسة خمسة الاف جندي وخرج من الجزائر في ٢٤ حزيران عام ١٨٣١ وفي جملة جنوده طوابير الزواف وفي عداد ضباطهم دوفيڤيه وبطلنا دي لاموريسيير فوصل في ٣٠ حزيران بغير مقاومة الى ـ مديه ـ ولكن اشتد القتال في غرة تموز وقد اراد القائد التنكيل بالعصاة من القبائل موعزاً الى جنوده ان يوقعوا بهم فقاومهم العرب اشد المقاومة واضطر الفرنسيس ان يهجموا على تلال ـ ريرا ـ وهم عرضة لرصاص ألفين من مقاتلي العرب وقد تولى تدبير هذا الهجوم اليوزباشي دوفيڤيه وزوافه. وهذا ما كتبه دي لاموريسيير الى امه: ـ لم أُصب بجراح بيد ان احدى اسناني قد كسرت بسبب سقوطي عن جوادي الى الارض كابياً لوجهي فظنني رفقائي اني قضيت نحبي ولكني وصلت مع جنودي الى اعلى التل اما جوادي فلم يكن لهُ مثل حظي اذ انهُ لبث مجندلاً في ساحة القتال فهو هالك فأسألك ان تذرفي عليهِ دمعةً واحدةً او بالحري ان تمني عليَّ بثمن مثله لاعتاض عنهُ بشراء آخر ـ ثم ان العرب تألبت بعدئذٍ على مهاجمة الفرنسيس اخذاً بالثأر فطاردوا جنودهم

وهم راجعون الى الجزائر واخذوا يناوشونهم طول مسيرهم في الطريق بين مديه والجزائر والمسافة اكثر من ١٢٠ كيلومترًا وقد افرطوا في العداء على الخصوص عند عبور مضيق - موزايا -

فهنالك قاتل دي لاموريسيير قتال الابطال لانهُ لما رأى انهزام الطابور العشرين من الجيش المنظم ووشك خطر هلاكه ووقوع علمه في حوزة العدو وثب عليهِ بجنوده الزواف واستخلص ما كاد يقع في ايديهم الى ان وصل الى اسفل الجبل وفي تلك الواقعة حدث لهُ وهو يناول طاسة ماء الى احد الضباط ان رصاصة بدويٍ وقعت اسفل الطاسة فنفذتها وسال الماء على الارض

وعلم القائد العام ما كاد يحلّ في جنوده من الفشل والهزيمة لولا ثبات جأش دي لاموريسيير ومكافحته الشديدة فتعجل انهاء الامر الى الوزارة الحربية سابع تموز تلك السنة وهو عائد الى الجزائر برقيم قال فيهِ ان الفخر في انقاذ الجيش يعود الى الزواف والى متطوعي الباريسيين والى بعض الضباط وفي مقدمتهم دي لاموريسيير وسأل لهُ الوسام الذي عجز عن تحصيله من كان قبله على قيادة الجيش دي اي بورمون وكلوزل . هذا وان دي لاموريسيير لم يذكر شيئًا عن اعمالهِ في ذلك اليوم المشهور حتى لوالدته فكتب اليها بتاريخ ٦ تموز مقتصرًا في كتابه على ما يأتي :

« لليوم وصلت من مديه . في ذهابنا اليها لم نلقَ اقل مقاومة ولكن رجوعنا منها كان محفوفًا بعدة مخاطر . وقد عرا الخوف بعض الكتائب (الطوابير) النظامية . وقد كنت متوليًا قيادة بلوك من رجال ثورة تموز الماضي والحق يقال انهم ابلوا في القتال بلاء حسنًا وقد رأى القائد العام ما سره في مسلك طابورنا . واذ بلغنا السهل اعوزنا القوت والذخيرة والعدة فواصلنا المشي ليلًا ونهارًا لا مزيد عليها نريد الجزائر ومع اجهادي نفسي عدوًا لم يدركني العياء والاكلال فوصلت هذه المدينة وفي نفسي نشاط وسرور ولكني قضيت اليوم الاول والليل الاول كله اكلًا وشربًا ورقادًا اذهابًا لما كان قد نالني من جهد العطش والسغب واللغب وبعد انقضاء اربع وعشرين ساعة استأنفت اعمالي حسب عادتي »

ثم بعد برهة اخبر والدته انهُ مندوب لتدريب طابور ثانٍ من الزواف وانهُ أرسل في مائة رجل من العرب ومئتين من الفرنسيس والاسبانيول الى قلعة صغيرة على مسافة ثمانية كيلومترات من الجزائر وموقعها شاطئ البحر المتوسط . ثم جعل يصف حسن منظر البلاد وطيب رائحة ازهارها ومنها الياسمين والورد ثم يصف لها ما وصلت اليهِ حالة الفرنسيس في مستعمرتهم من السقوط

والضعف . « ان سهل متيجا لم يزل مفتوحاً للعدو لاقلعة فيه ولا برج وهو ابداً عرضة لوثبات فرسان العرب وقد كثر تعديهم حتى اضطر الضباط ان يطلقوا المدافع لطردهم من السهول . فلما سمع القائد العام في عاصمة الجزائر صوت المدافع خاف جداً وامر باقفال الاسواق وفي هذه الفرصة قدم مرسى الجزائر بارجة فرنساوية من نوع الفرقاطة اسمها « ارتميز » وعليها ابن الملك البرنس دي « جوانفيل » وما لبث ان خرج الى البر ثم رأى الخوف عاماً في تلك المدينة وتهمك القائد باعداد المدافعات والاستحكامات فكر راجعاً الى بارجته وابتعد عن مدينة الجزائر سريعاً . ثم بعد يومين رجع العرب عن حصار المدينة المذكورة لنفاد المؤنة واعواز القوت ولو طالت مدة الحصار لهلكنا جوعاً او كدنا من شدة الضيق والحاجة الى الرزق . ومن الغد جاء العرب الى اسواق المدينة يبيعوننا الحنطة والخبز حاملين البُرّ في اكياس من شعر محملة على ابلهم »

اما هو فانهُ كان يغضب جداً من عدم اعتناء القواد بالزواف وبمصالح فرنسا مما كان يجعل العرب يتادون في العصيان فانهُ كان يستشيط غضباً عند رؤيته عدم تقدم المستعمرة وتهاون الحكومة باتخاذ الوسائط لمزيد عمرانها خصوصاً بعد مرور اكثر من سنة ونصفُ اخرى من افتتاح مدينة الجزائر فكان ينزل اشد اللوم على تلك الحكومة بنت ثورة تموز التي كان اقاربه يحسنوها لهُ بانها هي حكومة الدرجة المتوسطة : « نعم هي حكومة متوسطة لانها تابعة الطريقة الوسطى بين جيش دي بورمون الفاتح وجيش الامبراطور شارل الخامس الذي اضطر قديماً للهرب من هذه البلاد

ومع هذا لم يكن ليتولاه اليأس وانما استمر وجنده مواظبين على تعلم اللغة العربية ودرسها وولع بمطالعة الكتب السياسية متعمقاً في مسائل استعمار الجزائر . واخص ما وجه اليه اهتمامه ترتيب الزواف وتأليف القلوب بين من هم بامرته من العرب والفرنسيس وتمرين الاولين منهم على الطاعة والانقياد والشغل جميعاً وتعويد الفرنسيس على احتمال التعب والحرّ والجوع والصبر وهذا ما ابتدأ به وقتئذٍ وتممه حين استأثر برئاسة الزواف لتوليه قيادة حامية « القليعة » فتمكن من هذه الطريقة بجعل الزواف كما ينبغي ويرام قادرين على افتتاح البلاد بعد ان اهملت فرنسا هذا الشان في جنودها المنظمة . ولهذا فلا يعجب قارىء التاريخ من كثرة مشاهير الضباط والابطال والقواد في سلك هذه المدرسة الحربية النادرة المثال فانك ترى في عدادهم تنويهاً ذكرى « دي لاميرول وليفاليان ومينسيا وبدال و بورباكي وفوجه ودوماز » وغيرهم ممن قُتلوا وبادوا قبل ان يتمكنوا من

الوصول الى مراتب عالية . وكان من اعز اصدقاء دي لاموريسيير في ذاك الوقت اليوزباشي « بيكو » رفيقه القديم في سلك الهندسة ثم في الزواف لكن لم تطل مدة صداقتهما لان بيكو قُتل في تلك السنة وسيأتي خبر مقتله

قد ذكرنا آنفاً ان الماريشال دي بورمون لما افتتح مدينة الجزائر استولى على « وهران وبونه » وان خلفه الجنرال كلوزل لما وجد هاتين المدينتين بعيدتين عن المدينة المار ذكرها اشار على الحكومة بالاستيلاء على بلاد الجزائر لا غير وبيع ولاية وهران وقسطنطين من باي تونس بمثابة عوض سنوي قدره مليون فرنكاً وانهُ محو وهران بالكلية ولم يبقَ في بونه الا بعض جنود للمحافظة على العلَم الفرنسوي اذ كانت الجنود الفرنسوية قليلة العدد على ان الحكومة لم ترضَ بهذا العمل فانفذت الجنرال « بويه » لاسترجاع وهران وامرت بترتن القائد العام بالمحافظة على بونه وان ينزل فيها حامية كافية فارسل القائد العام المشار اليهِ مائة وعشرين رجلًا من الطابور الاول في الزواف بقيادة اليوزباشي بيكو لمساعدة اهل بونه على جنود بك مدينة قسطنطين وايضاً امر بتجهيز مائتي جندي من الزواف لانجاده وامداده عند الحاجة والخطر ولكن لما وصل دي لاموريسيير في هؤلاء الجنود الى مرسى بونه علم بمقتل صديقه في واقعة كان النصر فيها للعدو لكثرة عدده وان المدينة وقعت في يد العدو فلم يغنِ عنهُ شيئاً سؤاله القائد ان يبيح لهُ الخروج الى البر وان يحرق القاعة ويستولي على المدينة اذ قد ابى عليهِ ذلك وقفل راجعاً الى بلدة الجزائر بعد ان استخلص اسرى الزواف . ثم كتب دي لاموريسيير الى والدته ما يأتي : « لا يمكنني ان احدثكِ عن تجريدتنا العسكرية التعيسة زحفاً على مدينة « بونه » لانها تذكرني اموراً محزنة فان صديقي بيكو قد قُتل فيها مدافعاً حتى آخر نفس من انفاسهِ شأن الابطال المستبسلين وان فقده لرزء جسيم على المستعمرة لانهُ كان مقدماً حاذقاً خبيراً عارفاً بلغة العرب واطوارهم وكان لهُ في ضمير الدهر سر كامن يبلغ بهِ شأواً بعيداً خطيراً في تاريخ الاستعمار ولكن حال القدر المحتوم دون ادراك المروم . . . . وبعاد المرء مثلي عن اهله يبصره عظم الرزيئة في اصدقائهِ »

اما وهران فكانت كالمحصورة من جميع الجهات مثل مدينة الجزائر عينها وما خلا ذلك فان القائد العام لم يكن اتى شيئاً بعد مما له تعلق بادارة شؤون الجزائر فاستمر اليهود والمغاربة قابضين

على ازمة التجـارة والاملاك ولبواب الارتزاق وفوق ما مرّ كله فان الاسترقاق والنخاسة لم يكونا محظورين يومئذٍ ومن هذا القبيل حادث رواه دي لاموريسيير لامه ما نصه : « في الايام الاخيرة جاء بينباشي طابورنا شابٌ من العبيـد يطلب الانتظام في سلك الجيش فاجابه بالقبول ثم بعد بضعة ايام وفد عليه اعرابيٌّ يسألهُ عن عبد آبق من خدمتهِ مدعياً انهُ ملكه اشتراه بمالهِ فاجابه اي البينباشي ان العبد لاذ منضوياً الى بعث فرنسا وبذلك اضحى حرّاً عتيقاً لحظر الاسترقاق عندنا (الفرنسيس) فذهب الاعرابي وشكا امره الى القائد العام فاصحبه الى طابورنا بترجماناً ونفراً من الجند للقبض على العبد وارجاعه الى سيده

فحاول البينباشي تأخير انفاذ الامر فارسل له القائد احد حجابه يأمره بالطاعة والامتثال ولما ابصر العبد مولاه عن بعد ابقَ فاراً من المعسكر وتعذر عليهِ العلم بمكانه حتى اذا كان المساء وقد درى بانصراف سيده سأل عما اذا كان الفرنسيس يستطيعون حمايته واجارته او لا وصرح بصيرورته فرنسـاوياً منذ صارت بلدة الجزائر في يدنا . ثم سألنا ان نبعثه الى فرنسا على ظهر البـارجة « لا فيكتوار » اي النصر وقال لو ايقنت ان الربان يقبلني لسرت الى السفينة سباحة في اليمّ حباً بالوصول الى ارض فرنسا والتمتع بالحرية فيها » ومع وفرة شفقتنا عليهِ واغتمامنا من اجله لم نجد بدّاً من انفاذ الامر ولكن توسلنا الى ارجاء امضائه بداعي ان على سيده بواقي مال للحكومة وها نحن هؤلاء الان بانتظار قدوم الدوق دي « روفيكو » المنصوب خلفاً « لـبرترن » على الجزائر لنرى ما سيحكم بهِ » (ان الدوق دي روفيكـو هو سافاري المشهور في مدة نابوليون الاول بصفة ناظر البوليس وبانقياده التام المقيّد لارادة مولاه)

ولم يمر غير قليل حتى وصل الدوق دي روفيكو ولكنهُ لم يحقق ما انيط بهِ من الامال فانهُ كان معتاداً استعمال القسوة والجور فابتدأ في الجزائر باعمال منكرة مستفظعة ظنـاً منهُ انهُ بذلك يريع العرب ويرهبهم ومن هذا القبيل حدوث بعض سرقات غير مهمة ولما لم يلق المجرمون آمر بشنّ غارة شعواء عمومية على قبيلة لا ذنب لها تدعى قبيلة « العوفية » اقدم الجند على ذبح جماعة منها وعادوا الى معسكرهم فامر دو روفيكو بمعاقبة العوفيين فلحق الجيش الفرنسوي سهولهم وحقولهم وقتل منهم من قتل وسفك دماءهم ظلماً وعدواناً ولما هاجت القبائل من اجل هذه الفعلات الشنعاء اوغل جنود الفرنسيس في الداخلية الى مدينة « القليعة » واعتقلوا اعظم المرابطين فيها

واحزمهم وقادوهم اسرى الى مدينـة الجزائر ثم امر القائد العام المشـار اليهِ بقطع رأس قائدي قبيلة كانا قادمين الى المدينة المذكورة في طلب الصلح والامان فكبر الامر على العرب وبلغ منهم الغيظ والغضب وازداد هياجهم واشتد شغبهم وجاهروا بمناوأة فرنسا وانحازوا الى مجاوريهم من الامم حتى ان بعض المدن قبلت عمّالاً من قبل سلطان مراكش

وفي ذاك الوقت ابتـدأت شهرة من كان مزمعاً ان يعظم قدره ويجل شانه في حيـاة لامريسيـير وتاريخ حرب الجزائر اعني بهِ الامير عبد القادر وكان همّ القائد العام وقتئذ المحافظـة على ضواحي الجزائر فعهد بمرابطتها وحمايتهـا الى الزواف وجعل اقامة طابورهم الوحيد (لانهُ كان قد نحى منهم طابورين من اجل بعض زلات) تارة في محلة حسين داي وتارةً في « بير قديم » وتارة اخرى في « دلي ابرهيم » ومنذ ذاك الحين اصبح دي لامور يسيير مستأثرًا بقيادة جميع الزواف لان من كان اقـدم منـهُ خدمة واعلى رتبـة في الضبـاط مثل دوڤيڤيه و مومه ونحوهما كانوا قد رجعوا الى فرنسا وان بيكباشي الطابور الحالي المدعو ـ كواب ـ كان كثير الشجـاعة في قلة حصافة وحجى على كونه مسناً ولهذا يعتبر التاريخ الضابط دي لاموريسيـير كالمنشىء الحقيقي لهذا السلك اذ انهُ كان مزمعاً ان يرقى الى رتبة امير الاي وامير لواء وهو قائد للزواف ـ وقد حفظ الجاويش ـ شمين ـ بعض ما جرى من نوادر الحوادث في تلك الامكنة حالة كون اهاليها على مشارف الحضارة في خشونة البرابرة كما اعتاد دي لاموريسيران يتكلم عن حرب الجزائر فمن تلك النوادر اثنتان الاولى ان دي لاموريسيير كان مرافقاً رجال الميرة والذخيرة فابصر العـدو عند عبوره احد الانهر قائماً على الضفة المقابلة فاسرع الى حل عقال المراكب وتترّس بها هو وجنوده وفتكوا بالعدى رمياً بالرصاص ولم يصب رجاله بسوء البتة . ثم بصر بالاعداء عن بعد يحاولون العبور فاعجلهـم باعادة السفن الى حالها الاولى واجتاز النهر وغلب العدو ورجع الى معقله. والثانية هي انهُ كان ذات يوم هو واليوزباشي « كوجون » وخمسون جندياً من الزواف في ما وراء ـ الارتش ـ (احد جداول الجزائر) فنظروا بغتةً جماهير الاعداء على الروابي القريبة فامتنع عليهم ان يتراجعوا القهقرى فصاح فيهم لا موريسيير ان بادروا الابلاء في القتال لا يمنعكم خوف الردى عن شدة الاقدام واذا باربعة من شيوخ العرب قد اقبلوا عليهِ يسومونه ورجاله الاستسلام تخلصاً من الهلاك

فتقدم اليهم ووضع امامهم المقياس الهندسي وناداهم بالعربية قائلاً اقسموا بدينكم انكم

تدعوني وصحبي نعود طلقاً الى المعقل والا فانتم ها لكون الان لا محالة . فاقسموا اليمين ورجع الزواف الى مواطنهم بدون ان يطلقوا بندقية واحدة . هذه هي الاعمال التي كانت تباشرها طوابير الزواف ومع ما كانوا يبدون من الاقدام ويبذلونه من التعب ويؤدون من جليل الخدم للمستعمرة فانهم كانوا مظلومين كل حين ومنذ انتظم سلكهم الجندي لم يؤذن لهم في العودة الى فرنسا كغيرهم من الطوابير بل لم يدخلوا مدينة الجزائر وقد وصفهم بعض الناقدين بشدة الجزاءة والاقدام الى حد خارج عن دائرة القانون يؤذن بعدم انقيادهم الى الرؤساء في حومة الوغى . نعم ان اية مزية حسنة او فضيلة جميلة بلغت حد الافراط والتناهي عادت عكس معناها ولكن ليس ذلك على اطلاقه والزواف اذاً غير مؤاخذين ولا ملومين من كل وجه وان شكوى شدة الحماسة لا تصح في جانب دي لاموريسيير خاصةً . اما الذي جعل الزواف اقوى منةً واعظم حولاً من العرب واعلى منهم يداً فهو ارتباطهم الودادي الدائم بين آحادهم ورؤسائهم . واما القول بقلة اذعانهم وانقيادهم لاوامر الضباط ففيه انهم ما كانوا ليقدموا على مثل ذلك الا مع اعتقادهم اختلال تلك الاوامر ونقصانها . اجل انهم اظهروا شدة عزمهم قصد التخلص من لبس سراويلات جنود الفرنسيس الضيقة وقبعاتهم واقتصروا على ما قل مما كان يحمله كل جندي من اللوازم وقد خصهم دي لاموريسيير بكل انواع الملابس الفارقة المميزة لهم عن غيرهم وفي جملة ما اعطاهم طباق الجلد الضروري لوقاية ارجلهم وسوقهم من الجراح والخدوش بسبب عدوهم في السهول بين الاشواك وتوقلهم في الجبال بين الصخور وايضاً فانهُ خصهم بزنار عريض من الصوف الاحمر وقايةً لهم من عدة امراض واخيراً « بالشاشة » اي الطربوش الاحمر ذي شرابة زرقاء واما هو فانهُ استمر لابساً الثوب الرسمي الفرنسوي دلالةً على ان الفرنسيس هم ولاة الامور في قبائل العرب ولم يستعمل من زي الزواف سوى الطربوش . الاحمر فيهِ الشرابة الزرقاء وهو فيما قلنا يُعرف « بالشاشة » ولازم هذا الزي بعد ان رقي رتبة امير لواء وفريق ولهذا لقب في مستعمرة الجزائر (بابي شاشة)

الفصل الثالث

المكتب العربي (بوجيه)

(سنة ١٨٣٣)

وكان ان الدوق دي روفيكو حين وصوله الى الجزائر قد استصحب الجنرال - تريزيل - بصفة رئيس اركان حرب له وهو من اثبت الضباط قدماً واحزمهم رأياً وما لبث هذا ان طلب من البيكباشي - مومه - وقد سبق ذكره مراراً ضابطاً شجاعاً خبيراً عارفاً باحوال البلاد ليتخذه له حاجباً (ياوراً) فاتاه باليوزباشي دي لاموريسيير فاعجب بشجاعته ومعارفه وقرّبه اليه وجعله من اعز اصدقائه وثقاته يستشيره في اهمّ المسائل ويساعده عند القائد العام على انفاذ كلمته وادراك بغيته حتى اصبح دي لاموريسيير بواسطته يدير اجل امور المستعمرة وكانت اراؤه سديدة صائبة على الاطلاق وما حاول احد مخالفته في قضية الا عاد من فوره الى وفاقه معترفاً بفضل عقله وصواب قوله

وفي بداية عام ١٨٣٣ ظهر في الدوق دي روفيكو داء دوي كمنت له فيه منيته فاعتزل القيادة العامة طلباً للراحة وعاد الى فرنسا وخلفه الجنرال - فوارول - فاقرّ الجنرال تريزيل على وظيفته السابقة واستقر دي لاموريسيير عنده ذا حظوة مجتهداً في درس عادات العرب ولغتهم وسياستهم وديانتهم يكرم وفادتهم ويلطف باي من اتاه منهم شاكياً وملتجئاً او زائراً - وكان شديد العناية باحسان انفاق الساعات وفقاً للمعالم الدالة على زوال التمدن و بداية التوحش - وفي ذلك الوقت قدم المسيو دي لاموريسيير عدة تقارير منها تقرير يبين فيه ما يقوله العرب في ادارة الفرنسيس وآخر في حالة قسطنطين التي كانت القلوب قد ترعت الى اخذها من احمد بك والى غير ذلك من احوال العرب وما يحدث عندهم من الحوادث الحالية وبهذه الوسائط ابتدأ في تنظيم المكاتب العربية اتفاقاً وصدفة وان دي لاموريسيير على كونه العامل الاعظم على تنظيم سلك الزواف عمد الى انشاء هذه المكاتب او المجالس العربية التي نفعت المستعمرة منفعة عظيمة وكانت اعظم مساعد

لادارتهـا : وهاك ما كتبه في هذا الصدد الى والدته :

« انهُ في شهر شباط عام ١٨٣٣ ظهر للأمور المالية الملكي في المستعمرة وجوب التفتيش والتنقيب عن املاك الحكومة السابقة في الجزائر وسائر المحلات التي في ايدينا وهي املاك شاسعة واسعـة ولكن ذلك يقتضي معرفـة شرائع الاستملاك ،واستخبار عرب الداخلية عما كانت تصنعه الحكومة القديمة بتلك الاملاك ثم العلم بوجوه اتقاء الانخداع بجيل المتولين تلك الاصقاع فاستدعاني المأمور الانف الذكر وجعلني كاتبـاً لاسرار اللجنة المخصوصة المفوض اليها تدبير هذه الأعمال ومثلها وظيفة تضطرني الى اتيان عاصمة الجزائر ولكنها لا تعوقني عن قيادة فرقتي عند النزال وبعد مضي يومين ندبت الى مأمورية اعظم من الاولى واهم واكثر تعلقاً وارتباطاً بالحيـاة الجندية وحقيقة الخبر هي :

ان الدوق دي روفيكو لما قفل راجعاً الى فرنسا ذهب معهُ كاتب اسراره ورجل آخر كانت وظيفته الكتابة والى هذين الرجلين كان مرجع ادارة قلم يدعى المكتب العربي وفيهِ كان مجرى جميع المخابرات امام الدوق مع عرب العاصمة وبوجيه والسواحل والداخلية وبمـا ان الدوق وكاتبيه كانوا يجهلون اللغة العربية اصبحوا آلة بيد التراجمة الذين استولوا كل الاستيلاء على ادارة القلم بعد سفر الدوق وكاتبيه فندبني الجنرال تريزيل والقائد العام الى رئاسة القلم العربي المذكور لاصلاح الخلل الواقع فيهِ قبلًا وترتيبه وتحسين اشغاله في مستقبل الحين وقد جُعل بامرتي اربعة تراجمـة واربعة كتبة للاسرار وجميع المأمورين الوطنيين الذين كانوا في الخدمة وفوّض اليَّ ادارة الاموال السرية البالغ قدرها في العام اكثر من ستـين الف فرنك . فلبيت في الحال واخذت في اتمـام وظيفتي وانا الان مقبل على تحسين الاعمال . وقد عرض القائد العام امر تثبيتي على الوزارة ولا اخالها تمانع فيهِ لان هذه المهمة يلزمها ضابط عارف باللغة العربية وليس احد يعرفها غـيري في هذه الديار خصوصاً واني مندوب للاستمرار فيهـا من قبل روءساءي والمأمورين الملكيين الذين يحتاجون الى خبرتي في معرفة احوال البلاد . ومع هذا فاني الان رئيس للمكتب العربي وقد أُعطيت بيتـاً بهيًا لسكناي قرب بيت القائد العام حيث انا مقيم الان . » ـ ولكن الكتبة في الوزارة قد قامت قيامتهم من اجل هذا الامر المستحدث اعني تسليم امور داخلية ومالية الى يوزباشي بسيـط فدافع القائد العام احسن مدافعة عن هذا المشروع وكتب في ١٠ نيسان الى الوزير رسالة نقتصر منها على

الفقرة الاتية :

« لم اجد بدًا في متابعة مواصلاتي على سنن الامانة مع قبائل الجزائر من ان انتقي اليوزباشي دي لاموريسيير الذي ادرك بجده وثباته معرفة اللغة العربية . وبمزاولته مراقبة اعمال التراجمة وتقويم مسلكهم امكنهُ ان ينظم ويقدم كل يوم لوائح لا غنى عنها في ادارة البلاد وافتتاحها » وقد اجمع مؤرخو فتوح الجزائر على حسن اختيار هذا الضابط اذ انهم يصفونه « بالكفاءة لمكالمة الوطنيين مباشرة بالثبات والاقدام والجد في العمل والحمية وطلب الشهرة باعمال عظيمة خطيرة . » فانشأ دي لاموريسيير يشتغل بمهامه الجديدة وفي قليل من الزمن اضحى مرجع الحكمة والخبرة لا يصنع شيء في المستعمرة خلوًا عن قوله ورايه . وقد أرسل يومئذ المارشال سولت(وهو احد قواد فرنسا الذين اشتهروا على عهد نابوليون الاول ثم خدم بعد عام ١٨٣٠ حكومة الملك لويس فيليب ومات طاعنًا في السن عام ١٨٥٢) وكان اذ ذاك وزير الحرب احد حجابه (يادرانه) البينباشي في اركان حرب الفرسان المدعو -دوتينان- الى الجزائر ليكتنه بنفسهِ امر المكاتب العربية ويكتب لهُ التقارير الشافية في اهميتها واهمية من سُلمت اليهِ ومعرفته فلما وصل البينباشي المذكور الى عاصمة الجزائر ونظر ما كان جاريًا واستطلع الاراء متقصيًا بذاته بات متحيرًا من سمو مدارك اليوزباشي دي لاموريسيير وتعجب جدًا من بعد مرامي افكاره وآرائه الصائبة في ايثار استبقاء القبائل الوطنية على ابادتهم مكتفيًا بقهرهم وتعويدهم الحضارة والمدنية واستخدامهم فيما تروم فرنسا فنظم اذ ذاك تقريرًا مطولاً دفعه الى الوزير المشار اليهِ متضمنًا فساد جميع ما كان يفكرهم فيهِ رجال السياسة بخصوص احوال الجزائر وصحة آراء اليوزباشي المذكور وما نجم عن توخي منحاه من النتائج الحسنة وان مستقبل المستعمرة كلها هو متوقف على وجود هذا الرجل وان جميع التقارير المتأخرة التي اوضح فيها «فوارول» الوالي العام حالة المستعمرة وما يجب التوسل بهِ لنجاحها كل ذلك هو ثمرة يراع دي لاموريسيير وان ليس للواليْ العام من العمل سوى توقيعها وانهائها الى الوزارة وختم تقريره بالعبارات الاتية :

« سأبين لكم بتقاريري المستقبلة جميع افكاره وسائر ما يريد صنعه وآمل انها كلها تحوز تصديقكم اذ بالاختصار هو يقودنا تباعًا وبواسطة من لنا من الجنود الان في الجزائر الى افتتاح اعظم المراكز الحربية والتجارية في سواحل الجزائر وداخليتها وتملكها) . اما حيازة البلاد والاستيلاء عليها بهذه الطريقة فمن الامور الصعبة لما سبق من المعاملات الوحشية والجنائية لبرترن والدوق دي

روفيكو ومع هذا لم يقنط دي لاموريسيير بل اخذ يخابر قبيلة « الحجوت » وهي قبيلة قوية جداً مالكة السهول المجاورة مدينة الجزائر وهي التي كان الدوق دي روفيكو قد استدعى اثنين من اشياخها الى تلك المدينة وقد امنهما على حياتهما حتى اذا جاءاه فتك بهما غدراً وعدواناً . ولما بلغ دي لاموريسيير ان رجال هذه القبيلة هم جانحون للسلم على قدم المدنة وانهم يريدون مواجهته على مسافة ٢٠ كيلومتراً من الجزائر خرج اليهم في نفر من الجند لا يجاوزون الستة غادرهم في وسط الطريق ولما وصل الى المسافة المعينة ولم يجد العرب تقدم ايضاً مسافة ١٢ كيلومتراً اخرى فوجد نحو ثمانين فارساً من القبيلة فاتوه عن بعد والتقوا في بهرة فسيحة طويلة وخابروه ملياً فاعجبوا بما رأوا من جرأته واقدامه على الانفراد بلقياهم وما فيه من ثبات الجاش والملاطفة وشرف النفس وافترقوا مسرورين جداً ميالين الى مسالمة فرنسا والاتحاد معها . وقد قال له احد شيوخ القبيلة « احسنت ايما احسان بقدومك الينا متكلاً على شرفنا خلواً عن صك عهد الامان وانك لترجع سالماً لا ينالك سوء او اذى ولسنا نفعل فعل قائدكم السابق فانه بطش بشيوخنا غرة غير مكترث لشرفه وشرف بلاده فاذهب وليكن معك سلام الله » وفي المرة الثانية فاوض دي لاموريسيير رؤساء تلك القبيلة بما حداهم على الرضى برئاسة شيخ يكون تقليده المنصب والامر من قبل القائد العام وانهم يقدمون وقت الحروب مدداً يناظر اربعمائة او خمسمائة من الفرسان . ثم لما كانت المخافر التي شيدها الفرنسيس حول الجزائر وفي سهل ميتجا ذات مواقع لا توافق السكن لفساد هوائها على حين العلل تفتك بالجنود الفرنسوية تقدم دي لاموريسيير الى تلك القبيلة في القيام بالمحافظة على تلك المخافر والمرابطات مدة فصل الصيف وألف منهم كتائب مخصوصة سماها « الصباحية » او السباهية » ولم يزل هذا الصنف من الجند حتى الان في جيش افريقية ثم استأذنت القبيلة القائد العام بناء على رغبة دي لاموريسيير في بناء جسر كان ضرورياً لوجود المواصلات بين المدينة والسهول وذلك تحت ادارة مهندس افرنسي . ثم انه تحقيقاً لرغائب العرب الخ دي لاموريسيير على القائد العام باطلاق الرهينين اللذين كان اخذهما برتزن من القليعة فاجاب مكرهاً ولكنه امسك احدهما في الاسار وخلى الاخر وكان مسناً وممن اطلق قاضي تلك المدينة فانطلق دي لاموريسيير بالطليقين في ٣١ تموز عام ١٨٣٣ ولم يستصحب غير صديقه الملازم « دي لاكوندي » والجاويش « اليكرو » ثم استصحب الى خارج مدينة الجزائر نحو ملعثين من

فرسان العرب الصباهية المجتمعين لمشاهدة هذا الحادث ودخل دي لاموريسيير في رفقته مدينة القليعه تحفه مظاهر المجد والفخر وافراح الاهلـين واحتفد الطليق في ضيافة منقذه من الاسر اذ دعاه الى بيته واكرم مثواه غاية الاكرام ومن الغـد قفل راجعاً الى مدينـة الجزائر ورأى في طريقـه الارضين الجديرة بالعمارة والاصـلاح والمراكز الحربية ولما استبطأه القائد العام خرج للقائه فلقيهُ وهو محاط بفرسان العرب ينادونه باسمهُ ويطلقون النار اكراماً لهُ وفرحاً بهِ . ثم جعل يقنع القـائد العام بابقاء السلطة في القبـائل ورعاية حرمات شيوخهم وايجاب العهدة عليهم بما يحدث في البلاد التي هم بها مخيمون . ثم لم يمر غير كثير من الزمن حتى حدث ان رجلين من متطوعي الفرنسيس قد قتـلا في ضواحي مدينة الجزائر فذهب دي لاموريسيـير والقى القبض على عشرة من العرب متهدداً اياهم بالقتل ان خفي القاتل الحقيقي وفي اليوم التالي احضروه بين يديه فحقق الحادث للقائد العام صحة مبادئ دي لاموريسيير فصار كلما سلم الى احدى القبائل مخافراً او اراضي جعلها مسؤولة مطالبة بكل ما يحدث عندها

ولما استتب الامن في ضواحي المدينة اخذ يهتم دي لا موريسيير بامر الزراعة وغرس الاشجار واستغلال هاتيك الحقول فبين بواسطة ما تصنعه القبائل ان ارضاً مساحتها بضع مئات من الامتار المربعة تؤجرها الحكومة على مدة عشر سنوات بمبلغ خمسمائة فرنك ويلزم مستأجرها ان ينفق على غرس الزيتون فيهـا مبلغ ثلاثة الاف وخمسمائة فرنك فتساوي غلتها في العام زهاء خمسة الاف فرنك . وامتحن هذا الامر فعلاً في حديقة حسين داي المخصصـة لكتيبته . ثم اخذ يقدم تقارير مطولة في زراعة القطن ومتابعة الفتوح وتحسـين حالة المستعمرة وفي خلال ثلاثة او اربعـة من الاشهر اصلح جميع اعمال المكتب ورتبها وصارت اشغال المستعمرة برمتها تقريباً متعلقة بهِ وكان وزير الحرب يخابره راساً في المسائل المهمة وينشطه ويحضه على العمل ولم تكن كثرة مشاغله لتعوقه عن الاعمال الحربية وتتبع الحملات والغزوات المجراة على العرب العصاة . وكان الجـنرال تريزل يشهد لهُ بفضل الخـبرة ويعترف بصدق انبائه وحسن درايتها وباتيانه جسام الامور

فلهذا ولما عرف من مزيته في معرفة الاحوال ارسلهُ القائد العام بناءً على مساعدة الجنرال تريزل وبعض مشائخ العرب وثلاثة ضباط فرنسويين الى مدينة بوجيه وهي مدينة واقعة على البحر المتوسط وهي ميناء مدينة قسطنطين على مسـافة ١٨٠ كيلومتراً منها وموقعها في منتصف الطريق تقريباً

بين مدينة الجزائر ومدينـــة « بونه »(الميناء الثاني لمدينة قسطنطين) قصد حيازتها وضمها الى املاك فرنسا فتصبح متسلطة مستولية على المدن الساحلية اذ انها كانت متولية في غربي الجزائر بلدة وهران وفي شرقيها بلدة بونه وايضاً فقد كان من غرضها فتح مدينة قسطنطـين وهي اعظم حاضرة في الداخلية

فتوجه اليها دي لاموريسيير في رفقة عددهم عشرة رجال خامس عشر حزيران سنة ١٨٣٣ على احدى البواخر الصغيرة المدعوة « لزبر » فوصلها في ١٦ منهُ وولجهـا ورفقاؤه تضم صحبتهم الشيخ « بورستّه »(لانهُ واهل المدينة كانوا طالبين الدخول في حوزة حكومة فرنسا هرباً من ظلم القبايل) ومكث بها ثلاثة ايام بعد ان طرد كثيرين من عامة القبايل الذين قصدوا الايقاع بهِ ولما عاد الى الجزائر رفع الى القائد العام ثلاثة تقارير مطوَّلة الاول في بيان ما جرى لهُ في سفرهِ والثاني في وصف مدينة بوجيه ومنه يعلم ان فيها ٢٥٠٠ نفس من اليهود والمغاربة والاتراك وكلهم من اصحاب التجارة احلاف الهدوء والسكينة ومعظم همهم التملص من غلطة القبائل وربقة التعبد لهم . وان موقعها في آخر جون يستقبـل الشرق وهي منيعة من جهة البحر بعدة صخور شديدة المناعة يبلغ علوها ٤٠٠ متر وفوقهـا مزار المرابط في « غورايا » والمدينة آخذة بالانحدار من جهـة الجبل شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الى رمال الشاطئ بطرفين تحميهما قلعة « القصبه » وبرج سيدي عبد القادر . ولها من جهة الشمال برج آخر يدعى برج موسى يدفع عنها عدوات القبائل ويحدق بها سور منيع من جهاتها الاربع بيد ان حاكم الجزائر القديم كان قد دكَّ منه نحو ٢٠٠ متر مخافة ان يعصيه واليها وينبذ طاعته . ولا بد للفرنسيس اذا قدموها ان يستصحبوا الف وتد من خشب وحديد وخمسمائة رفش وخمسمائة معول واربعة الاف كيس للتراب وادوات للفعلة وذلك قصد الاسراع في سد هذه الثغرة من السور وان يكون معهم قطع حديد (ازاميل) لمعالجة اقفال ابواب الصروح والابراج الموصدة ونحوها مما يراد اصلاحه ويلزمهم استصحاب مركبين من الدقيق وفرنين من حديد . ومما يلزمهم بادئ بدء سوق الف جندي واخراجهم الى البر قبـل ان تدري بهم القبائل منقسمين الى ثلاثة اقسام كل منها مكلف بفتح برج من الابراج الثلاثة ويجب جعـل البوارج راسية بحيث تمنع اجتياز القبائل . وبالجملة فان هذا التقرير قد حوى بيان كل ما ينبغي اجراؤه من الحركات والتدابير الحربية الدقيقة حتى انهُ لم يبقَ على الجنرال تريزل الا التوقيع في

ذيله والعمل بمقتضاه نصاً

واما التقرير الثالث فهو في تاريخ اصل تلك القبائل وعاداتهم والذي ظهر له من ذلك انهم امة ذات قوة وبأس وكانت في بدء امرها تدين بالدين المسيحي استدلالاً بعلامة الصليب في ايدي رجالها . وفي التقرير المذكور صفة اطوارهم وبسالتهم وسمو مداركهم وحروبهم وان منهم حول مدينة بوجيه على بعد يزيد على ستمائة كيلومتر منها جماعات تربو على ستة عشر الف مقاتل عداً

فسلم القائد العام بالاقدام على تلك الحملة وعهد بقيادة بعثها الى رئيس اركان حربه وهو الجنرال تريزل وعززه باليوزباشي دي لاموريسيير ولما كان قد انهى الى الدولة جميع تقارير هذا الضابط آمر وزير الحرب بعد لستئذان الملك بمنحه وسام جوقة الشرف من طبقة شفاليه . فوردت البراءة الى مدينة الجزائر مؤرخة في ٦ ايلول سنة ١٨٣٣ وكان كبار قادة الجند من قبل ورودها قد اكثروا من طلب هذا الوسام لليوزباشي المومأ اليه وفي مقدمتهم دي بورمون وكلوزل وبرتزن . وكان مسير جنود حملة بوجيه من الجزائر في الـ ٢٣ من ايلول تلك السنة وعاجوا بطولون استصحاباً لكتيبتين تظاهرهم فبلغوا بلدة بوجيه في الـ ٢٩ منه وخرجوا الى البر يوم وصولهم فزحف دي لاموريسيير بقسم منهم على برج القصبة . فاستولى عليه ثم استولى على برج موسى و بالجملة فقد تم استيلاء الفرنسيس على المدينة المار ذكرها وحصنوها حذراً من القبائل في عشرة ايام لاغير ورفع الجنرال تريزل الى القائد العام تقريراً بين فيه ما جرى في الحملة وشكر جداً نشاط دي لاموريسيير وسأل له حسن المكافأة باعلاء رتبته قال :

« انه اتى من الخدمات اجلها وفى وسعه القيام بكل ما يندب اليه من مهمات الامور الجسام وانه ولا شك جدير برتبة بيكباشي قال ولذا فاني اكرر التماسي بترقيته اليها » وقد كتب هو نفسه الى امه ما يؤيد هذا الكلام . واما القائد العام فوارول فانه ارسل تقرير تريزل الى الوزارة وشفعه بما يأتي : « ان اليوزباشي دي لاموريسيير لقد ابدى من عظم الجرأة والاقدام ما يؤهله الى نيل رتبة بيكباشي فآمل ان يكون كذلك على طابور الزواف بدلاً من البيكباشي « كولب » الذي بات لا يصلح للقيام بوظيفته لكبر سنه » فأمر وزير الحرب باجابة سؤل القائد العام ورقي دي لاموريسيير الى رتبة بيكباشي وولي قيادة طابور الزواف وذلك في تشرين الثاني سنة ١٨٣٣ . ومما يذكر ما كتبه لسان الحكومة وهو المونيتور العمومي بتاريخ ٢ ايلول من تلك السنة

قال : « قد قلّت الاخبار عمّا يجريه القائد العام فورال في افريقية ولكن يظهر ان لليوزباشي لاموريسيير نفوذاً عظيماً في اعمال المستعمرة » وكثر تحدث الجمهور بامتداح لاموريسيير لما حصل له من نفاذ الرأي واتباع القول فبلغ ذلك من القائد العام وداخله منهُ بعض الامتعاض فطفق يتغير عليهِ ولما رجع الى مدينة الجزائر لم يعهد اليهِ بادارة المكتب العربي واعرض عنهُ اهمالاً لشأنهِ فخمل ذكره ولبث خاملاً حتى افضت اليهِ نوبة قيادة جيش وهران فكتب (اي القائد العام) الى الوزارة انهُ لا يستطيع اخذ بونه وبليده والقليعه وبوجيه وتملكها وانما يقتصر على تدويخ بونه وبوجيه فاجابه الوزير بما مفاده بالحرف : « ان تمم ما جاء في تقارير دي لاموريسيير »

الفصل الرابع

عبد القادر — موقعة «لكتا»

لما رأى مبغضو دي لاموريسيير سرعة تقدمه انتهزوا الفرصة لاسخاط القائد العام عليهِ فسلبوه رئاسة المكتب العربي وجلبوا على المستعمرة عدة ارتباكات لان اشغالها مع العرب كانت قد ازدادت كثيراً لاسيما وقد ظهر اذ ذاك من قام بالذب عن استقلال الجزائر وحريتها وهو البطل المقدام الشهير الامير عبد القادر فعاود تلك البلاد ما كان زايلها من الشغب والقلق والجور على عهد دي روفيكو فعظم اغتمام دي لاموريسيير من هذه الحالة حتى مني بمرض لشدة غمه وثارت قبيلة الحجوت بعد ان كانت دانت وخضعت كما قلنا وذلك لاحتقار كفرة الفرنسيس ديانتهم وانتهاك شعائرها وازدراد عاداتها فانشأت تهاجم الجزائر وتقطع الطرق العمومية وكان يومئذٍ الجنرال دي ميشال والي وهران فاخذ يرتكب افظع الاغلاط الادارية ويزيد في سلطة من كان عدواً لفرنسا وهو الامير عبد القادر . ثم شفي دي لاموريسيير من علتهِ في الـ ٣١ من كانون الاول سنة ١٨٣٣ فتحامل على نفسهِ ولم يلتمس رخصة لراحتهِ في فرنسا بل عاد الى طابوره في « دلي ابرهيم » الى زوافهِ الاعزاء الذين كانوا مظلومين ومضطهدين مع وفرة خدماتهم المرضية وما خلا ذلك فان المسلمين منهم ما كانت شهادتهم لتقبل في محكمة الجزائر الشرعية كما لو كانوا من اليهود — وكان عددهم عشر فرق (بلوكات) فاستدعى دي لاموريسيير حضور الفرق الاربع منهم التي في بوجيه لخنق منهُ

البيكباشي دوفيفيه (الذي كان رئيسه قبلاً) واتهمهُ بطلب اثرة الفخر الذاتيـة وحب التسلط ولم يخرج دي لاموريسيير في كلامهِ معه عن حد الادب واللطف والموادعة. ومع كل هذه العراقيل والمصاعب كان رجال الزواف يزدادون دربةً وشجاعةً لما كانوا يرون في رئيسهم من المحبة لهم والمشاركة في اتعابهم . ومما يذكر في هذا الصدد ان والدته ظنت ان صيرورتهُ بيكباشياً يمهد لهُ سبيـل العيش المقرون ببعض الراحة فارادت ان ترسل لهُ سرادقاً (صيواناً) فأبى وقال : « اني تعودت النوم تحت الـقبة الزرقاء ـ يريد السماء ـ واني لا ارقد في خيمة او مضرب ما دام جنودي مضطجعين براً » وفي الحال انشأ في طابوره مدرسة عربية علّم فيها لغة العرب جميع الضبّاط والانفار من الفرنسيس وكان لا يفتر عن الاشتراك في جميع الحركات الحربية وفي ال ٢٨ من كانون الثاني سنة ١٨٣٤ هجم في ثلثمائة من الزواف على اللصوص وقهرهم وعاد بغير نهب ولا سلب. وفي ليل ١٧ ايار من السنة نفسهـا أُرسل اربعة طوابير وفي عدادهم طابوره على قبيلة الحجوت فقهروها وفتكوا بها والجأوها الى التسليم وطلب الصلح فعقـدت المعاهدة في اول تموز وسط سهولهم المحروقة وقد اشتهر الزواف في تلك المعارك. وقد جاء في تقارير القوّاد الرسمية : « ان الضـابط فلان هو زواف حقيقي اي كثير الشجاعة . وان دي لاموريسيير ذهب في مائتي جندي من المشاة ومائة وعشرين فارساً لمعاقبة قبيلة تبعد عن مدينة الجزائر مسافة ٦٤ كيلومتراً وانهُ يستطيع ان يدوخ الجبال بالفي رجل من امثال هؤلاء» ثم يظهر من رسائل لاموريسيير الى والدته ما كان يرتكبهُ القـائد العام فوارول من الاغلاط والزلات لتركهِ العمل بآراء الجنرال تريزل واعراضه عن السياسة الحسنة التي كان ينتهجها من قبل وخلّى العرب الذين كانوا في حماية فرنسا يفعلون وهواهم غير مبالٍ بما صارت اليهِ فرنسا يومئذٍ من الغضاضة والوضع من قدرها بين هاتيك القبائل وما كان يرجو خالهُ النـائب في ندوة الامة ان يقولهُ في المجلس انتقـاداً لهذا السـلوك . وفي شهر آب عام ١٨٣٤ صدر أمر الملك لويس فيليب بفصل القائد العام فوارول عن حكومة الجزائر وتعيين الجنرال درويه درلون مكانه (وهو احد القواد الذين اشتهروا على عهد نابوليون الاول في حروب اسبانيا وفي وقائع حرب مائة يوم خصوصاً في واترلو وكان لهُ لقب كونت فأمل دي لاموريسيـير بعض التأميل في تبدّل الاحوال وكتب الى امهِ في ذلك وانهُ ينتظر قدوم القـائد العام لا لمجاريه على خواطره ومباديه بل ليوامره في الشؤون اذا ندبه هو للائتمار ويهتم لمهمة قيادته اتباعاً وما زال الى ان قال لامه « ويحتمل

ان اكون واهماً في قولي ورأيي بيد اني انا هنا في موقف خطير ليس لهُ نظير من جهة مقامي بين العرب اذ ان زعماءهم ومشايخهم يختصوني بالاكرام والاحترام لاني لم اخنهم ولم اخدعهم قط وكثيراً ما يزورونني في معسكري ويخبروني عما يحدث عندهم وانا ازورهم في خيامهم وفي وسط قبائلهم فيتلقوني بغاية الحفاوة والتكريم وكل ذلك متشاهر معلوم في المدينة » ولكن امانيه وآماله في القائد العام الجديد لم تتحقق ولهذا كتب الى والدته بعد لقياه ما معناه « وددت لو انهُ في الاربعين من سنيه ولم يكن قد بلغ اليوم السنة السبعين » فيمكنهُ ان يحسن الخدمة في فرنسا لوفرة خبرته ومعرفته احوال رجالها وسياستها ولكنهُ هنا لا يمكنهُ اتمام ذلك اذ انهُ في بلاد وشعب ينبغي ان يكونا على طرز جديد والامر المروم يستلزم سمو المدارك او المثابرة على العمل فهو الآن غير قادر على مباشرة المهام وقد مضت ايام دقة الافهام وتوقد الاذهان لان نابوليون الاول كان استخدم رجاله واستلب منهم ما يصل اليهِ امكانهم اعمالاً فلم يبقَ عندهم ما يوبه بهِ فرقدوا ايام البوربون ثم ايقظتهم اصوات مدافع ثورة تموز وسرَّتهم رؤيا العلم المثلث الالوان فاصبحوا وكأنهم في دنيا جديدة لنفاد تلك القوة التي كانت تثيرهم وتدفعهم كآلات بلا محرك على غير طائل » وقد ابان في هذه الرسالة حسن مقاصد القائد المشار اليهِ ووصفه بعدم الخبرة وقلة الاتكال على الجنرال تريزل مسلماً نفسه وزمام الحكومة الى قوم قدماء لا معرفة لهم ولا دربة بالامور وانما هم نهمون طمعاً في كسب الاموال فاستصفوا موارد دخل الحكومة » وفي ذاك الوقت عينه بدا للقائد العام الجديد فعهد بقيادة الاي الزواف الى القائمقام دي ماراي وهو الذي قال فيهِ دي لاموريسيير انهُ ضابط كثير الشجاعة ولكنهُ قليل العقل سهل الانخداع والانقياد للجزائريين المشهورين بالمكر والخبث والخديعة وجعل اي هذا الرئيس الجديد بان تشكى للقائد العام بان لاموريسيير يُثير عليهِ خواطر جنود طابوره فلم يحفل دي لاموريسيير بهذه الشكوى ولكنهُ اضرب عن التداخل وعن المجيء الى مدينة الجزائر

وفي ٤ كانون الثاني عام ١٨٣٥ خرج ثلاثة الاف جندي بامرة القائد راباتل وفي جملتهم دي لاموريسيير لمحاربة الحجوت الذين عادوا الى غاراتهم على المدينة فاخذوا طريق الدويرة وبفارك واجتازوا نهر الشيفا وتقدموا في السهل حتى محلة ابو ورمي في آخر سهل متيجا وكان دي ماراي متولياً قيادة طليعة بعث الحملة فأبدل بدي لاموريسيير لانهُ كاد ان يخذل طليعة جيشه وابلى لاموريسيير في الحرب بلاءً حسناً حتى ان الجنرال راباتل طلب مكافأته وقال فيهِ « انا بهِ وبزوافه نستطيع

ان نتجه الى حيث نشاء ونريد» ثم بعد هذه الواقعة عاد الى زيارة القائد العام فأنبهُ جهرة على ما كان من افكاره وآرائه فاشتد الجدال بينهما بحضور الجنرال راباتل وتريزل وبرو واطال دي لاموريسيير في بيان صحة آرائهِ من جهة الاتفاق مع قبائل العرب وتنظيمهم واستعمار البلاد مما جعل القائد العام ان يقطع الكلام اذ رأى نفسه مغلوباً بالحجة وهي « اذا لم تنجح مساعيَّ ومشروعاتي فسآتي غيرها» ثم ما لبث لاموريسيير ان انشأ معسكرًا حصيناً يضم زهاء الف مقاتل على مقربة من مهلما او مورد الماء عند بناية رومانية قديمة على مسافة اربعة كيلومترات من البحر وذلك للمحافظة على السهل والمدينة والمواصلات بينها وبين بفاريك

ثم يظهر من رسائله ما كان يهتم بهِ من امر الاستعمار ورأيه في اخذ بليده والقليعة والمكث فيهما لان بقاء الجيش فيهما يمكنهُ حينئذٍ من مساعدة من يأتي من العرب لحماية فرنسا ووقايتهم من العدو والتقدم في تلك البلاد. وقد لامتهُ أمهُ وقرَّعتهُ على فرط تشبثهِ بآرائهِ واظهارها للجميع بلا احتراز من قوة اعدائهِ. وشرع بعدئذٍ يتبين قوة سكان الجزائر واهميتهم وكان يخاف كثيرًا اثنتين من القبائل وهما اللتان قلنا انهما مسيحيتان في الاصل ولكن قلَّل خوفهُ منهما حينئذٍ انهما في الجبال وفي داخلية البلاد وبالنظر الى المغاربة او العرب وهم بقايا الفاتحين ينقسمون وقتئذٍ الى قبائل شتى لا رابط بينهم بعد سقوط حكومة مدينة الجزائر سوى رابط الديانة ولكن هذا الرابط قوي جدًّا وهم شديدو التعصب حتى ان الذين خضعوا باتوا يخافون الفرنسيس في الجزائر فلا يذكرون في الصلوات العمومية سوى من اتبع طريق الهدى اما في وهران فيذكرون اسم سلطان مراكش.

واستمر يكاتب جميع اصدقائه ووالدتهُ وخاليه فيما كان يحذره من تقدم ونفوذ احد المشايخ المشايع للفرنسيس في حكومة وهران ألا وهو الامير عبد القادر فكتب في شأنهِ الى دوفيفيه وقدم تقريرًا مشبعاً فأعجب بهِ الجنرال راباتل فارسله الى الوزارة. فمن تلك التقارير يعرف اصل الامير عبد القادر ونفوذه. فانهُ لم يكن من سلالة مشهورة في الحروب قد عظم شأنها في حروب قبائل الجزائر ولكنهُ كان من اسرة مشهورة في التقى معروفة باسم مرابطين وطارت شهرة قداستها وطهرها بين الجزائريين وكان اسم ابيهِ محيي الدين قد اشتهر سنة ١٨٠٩ بالعصيان على الداي وبعد انخذال اعوانه هاجر من بلاده وحجَّ مرتين الى مكة المكرمة ومرة الى بغداد وفي سنة ١٨٢٧ الى كنا بالقرب من معسكره في ولاية وهران في وسط قبيلة بني هاشم. وازداد نفوذه بعد دخول مدينة الجزائر في ايدي الفرنسيس

واصبح رئيساً على جميع العصابات المناوئة لفرنسا في ولاية وهران ثم واطأ احد اصحابه المشايخ وجعله يقول ان الملاك ظهر لهُ في الليل وقال لهُ امضِ الى كتنا وحيي هنالك المنتصر على الفرنسيس ومخلّص العرب وكانت تلك الحادثة في نهاية عام ١٨٣٢ وتوفي محيي الدين في السنة التالية تاركاً لولده عبد القادر اثرة القداسة ونبوّة الانتصار وكان عبد القادر اذ ذاك في الـ٢٤ من سنه شجاعاً فارساً مغواراً شهيرًا بالعلوم والمطالعة والتقوى وما عدا ذلك فانهُ كان موالياً لسلطان مراكش الملك العربي الوحيد في جهة المغرب فنادى بالجهاد منذ حياة والده ثاني ايلول سنة ١٨٣٢ في سهول اغريس فلبّاه للحال ثلاث قبائل من اعظم قبائل العرب وهم بنو هاشم وبنو عامر وبنو هميان الغريبون فسار فيهم يقاتل اعداءه من الوطنيين ويوطد سلطته ولو كان احد قادة الفرنسيس المحتكين في وهران يومئذٍ لحالف اضداد عبد القادر وابطل امره قبل استفحاله لاسيما وان القائد مصطفى بن اسمعيل رئيس فرسان ولاية وهران من قبل كان يعرض جنوده على قائد فرنسا في وهران طالباً مساعدته ونصرته على عبد القادر وكذلك سكان مدينة تلمسان فانهم كانوا يطلبون مثل ذلك فرفض الجنرال دي مشال والي وهران هذه الطلبات وعقد معاهدة في ٢٤ شباط عام ١٨٣٤ مع عبد القادر وأقرّ لهُ بلقب امير العرب في الجزائر وخوّله عدة امتيازات فتحت منها استقلاليته واوجب على الفرنسيس ان يردّوا لهُ جميع العرب الذين فرّوا خارجين من نطاق حكومته وان يبيعوه بابخس الاثمان كل ما يحتاج اليهِ جيشه من الاسلحة والمدافع والذخائر وان لعبد القادر وحده حق بيع الحنطة والسلع الداخلية من الفرنسيس في ميناء ارزو بالقرب من وهران وعلى اثر عقد تلك المعاهدة عبأ عسكرًا منظماً واحسن تدريبه على القتال وجهزه بالاسلحة التي باعهُ اياها الفرنسيس فكرّ على اعدائهِ و نتصر على مصطفى بن اسمعيل في ١٢ تموز سنة ١٨٣٤ ثم خرج لمنازلة ميثي لاريبي الذي كان يحاول الاستقلال في مصبّ الشلال الاسفل فانتصر على جنوده واسره في ٢٨ ايلول وسجنهُ في مسقره فمكث هنالك حتى توفي وحينئذٍ ثار الرأي العام في فرنسا واضطرت الحكومة ان تعالن الشعب بانكار ابرام معاهدة ٢٤ شباط وعزلت القائد العام الجنرال دي مشال وابدلت منهُ في وهران القائد الكبير الجنرال تريزل وكان الامير عبد القادر بعد معاهدة ٢٤ شباط قد اتخذ من قبله الى مدينة الجزائر رجلاً يهوديًّا يُعرف عند الفرنسيس باسم دوران قد اختاره معتمدًا لهُ وممثلاً لدى دولة فرنسا فاخذ هذا يخدع الفرنسويين ويحتال عليهم . اما القائد العام فكان قد تلقى

اقتضاها مقتضاها الاهتمام بإهمال اتمام شروط المعاهدة المار ذكرها لاجحافها بحقوق فرنسا ولكن بدون ان يشب حرباً على عبد القادر فتهدده الحاكم العام بالحرب ان تداخل في مسائل ولاية مدينة الجزائر فامتنع الامير بادئ بدء ثم لما بلغه من معتمده اليهودي ضعف القائد العام نهض بجيشه البالغ عدده خمسة الاف فارس والف واربعمائة راجل واجتاز نهر الشلال وهو الحدّ الفاصل بين ولاية وهران وولاية الجزائر فوصل في ١٠ نيسان سنة ١٨٣٥ الى مدينة ملياناه حيث نصب عليها والياً من قبله ومنها زحف في ٢٢ نيسان على مدية وافتتحها عنوة بعد ان قهر رجال الشريف عدوّه وأقرّ عليها حاكماً دعاه خليفته وكان اسمه البركاني وهو الذي كان متولياً على مدينة شرشل . فاضطربت جميع قبائل العرب وبعثت اليه بالتهاني على انتصاره طالبة الخضوع لسلطته والدخول في طاعته وفي جملتهم قبيلة الحجوت فعيّن لها قائداً من قبله وهكذا استطاع عبد القادر الاستيلاء على قسم عظيم من ولاية الجزائر فتملكها ومن ثم جعل يهدد ولاية قسطنطين

اما قاعدة هذه الولاية الاخيرة فانها كانت خاضعة لسلطة الحاج احمد بك وهو رجل تركي لغةً عربية جزائريّة وكان قد استقل منذ وقوع الجزائر في حوزة الفرنسيس ولكن شدة بغضه للجنس العربي حبب اليه التقرب من الفاتحين ليتخلص من سلطة العرب فلم يلتفت الفرنسيس الى نزعته وضلاله بل عادوا بعدئذٍ عدواً له وفي ذاك الوقت نفسه خلّوا الامير عبد القادر ينتصر على مصطفى بن اسمعيل ثانيةً ويحصره في مدينة تلمسان . ولما تحقق الامير ضعف الحاكم العام عرض عليه معاهدة جديدة من شروطها امتناع الفرنسيس عن افتتاح جديد في بلاد الجزائر وانهُ يضمن لهم في مقابلة ذلك انباءهم باسماء من يجعلهم هو روساء على القبائل وعمَّا ينوي عمله واجراءه في ولاية قسطنطين ثم عاد منتصراً ظافراً ودخل عاصمتهُ مستقره على غاية الابهة ومعهُ اليوزباشي سان هيبوليت معتمد القائد العام فاراه اساليب معداته الحربية وجيوشه المدرَّبة ثم اخذ يضطهد قبيلتي الدوير والسمالة لانهما كانتا يداً واحدة فشكا الجنرال تريزل حاكم وهران هذا الامر الى القائد العام فجاء بنفسهِ الى وهران وخابر الامير ولما اخفق سعياً عاد للجزائر وأمر الجنرال تريزل بالتنحي عن القتال الى ان ترد اوامر الوزارة

وبعد يومين من ذهابهِ ألقى الامير القبض على روٴساء القبيلتين وكبَّلهم بالحديد وأمر الرجال بمناهضة حلفائهم والقبائل الى ارباض مستقره واتصل ذلك بالجنرال تريزل فاغتاظ جدًّا وارسل فرسانه

فخلّص الاسرى وخرج بجنوده من وهران وكتب الى القائد العام يقول لهُ « لقد ضقت ذرعاً ونفد صبري فاما ان تجيز ما فعلت وتصدق عليهِ واما ان اعتزل الاعمال » فما كان منهُ الا ان انفذ الرجل اليهودي الى الامير ودي لاموريسيير الى وهران تسكيناً لثائرة الخواطر وما كانت هذه المخابرات لتجدي نفعاً فانطلق الجنرال تريزل بالفين وخمسمائة مقاتل الى جهة مسقره فلقي الامير وعساكره الجرّارة فاقتتلا في ٢٦ حزيران تلك السنة وغُلب الامير فجعل يراسله في الصلح متباطئاً مدة يومين حتى اتتهُ جماعات كثيرة من الفرسان وتعدَّد جيشه على ١٣ الف مقاتل فانتصر على الجنرال تريزل بقرب نهر مكتا انتصاراً عظيماً وقُتل من الفرنسويين ما ينيف على ٨٠٠ جندي واحد ضباطهم وغنمت مدافعهم ومؤنهم واسلحتهم وارتدّوا على الاعقاب ناكصين حتى مدينة ارزو حيث وجدوا البيكباشي دي لاموريسيير واخذوا يطلبون الرجوع بحرًا الى الجزائر خوفاً من العدو فمانع الجنرال تريزل في استجابة طلبهم وذهب دي لاموريسيير الى وهران يهيج القبائل المسالمة لفرنسا مبيناً لهم انهم هم السبب في ما نزل بالفرنسيس من الهزيمة والفشل فثار ثائرهم وتألبوا ونفر معهُ منهم ٣٠٠ فارس فقادهم برًّا من وهران الى ارزو ومعهُ اليوزباشيان كافنياك ومونتوبان فقطعوا تلك المسافة وهي ٥٢ كيلومترًا في برهة خمس ساعات ووصلوا الى ارزو حيث كان الجيش المغلوب قد استتاب بعض الجأش والروع وفي اليوم نفسه عاد الى وهران بطريق البر فبلغها قبل نصف الليل بساعتين. ومنها رفع الجنرال تريزل تقريرًا الى الحاكم العام يخبره عمّا جرى لهُ ويسألهُ المدد اخذاً بالثار المنيم وبعث بهِ البيكباشي دي لاموريسيير الى الجزائر بحرًا فاخبر عن بسالة الجنرال المغلوب وعن خداع الامير اما هذا فكتب الى الحاكم العام يعتذر لهُ ويقول ان الباعث على ما كان هو اعتداء حاكم وهران عليهِ وانهُ لم يزل حليفاً لفرنسا. وفي الوقت نفسه نادى بالجهاد واتخذ معسكرًا منيعاً بالقرب من ملياناه واستجاش الحجوت على العصيان فابى القائد العام ما سألهُ الجنرال تريزل بل أمر بعزلهِ واشخاصه الى فرنسا وادال منهُ الجنرال « دارلانج » بيدَ انهُ جزم بعدم مغادرة القبيلتين المحالفتين لفرنسا

وفي اليوم الثامن من تموز سنة ١٨٣٥ صدرت الاوامر بعزل الحاكم العام لادبار احوال المستعمرة في مدته وسقوط شأنها واستخلف على ادارتها المارشال كلوزل وهو الذي كان والي الجزائر بعد المارشال دي بورمون كما مرّ الخبر آنفاً وكان وقتئذٍ جنرالاً لا غير فلما بلغ ذلك البيكباشي

دي لامور يسيير استبشر كثيراً بهذا التبديل واضرب عن الاستئذان في القفول الى فرنسا

الفصل الخامس

ولاية الماريشال كلوزل من سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٨٣٦

يذكر القرّاء ان هذا الوالي كان قد وسد اليهِ لاول مرة قيادة جيش الجزائر ثم استبدل بالجنرال برتزن وفي مدّة الاربع السنوات التي قضاها في فرنسا رقّاه الملك لويس فيليب الى رتبة ماريشال وفي ٨ تموز سنة ١٨٣٥ ارسله الى الجزائر طلباً لثار الجيش الموتور المقهور في واقعة « مكتا » وتداركاً لما توانى فيهِ سلفاؤه الاغمار وكانت آراؤه قد صلحت وصارت أسدّ منها ايام ولايته الاولى فاقلع عن الاجتزاء بتدويخ بعض مدن بحريّة عدولاً عن رأيهِ بالامس الى العزم على تدويخ الجزائر باسرها ولكنهُ كان يحدس ان ذلك يكون عقبى وقعتي حرب في ولاية وهران وقسطنطين يعني الانتصار على الامير عبد القادر في الاولى واخذ عاصمته مسقره وفتح قسطنطين في الثانية فبدأ بسوق تجريدة صغيرة عند مضيق موزايا رابع تشرين الاول سنة ١٨٣٥ حيث اشتهر البيكباشي دي لاموريسيير بخوض حادثة خطيرة اثبتت صحة عزيمته ووفرة اقدامه واليك ما كتب الى امه في هذا الصدد .

« لا شك انك عالمة بخبر ابن الجنرال برو اذ خذلته فرقته وقُتل جوادهُ ووقع هو جريحاً وراء الصبَّار (الصبّير) حيث كان يدافع عن نفسه مستبسلاً في ترل ثلاثة من فرسان العرب وحين ابصرت رجاله راجعين خلواً عنهُ سألتهم عنهُ فاخبروني بما جرى واشاروا نحوي الى مطرحهِ فحاولت ارجاعهم معي لانقاذه فلم يعودوا وبينما انا في الحديث كنت قد مررت وراء الصبَّار فشاهدت ابن الجنرال يدافع عن حياتهِ فهجمت عليهم وتبعني اليوزباشيان بونوران وكران فوصلت قبلهما ورفعت الشاب الى ظهر جوادي بعد ان منعت عنهُ ضربات العدوّ وضربت جوادي لينثني بنا فلحقني الفرسان وضايقوني فتركتهُ يسقط على الارض وعدت اليهم ووافق ذلك وصول اليوزباشيين المذكورين فقتلنا الفرسان ورجعنا بابن الجنرال سالماً فسرّ ابوه جداً وشكر لنا هو

ووالدته على عملنا وخوفاً من سوء القصد الى القائد العام ان يذكر في قراره العلني ان رجالي ابن الجنرال تركوه وحده بين الاعداء »

وبعد رجوع التجريدة سرّ القائد العام بسلوك دي لاموريسيير ورفع تقريراً الى الوزارة يخبر به عن نشاطه وطلب قسمة الزواف كما كانوا من قبل الى طابورين واقامة قائد عليهم بوظيفة قائمقام البيكباشي دي لاموريسيير فطاب كل الجيش انفساً بهذا الصنيع ولكن من في الوزارة تلوّموا في هذا الطلب . ثم كان بعد ذلك ان القائد العام دعا الزواف ان يأتوا وهران ليكونوا طليعة الجيش الزاحف على مسقره عاصمة الامير وكان قد جمع لهذه الزحفة اكثر من ١٢ الف فرنسوي يقودهم اشهر الضباط . وفيهم الامير الاي كومب الذي كتب عليه ان يموت بعد مضي سنة في عنفوان شبابه واليوزباشي كافنياك في سلك الهندسة واليوزباشي اركان حرب دي مرتمبري الذين امتلأت صفحات التاريخ بذكرهم ومعهم من كان اكبرهم سناً بعدة اعوام لكنه كان وقتئذٍ دونهم في الرتبة وهو الملازم شانكارنيه الذي قضى اعواماً طويلة في الوظائف الحقيرة ثم تقدم بسرعة غريبة حتى انهُ بعد ثلاث او اربع من السنين من ذاك الوقت صار جنرالاً وبين هؤلاء الضباط كان اكبر انجال الملك وولي عهد المملكة الدوق دي اورليان وكان شاباً جميل المنظر حسن الاخلاق مهذباً شجاعاً وفيه آمال العائلة والمملكة وقد كان وصوله الى جيش افريقية نقطة مهمة في تاريخ حيوة دي لاموريسيير فانهُ لما ابصره مال اليه وتعلق البرنس بشخصه وقد كتب دي لاموريسيير الى امه ما يلي :

« ان سمو الامير وصل الى هنا وهو ذو هيئة عسكرية وانتباه وذكاء ودربة ودراية يفضل اكثر ضباطنا الكبار علماً وعملاً وقد ظهر لي من مكالمتهِ انهُ صاحب مبادئ قوية والجميع هنا فرحون بمرآه ومجراه »

وقد احبّ البرنس ضابطنا المذكور وصار لهُ عضداً قوياً في باريس حين رجوعه اليها ينصره على جميع مناوئيه وعلى الوزارة نفسها . ولكن هذه الموالاة ما كانت لتغير مبادئ دي لاموريسيير وتحوله ميلاً الى حكومة والد صديقه وانما استمرّ متشبثاً في نزعته

اما ولاية وهران التي اتاها القائد العام والامير وسائر الجيش فان حاضرتها بلدة اسكلتها بحرية في وسط سهل صغير ومن وراء هذا السهل جبال تفصل الحاضرة عن مدن الداخلية حيث

يوجد مدينتان كبيرتان كمية ومليانه في ولاية الجزائر وهما تلمسان غربًا ومسقره شرقًا اما تلمسان فكانت معادية للامير وفيها كان مصطفى بن اسمعيل متحصنًا لدفاع محلته واما مسقره فكانت عاصمته وهي في وسط ارض كثيرة التلال ما بين نهر « المينا » الذي يصب عند مدينة « مستغانم » في الشلال وبين نهر وادي الحمَّام الذي يصبُّ في غياض « تقفنا » عند مدينة ارزو وان تلمسان موقعها رأس الاراضي التي تصب مياهها في « تفنا » وهو جدول اي نهر صغير يجري ماؤه الى البحر المتوسط على مسافة ٨٠ كيلومترًا من وهران

ولما رأى القائد العام تعذر ذهابه من مسقره الى تلمسان اختار قسمة التجريدة بمعنى ان يأخذ اولاً مسقره ثم بعد رجوعه الى وهران يذهب لمساعدة تلمسان وهكذا كان . فخرج الجيش من وهران في ٢٩ تشرين الثاني ونام على جوانب التليلات وهو جدول يصبّ في بحيرة مالحة كبيرة تدعى سبكة وفي ٣٠ منهُ صادف رجال العدو فاستمر يطاردهم وفي اول كانون الاول هجم الزواف على العدى فقهروهم وفي ذلك اليوم تعرف اليوزباشي دي مرقبري بالبيكباشي دي لاموريسيير فأثرت روعة مرآه فيه جدًا وكتب يصفهُ بما تعريبه : « وكان قائد الزواف ممتطيًا جوادًا مطهمًا وعلى رأسهِ طربوشًا احمر وفي يده سيف وكان كثير الحركة سريع الاقدام مملوءًا حكمة في تدريب جنوده ولا شك ان المجد يكلل هامته ويزيد منظره بهاءً » . ومذ ذاك الحين كلف بحبه وصار يحتذي مثاله في كل اعمالهِ

اما العرب بعد تلك الواقعة فباتوا يهابون الزواف حتى اذا ابصروا عمائمهم الخضر اركنوا الى الفرار . ودخل الفرنسيس مدينة مسقره بغير قتال لان سكانها قد اخلوها وقد احرقوا بيوت اليهود لامتناعهم عن الهرب معهم فهدمها الفرنسيس على نظر من الامير الذي لبث يستشرف حركاتهم من اعلى التلال المجاورة وبعد قليل من الايام اخلاها الجيش راجعًا الى مستغانم فتبعهُ الامير وضايقهُ جدًا حتى انهُ في ١٢ كانون الاول كاد ان يستأسر البرنس دي اورليان لولا شجاعة الزواف وبيكباشيهم وبعد ان أُصيب الجيش بفقد كثير منهُ وصل الى مستغانم ومنها الى وهران حيث دخل قسم كبير منهُ الى المستشفيات وسافر البرنس الى فرنسا وراجع القائد العام الوزارة ملحًّا عليها ان تجيب سؤله في شان الزواف فاصدرت اوامرها بزيادة عددهم وجعلهم طابورين وان يكون دي لاموريسيير رئيسًا عليهما برتبة قائمقام وذلك في شهر كانون الاول عام ١٨٣٥

وما اخذ الجيش قسطه من الراحة حتى امر القائد العام بالمسير الى تلمسان لمظاهرة اعداء عبد القادر فخرج الجيش وعدده سبعة آلاف من وهران ثامن كانون الثاني عام ١٨٣٦ وبلغ تلمسان بلا مشقة وبعد ان مكث القائد العام بها قليلاً من الزمن برحها مغادراً فيها ستمائة مقاتل برئاسة اليوزباشي كافنياك ورجع الى مصبّ نهر تفنه وهو من تلمسان عن نحو اربعين كيلومتراً وذلك بين مطاردة العدو وصدماته . اما كافنياك فسيرد ذكره في مواضع كثيرة من هذا التاريخ وكان منذ ذاك الحين قد نشم في الشهرة التي بلغ غايتها ورقي ذروة المجد وشرف النفس والشهامة وعلو المقاصد واما الزواف فبعد عودتهم الى وهران سافروا مع قائمقامهم بحرًا الى الجزائر ومنها ساروا بامرة القائد العام « على ما في رقيم من دي لاموريسيير لوالدته مؤرخ في ١١ نيسان سنة ١٨٣٦ » من الجزائر الى جبال موزايا ليفتحوا طريقاً تسلكها الدواب وتجتازها المدافع وبعد ان ردّوا هجمات العرب في قتال دام خمسة ايام بين ٣٠ اذار الى ٣ نيسان اكملوا الطريق في ٤ نيسان ممتدة الى مدينة مدية حيث سلّموا ادارتها الى قيّم من قبلهم وفي ٧ نيسان عادوا الى الجزائر . ولكن بينما الحال تقتضي زيادة الجيش للاستيلاء على قسطنطين وولايتها وسائر ولايتي الجزائر ووهران تشاغل نواب فرنسا في بحث تقليل عدد الجند حتى ان القائد العام اضطرّ الى مفارقة الجزائر قافلاً الى باريس مكاشفة الحكومة باحوال حكومته هناك . فاستاء دي لاموريسيير من ذلك وكتب الى والدته في ٢٦ اذار سنة ١٨٣٦ يقول ما تعريبهُ :

« لقد وقع ما كنت اشفق منهُ واحدس فيهِ برمته — ان ادارة الماريشال كانت قد ظهرت ثمارها الحسنة ولكن كل هذه النتائج ستذهب سدًى — ها ان ندوة النواب تطلب تنقيص عدد الجيش على حين تدعو الحاجة الى تزييده فلا شكّ ان هذا العمل لضرب من الخرق والجنون يفضي بها الى فقد ثقة الامة ولا يؤمن مع مصيرها الى غاية الخمول والسقوط ان يرتطم وطننا في اوهاق الاستبداد »

ثم لم يمرّ غير شهر حتى استولى الامير عبد القادر ثانية على مدية واستأنف مضايقة مدينتي وهران والجزائر . اما ولاية وهران فكانت الحوادث فيها تزداد جسامةً فان الجنرال درلانج خرج من حاضرتها في بدء شهر نيسان وانشأ معسكرًا عند مصبّ نهر تفنه طامعاً في ايجاد المواصلات ومدّها بينه وبين مدينة تلمسان

بيد أن خوارات العرب ائتالت مع عبد القادر فاستطاع بهم تبوُّء جميع السهول والطرق ولما اراد الجنرال الخروج من معسكره في ٢٥ نيسان قام في وجهه ثمانية الاف فارس وثمانية الاف راجل ولم يكن معهُ سوى الف وثمانمائة جندي فانكفأ الى مركزه وطيّر الانباء بحرًا الى الجزائر بخبر القائد العام بحرج موقفه وخطره لتعذر خط الرجعة عليه برًا الى وهران او الى الجزائر ولأن التقهقر بحرًا يبلوه بالعار ويثلم شرف الجند. ففرض القائمقام دي لاموريسيير انهُ يتولى قيادة اربعمائة رجل من الزواف يخرجون في مقدمة المدد لانجاد درلانج فأبى عليه القائد العام من اجل ما اتاه في اوامر الوزارة ومقتضاه ان ارسلوا لمظاهرة درلانج الجنرال « بوجو » وبما ان لهذا الجنرال ذكرًا يعاد كثيرًا في هذا التاريخ لاق بنا ان نلمّ بوصف ما فيه فنقول :

وُلد هذا الرجل في اواسط فرنسا سنة ١٧٨٤ وتطوع في جيش نابوليون الاول ولما سقط هذا العاهل من ذرى مجده وأفل نجم جده كان المترجم لهُ قد رقي الى رتبة امير الاي واعتزل الاشغال في مدة حكومة البوربون وفي سنة ١٨٣٠ رجع الى الجيش ولشدة تعلقهِ بلويس فيليب جعله امير لواء (ان رتبة امير اللواء عند الفرنسيس هي بمثابة رتبة جنرال دي بريكاد ورتبة فريق جنرال دي ديفيزيون وكلتا هاتين الرتبتين يطلق عليهما اجمالاً رتبة جنرال اما رتبة المشير عندهم فيقابلها رتبة الماريشال) ووكل اليهِ حراسة القلعة التي سجنت فيها الدوقة دي برّي والدة الكونت دي شامبور وكان رجلًا شجاعًا جنديًا بحتًا يؤخذ عليهِ انهُ سريع الغضب مفرط في حب نفسهِ حسود فظ الكلام

قلنا وقد وصل الجنرال « بوجو » الى ولاية وهران واحتل « تفنه » في ١٦ حزيران وانتصر انتصارًا عظيمًا على العرب في واقعة السيكا (اسم مكان) اظفره برتبة فريق ثم انطلق الى تلمسان حيث زاد عدد الحامية وكفاها موءنة واسلحة . وبعد مضي ستة اسابيع من قدومه عاد الى وهران وسافر منها الى الجزائر حيث استدعى اليهِ دي لاموريسيير فوافاه وخابره في امور المستعمرة وما لبث ان عاد الى فرنسا وقد ترتب على حضوره امر نافع وهو ارشاد القواد الى طريقة يستغنى بها عن استصحاب المدافع والعجلات في الحرب تخفيفًا لاوزارها وتعجيلًا لحركات الجند على ان احوال المستعمرة استمرت على حالها فان وهران وتلمسان يومئذٍ لما تخرجا من ربقة الحصر . اما الحاج احمد بك والي قسطنطين فلما علم باستعدادات فرنسا ضده جاهر بالعدوان ودنا بجيشه من مدينة بونه . وفي ١٢ ايلول أمر القائد العام مائتي جندي من الزواف بالذهاب مع قائمقامهم دي لاموريسيير

تأديباً لاهل القليعة ومعاقبتهم على بعض امور عدوانية كانوا قد اتوها فلما وصل دي لاموريسيير الى القليعة فتح اهلها له ابوابها واستقبلوه مرحبين به لمعرفتهم القديمة اياه فاخذ يحسن معاملتهم ويتلين لهم وبقيت المدينة من ذلك الوقت في قبضة فرنسا ثم كلفه القائد العام ان يحافظ على الراحة في ساحل البلاد اي سائر ضواحي مدينة الجزائر وعززه بتابور من الزواف وآخر من الفرسان وبلوكين من العساكر المنظمة فقام بوظيفته احسن قيام ونجح سعياً حتى انه اضطر رؤساء الحجوت بواسطة مرابطي القليعة ان يعيدوا اليه من كانوا اسروهم من الفرنسويين

اما القائد العام فانه زحف بتسعة آلاف مقاتل في اواخر شهر تشرين الثاني على مدينة قسطنطين وبعد عدة مصاولات اضطرَّ الى النكوص خاسراً وقد ضايقه العدو في رجوعه واشتهر شانكارنيه وقتئذٍ . ولما بلغ حكومة فرنسا انغلاب القائد كلوزل عزلته عن قيادة الجيش وحكومة الجزائر وادالت منه الجنرال كونت دي دامريمون فهاجت الامة الفرنسوية طالبة اخذ الثار للنيم فاستقرَّ رأي نادي نوابها على زيادة جيش الجزائر من ثلاثين الفاً الى خمسين الف مقاتل

الفصل السادس

معاهدة « التفنا »

افتتاح قسطنطين سنة ١٨٣٧

وفي بداية عام ١٨٣٧ بينما كان القائد العام الجديد يأمر بالتجهيزات والمعدات اللازمة للزحف على قسطنطين استأذن دي لامور يسيير في الشخوص الى فرنسا وقدمها لمشاهدة امه واخيه يوسف بعد ان تغيب عنهما اكثر من ست سنوات واذ بلغ طولون كتب الى اخيه ان يعد له ثياباً لائقة به لخلوه عن حلته الرسمية ولبث بباريس مدة خمسة اشهر يشاهد والدته واخاه ويلقى اصدقاءه وسعى لاخيه ان جعله كاتب اسرار سفارة فرنسا في عاصمة المكسيك باميركا فسافر اليها مودعاً اخاه وامه غير عالم بان ذلك الوداع هو الوداع الاخير . ثم ان دي لاموريسيير لقي في باريس صديقه الامير الملكي الدوق دي اورليان فامره ان يأخذ جميع التعليمات التاريخية والجغرافية والسياسية المتعلقة بولاية قسطنطين وفوض اليه ان يصرف ما شاء من المال في هذا الشأن على

نقته الخاصة ، ثم لقي رئيس الوزارة وهو اذ ذاك الكونت « دي مولي » فاعجب برأيه وسرته نقاله وامره ان يكاتبه مباشرة اي بلا وسيط ويطلعه على جميع احوال الجزائر وحوادثها وكان الموسيو تيارس يومئذٍ زعيم حزب المضادين للوزارة فعزم ان يحسن الالتفات اليه اذا عاود الاعمال وفي ٢١ حزيران سنة ١٨٣٧ عاد دي لامور يسيير الى طولون ولقي فيها « الموسيو اينار » امير الاي ومعه صورة صك المعاهدة التي كان عقدها القائد العام « بوجو » مع الامير عبد القادر وهي المعاهدة المعروفة بمعاهدة « التفنا » . ثم سار من مدينة طولون الى الجزائر وهنالك علم بكل ما كان حدث في مدة غيابه . كان الجنرال « بوجو » قد رجع الى وهران ولديه اوامر تقضي عليه بعقد الصلح مع الامير عبد القادر فطفق يخابره بواسطة اليهودي دوران السابق ذكره وهو الذي خدعه واحتال بجميع انواع الحيل فاصطاده باشراك خبثه ومكره وكان الامير عبد القادر في ذاك الوقت غير منفك عن شن الغارة على ولاية الجزائر ساخرًا بالقائد العام دامريمون الذي لم يكن ذا يد في مخابرة السلم عملًا باوامر الوزارة ولم يكن يجسر على ابداء اقل معارضة في عقد الصلح . ثم الرجل اليهودي باع الحنطة المدخرة من حامية وهران وتلمسان ولكن بعوض من البارود والمعدات الحربية وباطلاق سراح الاسرى حتى ازدادت جرأة الامير فحاصر تلمسان بعد ان باتت على بينة من وقوعها في مخاليب الضيق والخمصة وبلغ ذلك من الجنرال بوجو فاستاء وخرج بجيشه من وهران وشتت شمل العدو ووصل الى مصب التفنا وهناك اضرب عن مداومة الفتوح وعقد الصلح مع الامير بشروط لم يكن من الخليق به ان يقبلها فيما لو كان مغلوبًا لانه بذلك عدى لهُ عن مدينة تلمسان حالة كونها في حوزة حامية فرنسوية منذ اكثر من سنة ولم يستطع الامير ان يفتحها ثم ترك لهُ ايضًا اراضي مصب التفنا في جزيرة رشقون التي عند مصبه في البحر معترفًا بان فرنسا تتخلى لهُ عن ولاية مديه وسائر الجزائر ما عدا مدينتي بليده والقليعه اما الامير فلم يقر بحق ما لفرنسا في نظير ذلك بل لم يبذل للبعث شيئًا من الحنطة او الماشية وانما كان يأخذ منهم الثمن سلفًا

ثم اجتمع الامير والجنرال على اثر عقد المعاهدة المذكورة فاظهر للابهة والادلال ووضع توقيعه في الصورة العربية منهما قبل توقيع الجنرال ورفع الجنرال صورة تلك المعاهدة الى الوزارة طلبًا التصديق عليها وشفعها بكتاب يحاول فيه تبرئة ساحته من اقدامه على توقيعها والرضى بها . اما

رئيس الوزارة الكونت دي مولي فانهُ امتلأ خجلاً من هذه المعاهدة حتى انهُ حاول انكار وجودها في نادي نواب الامة بعد ان اعلن صحتها في الجزائر فكتب لهُ دي لاموريسيير يكاشفه الاسف والغيظ الذي وقع فيهِ الجيش من خبر هذه المعاهدة :

« وردت الجزائر في ٢٠ حزيران رسالة برقية من وزير الحرب مؤرخة في ١٥ حزيران يقول فيها ان عقد الصلح قد تم مع الامير وانتم تنكرون حصوله بخطابكم في الندوة في ٢٠ الشهر وهذا ما اوقع القائد العام في حيرة عظيمة »

ثم اخذ يبين لهُ ما حمل الجنرال « بوجو » على التسليم بتلك المعاهدة فيما يظن حالة كونه غير عالم بعمرة مغبة شروطها ولكن لما درى بعد حين بكنهها اغتاظ جداً وكتب للكونت دي مولي رسالة ثانية ذهب فيها مذهباً آخر واضح بخصوص ما حمل الجنرال بوجو على عقد المعاهدة وتلك الرسالة مؤرخة في ٢٥ حزيران :

« لا يمكنني ان اوثق حدوث هذا العمل معما كنت ثقتهُ من طباع الجنرال بوجو ولهذا لا استطيع ان اكتمكم ما يقارب الحقيقة عندي من ان الجنرال كان مدفوعاً الى ذلك باوامر خصوصية من الملك وان الجنرال نظراً لما هو عليهِ من التعلق بشخص الملك قد اقدم على تلك المعاهدة المشؤومة وها انّا صرنا كالرومانيين نشتري الصلح من البرابرة وانهُ لدور محزن يمثلهُ الأمور في خدمة حكومة تفسد جميع ما يتصل بها »

ومما حقق ظنون دي لاموريسيير عدم عزل الجنرال بوجو ومؤاخذتهِ . ثم عاد القائد العام يهتم باتخاذ كل التدابير لفتح مدينة قسطنطين في فصل الخريف . وفي شهر تموز انشأ الامير الاي دوفيفيه معسكراً في وسط المسافة بين عاصمة الجزائر ومدينة قسطنطين وذلك عند « مجاز عامر » عند ملتقى الجدولين المؤلف منهما نهر السيبوز الذي يصبّ ماؤه في البحر قرب مدينة بونه

وفي ٥ ايلول ذهب الزواف بقيادة لاموريسيير الى ذلك المعسكر يصحبهم الدكتور سادليو الشهير ومعهُ ما يحتاج اليه البحث من معدات علاج الجرحى والمرضى ولما بلغوا المعسكر اخذ الدكتور المومأ اليهِ يمشي مع لاموريسيير ونفر من الجند ما قرب من الحلات والامكنة وماء معدنياً في « حمام نسكوتين » وهو على بعد ثمانية كيلومترات من المعسكر غير مبالين بما كان يحدق بهم من الخطر . وقد تألب الوف من القبائل التي اثارها احمد بك لمحاصرة المعسكر وهاجموه في ٢٢ ايلول

و٢٣ منهُ وقد اعترف الجنرال روليار بأن انتصاره عليهم كان على يد لاموريسيير وبسالته واقدام رجاله فانهُ هزم اربعة آلاف من الاعداء في سبعمائة رجل والتمس « اي الجنرال » لهُ المكافأة في تقريره ثم تمت التجهيزات آخر الامر ووصل الدوق دي نيمور ثاني انجال الملك الى المعسكر في ٢٨ ايلول (وهو الذي توفي في فرسايل منذ شهرين وعمره ٨٢ سنة)

وكان عدد الجيش ١٣ الفاً من المشاة و٧ آلاف فارس وعدة بغال لنقل المعدات و٢٧ مدفعاً بجرها ٤٠٠ عجلة فترك الجيش المعسكر في اول تشرين الاول وسار في جهة مدينة قسطنطين وعليه القائد العام دامريمون والجنرال فالي والجنرال روليار والدوق دي نيمور واستمروا خمسة ايام سائرين في وسط برية حقيقية صعبة المسالك حتى اضطروا ان يفتحوا فيها طريقاً للمدافع والعربات الى ان ظهرت لهم من قمة « منصورة » مدينة قسطنطين وذلك في السادس من ت ١ وهي وراء وادٍ عميق صعب المجتاز وفيها الوف من ذوي القلوب المتهيئة للقتال الى آخر رمق ويدخل اليها من جهتين احداهما جسر عظيم فوق ذلك الوادي على ان عبوره كان ممتنعاً اذ ذاك لان العدو كان مرابطاً فيه والاخرى قمة « قوديات — عطي » وهي متصلة بسلسلة صخور عالية قائمة عليها المدينة فاستولى الجيش على تلك القمة يوم وصوله لم يصدّه انهمار المطر واندفاع السيل . وفي الثلاث الايام الاولى التي قضاها الجيش حول المدينة كان تارة عرضة لتأثيرات الرياح والبرد في وسط سهول لا شجر فيها وطوراً لهاجمات العدو ولم يستطع المهندسون والمدفعيون استعمال المدافع في اول الامر بداعي كثرة المطر وقد ابلى جنود الزواف في قمة « منصورة » بلاءً حسناً ضد القبائل

ثم في عاشر ت ١ اطلقت كرات المدافع على المدينة وفي الحادي عشر منه فتحت ثغراً في اسوار المدينة قدره ٣٥٠ متراً لدخول الصباكر فارسل القائد العام من يعرض التسليم على الحاج احمد بك فاجابه بلسان الرسول الفرنسوي بقوله « ان كنت في حاجة الى البارود او الخبز فاني معطيك ما يكفيك منهما اما المدينة فلا تطمع بأخذها وفيها حيّ » وعند بداية الليل شرع الجيش يتهيأ للهجوم فجعلت المدافع على مسافة ١٠٠ متر من الاسوار واتى الزواف مع قائدهم دي لاموريسيير للمحافظة على المدافع وحضر العدو جميع قنابله مدافعه في تلك الجهة

وبينما القائد العام دامريمون يرقب الاعمال والحركات اذ اصابته احدى كرات العدو فسقط قتيلاً وجرح رئيس اركان حربه والدوق دي نيمور فتولى الجنرال فالي القيادة العامة حسب الاصول

المرعية في مثل هذه الحال لانهُ كان اقدم قادة الجيش المحاصر

واستمرت مدافع الفرنسويين ترمي بكراتها اسوار المدينة ذلك الليل بطوله وبحابة اليوم اﻟ ١٢ من تشرين حتى جاء المساء كفوا عن مزيد خرق الاسوار لان مواضع الخرق منها صارت كافية للهجوم والدخول وعند الساعة الرابعة والنصف من صباح اﻟ ١٣ منه حساباً افرنجياً كانت ثلاث فرق من الجند قائمة تنتظر اشارة القائد بالهجوم واولاها مؤلفة من الزواف وعددها ٣٠٠ جندي وفيها ٢٠٠ من التابور الثاني المنظم وكان على رئاستها القائمقام دي لامورپسيير والفرقة الثانية بامرة الامير الاي كومب وهي ٦٨٠ جندياً وفيها من الضباط بدو رئيس فريق الغرباء وليكلارك والثالثة بقيادة امير الالاي كوربين وهي ٨٠٠ جندي

واستمرّت جنود هذه الفرق مدة ساعتين ونصف اخرى منتظرة صدور الامر بالهجوم وكان اطلاق المدافع مستمرًّا في خلال هذا الانتظار توسيعاً لخرق السور ودفع الحجارة وتسهيل الطريق وفيما الجنود كذلك قال اليوزباشي لافلو لمواطنيهِ القائمقام لامورپسيير والبيكباشي بدو وهو باسم الثغر : « يسرّني ان نكون نحن ابناء بريطانيا الصغيرة (ولاية في شمال فرنسا وغربيها تدعى صغيرة فرقاً بينها وبين انكلترة وسكوتلاندة) في طليعة الجيش اذ انهُ في هذا النهار سيحمى وطيس الوغى » فاجابهُ لامورپسيير بقولهِ « لست ادري ما عند غيري اما انا فلو قيل لي انك ستقتل بعد ربع ساعة واني استطيع ان انسلّ من مضيق الهجوم على وجه لا يلحقني فيهِ غض من قدري فانجو من الموت لاجبت باني آثر الثبات في موقفي مع تحقق الهلاك »

ثم لم يمرّ غير قليل حتى صدرت الاوامر بالهجوم فوثب لامورپسيير في فرقتهِ واقتحم الاسوار فنظرت اليهِ سائر الجنود متعجبة وهو يضع العلم المثلَّث الالوان على السور ثم توارى وراءه هو وفرقته واستمر نحو عشر دقائق هدفاً لقذائف العدو المتواصلة ممطرة عليهِ من نوافذ جميع البيوت واذ لم يجد مدخلاً بين هاتيك المباني والاحوية المتلاصقة امر جنوده بتسلق جدرانها واذا بمن ينادي ابشروا فانَّا القينا باباً في الطريق وما لبث الهاتف ان وصل اليهِ واثباً بالهيئة التي صوّره فيها « هوراس فرنه » (وهو من اكبر مصوّري عصرنا كلفهُ لويس فيليب برسم اشهر المواقع والحوادث والرجال لوضعها في قصر فرساليا) امام شارع اختبأ فيهِ العرب وهم يقذفون على الجنود الهاجمين نيران بنادقهم فسقط صديقه ومأموره العزيز عليهِ وهو اليوزباشي دفوازين بين يديه قتيلاً وكان يحاول اغلاق الباب ليرتب

جنوده وفي تلك الدقيقة سمع دوي قوي جداً وارتجت الارض وتداعت البيوت والجدران فغطت انقاضها لاموريسير وجنوده . وانقطع القتال برهة ثم عاودت الجنود الفرنسوية الكرة ووثبت الفرقة الثانية لانجاد الفرقة الاولى المدفونة تحت الردم فلم تجد لها اثرًا فارتاعت وانثنت فتقدم امير الاي كومب وبيكباشيه بدو امام الجنود وناديا فيهم : « تقدموا ما عليكم من خوف تقدموا »

فاستولى الجنود على المدينة ثم عاد كومب وهو مثخن جراحاً ليخبر القواد ان المدينة قد فتحت فوقع ميتاً في عنفوان شبابهِ وكان لاموريسير لم يزل تحت الردم يحسبه الجميع في عداد الهدمى ثم وجد في التراب معفرًا مجروح الوجه لا يبصر ولا يتحرك حتى اذا استطاع النطق ولما يرجع اليهِ روعه سمعوه يذكر ما جرى معهُ اولاً ويسأل عن صديقهِ قائلاً : « اين دفوازن . اذا جرى عليه انهُ شجاع جندي باسل هل نجا » وبعد ان اعتنى بهِ الجراح « بونني » مدةً وفصده لتسكين ثوران دمهُ ثابت اليهِ روحه . وعند المساء اجتمع اليهِ في خيمته ضباط الجيش وقوّاده وقد جيء الى الخيمة بالعلم الاحمر الكبير الذي اخذوه من المدينة فوضعوه على فراشه وبالحق انهُ اصبح امير ذلك النهار خصوصاً وان الاوامر الواردة من باريس كانت قد منعت الدوق دي نيمور من مشاركة الجيش في الهجوم فما اسوأ هذا الوقت الذي يظهر فيهِ ان لم يبقَ للشعب ثقة بالامراء وان الامراء عادوا يشعرون بان لا بد من اراقة دمائهم في حفظ المقام الاول . واستولى الفرنسيس على قسطنطين ونادوا بالامان وحافظوا على الترتيب والنظام ومنعوا اليهود من النهب وفرّ الحاج احمد بك وبعض اعوانه ولكن جاء الهواء الاصفر ففتك بالجيش فتكاً ذريعاً واضرَّ بهِ اكثر مما كان اضرَّ بهِ العدوّ اما لاموريسير فانهُ بقي مدّةً لا يطيق ان يفتح عينيه وقد شهد الدكتور ساديلو انهُ كان صابرًا متجلدًا على آلامه بلا ضجر ولا ملل وما كان لهُ فكر او هم في سوى اصدقائه وضباطه ولمّا امكنه ان يبصر كاف احد رفقائه ان يكتب على لسانهِ الى والدتهِ ما تعريبه

« يا امي العزيزة لا يمكنني ان اكتب لكِ هذه المرة بسبب حادث عرض لي في هجومنا على المدينة . دخلت المدينة وانا على رئاسة الفرقة الاولى ثم حدث حريق في مستودع البارود في المدينة وكان الخطب هائلاً اذ نسف المباني الدانية ودكها دكاً وبقيتُ تحت الردم والانقاض مقدار سبع دقائق حتى انقذني جنودي . والذي يمنعني عن الكتابة هو ما اصاب يدي اليمين والقسم الايمن من وجهي من نازلة الاحتراق . وقد زارني الدوق دي نيمور واليوم يزورني البرنس جوانفيل

(وهو ثالث الخيالي الملك لم يزل حيًّا حتى الآن وعمره ٧٨ عامًا) على اثر وصوله الى المدينة ولا شك انهُ يتكرني ولا يعرفني بداعي احتراق شعر رأسي وعارضي وحواجبي والتثاف وجهي بالمسح والرباط والرباطات . وقد قتل نصف رجالي في الواقعة »

وبعد ايام قليلة امكن لهُ ان يكتب بيده فخط بعض اسطر الى والدته ويده ترتجف وهذا ما كتب :

« لا اعلم ماذا يقول الناس عن وقعتنا وهي بالحق من اعظم المواقع الحربية لو كانت على عهد الامبراطورية . وقد ارتفع مقام الزواف ومهما قالوا لك وحدثوك عنا فلا تستطيعي ان تتمثلي مقدار الاكرام والاعتبار العام الذي اصبحت انا ورجالي »

وقد بعث الى امه بالعلم الاحمر الكبير وجلدي نمر وجلدي اسد . وبعد ايام قليلة قدم لهُ الدوق دي نيمور زوجي طبنجات والامر المؤذن بتسميته امير الاي . وقد نال ايضًا جميع ما طلبهُ من الرواتب والرتب لضباطه

ومما يجدر بالذكر ان اليوزباشي « لافلو » ابى بادئ بدء ان يكون في رتبة بيكباشي محتجًا بصغر سنه واشار بترقية رجل غيره الى هذه الرتبة الجندية اما فالي القائد العام فقد رفع الملك رتبته الى رتبة ماريشال

وفي ٤ تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ عينها عاد الامير الالاي لاموريسيير الى بونه في رجاله الزواف وكانت شهرته اذ ذاك قد طارت في اكناف فرنسا وحصل لهُ شأن كبير وكتب السياسي دي توكفيل الى احد اصدقائه في ١٤ ت ٢ ما معناه :

« لا يمكنني ان اصف شدة اهتمامي بلاموريسيير فان حب هذا الرجل غالب عليَّ وان لم يكن لي ميل اليه ولما قرأت تقرير هجومه على مدينة قسطنطين خيل اليَّ اني اراه واصلًا الى الاسوار قبل سائر الجنود والضباط وان روحي في يديه قلت اني احبهُ خصوصًا من اجل فرنسا فاني موقن على الاطلاق بانهُ سيكون في مستقبل الايام من اعظم قواد الفرنسيس »

ولما ذاعت سمعته واخذت الجرائد تنوه بشأنه وتمدد خلاله وتصف معيشته جعل اقاربه واصدقاؤه يعرضون عليه الزواج ويحضونهُ على انتهاز فرصة اقترانه باجمل السيدات واغناهن راغبين اليه في ترشيح نفسه للانتخابات النيابية العمومية فيمكنهُ دخول ندوة النواب اما هو فاجابهم انهُ لا يستطيع

الزواج بهذه الطريقة لان المسألة ليست مسألة تجارية او سياسية قال واما امر انتظامه في مجلس الامة فلم يحن موعده فهو يتريث متلكئاً عله ريثما يرقى رتبة اخرى بحيث يصير امير لواء « جنرال » ليقتني له ان يقارع سياسة مناوئيه وزراء وغير وزراء خصوصاً القائد العام والجنرال « بوجو » الذي كان قد بدأ من ذلك الوقت بمنافسته ومحاسدته

الفصل السابع

الامير الالاي لاموريسيير في القليعة ١٨٣٨ و ١٨٣٩

ما كانت لتتاب لاموريسيير والحاحات اقاربه لتحمله على الشخوص الى فرنسا بل بقي مع الزواف واغتنم فرصة سرور الجمهور بحسن سلوكهم لاتمام تنظيمهم فنال ان يزاد عددهم واصبحوا يؤلفون ثلاثة توابير وذلك بان ضموا اليهم المتطوعين الذين كانوا في تلمسان ورئيسهم اليوزباشي كافنياك ولما ما كان قد فاتهم من قدوم مدينة الجزائر قد تسنى لهم حصوله حينئذٍ فدخلوا حاضرة الجزائر بعد ان حُرموا منظرها مدة سبع سنوات وذلك بمجد وابهة فائقة بين ضجيج الشعب وتهلاله

ولما نظر القائد العام ان السعد قرين اعماله ارسل امير الالاي دوفيفيه في حامية المحافظة على مدينة بليده وامير الالاي لاموريسيير في التي رحل المحافظة على القليعة بعد ان كان الامير عبد القادر وطد سلطته في مديه وتلمسان وشرشل واستثار جميع القبائل على الفرنسيس اما القليعة فانهُ كان قد حاول تدويخها وادخالها في طاعتهِ وسلطتهِ بوسائل التلين والدهاء والمداراة لانهُ يخشى مقاتلة مرابطيها المشهورين بالقداسة والتقوى فاكرم احدهم وهو سيدي مبارك ورتبهُ في خدمتهِ وجعله والياً على مدينة مليانه فاتخذ هذا يزين لمواطنيهِ خدمة الامير وكان هو يذيع فيهم ان كل البلاد قد دانت له خاضعة وان الفرنسيس انفسهم سيتخلون له عن بليدة وبفاريك وسيبيعونهُ حاضرة الجزائر بمبلغ خمسين مليونا

وبسبب هذه الوعودات وما كانوا يرونهُ من ضعف سياسة فرنسا خاف اهل القليعة واخذ

بعضهم يهاجرون منها فوصل لاموريسيير وحل بينهم بجنوده وهم في حال الاضطراب فسكن روعهم وشيَّد اسوار المدينــة واخذ يردّ هجمات الحجوت وغيرهم من القبائل وكان معهُ اربعة توابير وبلوك من بنّائي الطرقات واربع مـدافع وبلوك فرسان وكان عليهِ ان يبتني الاسوار والاستحكامات وثكنة تكون مركزًا مستمرًّا وان يمنى في تجفيف المستنقعات في ارباض تلك المدينة لتمهدفيها الطرق

وبالجملة فان همهُ لم يكن قاصرًا على خفارة البلدة بل كان من شأنهِ الاهتمام برعاية مسير البُرُد (البوسطات) والمسـافرين حول حاضرة الجزائر وكان قد ضرب في الارض التي ولي حفظهـا وضبطها وخبر احوالها فاهتدى الى مواضع المرابطة ومواطن الدفاع منها فدلتهُ فطنته وحدته حكمتهُ ان قسم رجاله فرقًا ورتبهم في مراكز ثابتة وجعل علامات وعلاقات متواصلة بين « قليعه ودويره وبئر قديم » فاحبط بذلك جميع مكايد العدو وما دبروا على الفرنسيس ليأخذوهم غيـلة ويجتاحوا مواشي الخاضعين . وفي ابّان ادراك محصولات الحبوب خرج محالفو فرنسا ومزارعوها في كلاءة الزواف الى الحقول الدانية من « دويره » واصابوا من غلّات العرب الجـالين ما اصابوا وكان دي لاموريسيير مهتمًّا بكل هذه الامور مفكرًا في مستقبل الزواف وكتب الى امه يقول :

« عمَّا قليل يتمّ انتظـام الزواف فيتسنى لي طلب الراحة »

وما زال يرجىء عودته الى فرنسا من يوم الى آخر حتى فجأه نبأٌ فاجع بوفاة اصـغر اخوته يوسف في مدينة المكسيك وكان كاتب اسرار سفارة فرنسا هنـاك توفي في سنّ الشبيبة فما لبث لاموريسيير بعد ورود النعي ان استأذن في الرجوع الى فرنسا فأُذن لهُ وقدمها وقضى عند والدته كل مدة رخصته وهي سبعة اشهر بدءها اليوم الـ ١٦ من تشرين الثاني عام ١٨٣٨ ونهايتها الـ ١١ من تموز عام ١٨٣٩ وكان يوءاسيها ويعزيها باظهار شدة حبه لها وبرّه بها تخفيفًا لمصابها بولدها الآخر. وكان يتحامى حضور الاعياد والاجتماعات وقص الحوادث التي اشتهر بها ويسرّ جدًّا بروءية وطنه وقريته . ولما مرَّ بباريس لقي المصور هوراس ڤرنه (وهو الذي كان قد امره الملك بتصوير لاموريسيير لتعلق صورته في قصر فرساليا) فاراد تثبيطـه عنده مقدار ساعة للقصد المذكور فما استطاع الى ذلك سبيلًا فاكتفى بما ترسمهُ من ملامح هيئتـهِ وهو لاهٍ متشاغل بمحادثتهِ ولذا لم تحصل المشاكلة والمطابقة التامة بين الحقيقة والرسم

ومما كان يغلب على طبع لاموريسيير اجتناب المواربة في احاديث الاندية السيـاسية والمحافل

الدولية بباريس وكان اذا ناصحهُ اخدانه واصدقاؤه بالاقلاع عن هذه الخطة التي لا تعود عليهِ بالخير يجيبهم بما معناه :

« اني ارى الامور على غير ما ترون ولست انكر على قوم استغرابهم شدة تعلقي بالروابط الادبية حالة كون الجمهور متباعدًا عنها . ولا انني ان يكون ذلك داعيًا لادباري وتخلفي في طرق السياسة ولكن الجدر بهؤلاء الناس ان اجعل مسالكي وقف اهوائهم ووفق اميالهم ومشيئاتهم »

وكان الدوق دي اورليان ولي العهد يذب عنهُ محاميًا ومثله الموسيو تيارس بعد اذ جمع بينهما واخذ من ذلك الوقت يفاوضه في امور الجزائر واعمالها . وحدث في مدة اقامة لاموريسيير بفرنسا ان الماريشال فالي القائد العام قد حاول الغاء صنف الزواف وما زال مهتمًّا بذلك حتى امكن لهُ الغاء التابور الثالث واخذ يشرع في ادخال العرب الزواف في فريق الغرباء والفرنسيس منهم في الجيش المنظم وبلغ الامر لاموريسيير فنال منهُ كثيرًا وطفق يذود عن الزواف ويناضل قبيل خروجه من فرنسا عائدًا الى المستعمرة حتى اذا اتى القليعة اخذ يبعث بالرسائل والتقارير في شأن الزواف الى اولي الحل والعقد ومما احتج بهِ لاستبقائهم انهم لا يجشمون فرنسا من النفقات ما يجشمها سائر الجيش وانهم هناك بمثابة مدرسي اللغة العربية للجند الفرنسيس واللغة الفرنسوية للعرب وانهم نشأوا منذ نشأت حرب الاستعمار وأدّوا اجلّ الخدم فلمَ لا يستمرون فيها الى نهاية هذه الحرب على الاقل

وبالجملة فان لاموريسيير قد افلح في طليعتهِ فابقي صنف الزواف محصورًا في تابورين بيدَ ان الماريشال لم يحل عن عزمهِ ومذهبه في مضادة لاموريسيير من اجلهم وما كان عمله هذا السيء ليصدّ الرجل الشهم عن اداء الشهادة بحسن ادارة مناوئهِ وترقي احوال المستعمرة في مدّته وتحسن العلاقات المتواصلة مع العرب

ومن اهم الامور التي تمت في ايام الحاكم العام المشار اليهِ احداث رعية (ابرشية) كاثوليكية في حاضرة الجزائر تعم سائرها باطرافها وهي خاضعة لرئاسة اساقفة اكس في فرنسا واول اسقف جعل عليها هو المطران دوبوك وذلك في سنة ١٨٣٨ واهتم القائد العام بافتتاح ولاية قسطنطين وتكملة ولاية حاضرة الجزائر ولذا فانهُ تبوأ مدينة جيجلي بجماية من الجند وامر ببناء مدينة فيلبڤيل على مسافة ٦٠ كيلومترًا من بلدة قسطنطين وموقعها شاطىء البحر وذلك ليتم خط المواصلات البحرية بين الحاضرة المذكورة وبونه فاصبح بين هاتين المدينتين ثلاث مدن في قبضة فرنسا وهي فيليبڤيل

وجيجلي وبوجيه . اما فيليبفيل فقد بنيت على آثار مدينة شتور القديمة في فرضة حسنة المنظر. ثم شرع القائد العام ببناء مرفا حربي لحاضرة الجزائر ويفتح الطرق منها الى داخل البلاد ومن القليعة الى بليده واصبحت بفاريك مركزاً تلتقي فيه عدة طرق وبداعي بعض اعمال عمراة فيها لتجفيف المستنقعات طاب هواؤها ورغب في سكناها

اما الامير عبد القادر فكان يزداد تحفظاً واحتياطاً فحصن مدينة مسكره ومديه ومليانه وشيّد خلفها قلاعاً جديدة لتكون ملجأ وموئلاً عند الحاجة واضافة رم تحصينات « تجدمبت » وبقايا مدينة تازا القديمة الرومانية . ولما حاولة لاموريسيير فتح طريق كبير بين الحاضرة ومدينة قسطنطين وبما انهُ لم يكن يريد محاربة الامير عبد القادر فقد خابره بلسان دوران اليهودي فانتهز هذا الخب فرصتهُ المؤاتية لهُ وخدع الفرنسيس بضروب من الحيل جرت اليهِ والى عبد القادر مغانم جسيمة . وفي تلك المدة عاد الدوق دي اورليان الى الجزائر فوصل وهران ومنها الى الحاضرة فاراه القائد العام جميع قلاعها وارباضها ثم مضى بهِ الى فيليبفيل براً بعد ان امن هجوم الامير عبد القادر عليهِ بما ساق اليهِ من الهدايا فاستاء الدوق مما رآه هناك في احوال الجند من الجهد وسوء العيشة والاهمال والابتلاء بالعلل والامراض . وقد وجد مثل ذلك في مدينة قسطنطين فوبخ القائد العام وانّبهُ على ذلك وبعدئذٍ عادا معاً براً من مدينة قسطنطين الى حاضرة الجزائر ولم يعوجا بارباض بوجيه وقد اجتازا في وسط المضيق المشهور باسم ابواب الحديد في وسط جبال الاطلس بين الحاضرة وستيف .
وبعد رجوعهما اندفع الامير عبد القادر لشنّ الغارة على من استقبلوا الفرنسيس من القبائل بغير محاربة وكان المرابط سيدي مبارك يخبر لاموريسيير عن ذلك كله لما بينهما من من صلة الود والاخاء حتى انهُ عرض عليه منصباً مهماً في خدمة الامير

وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ عمّ الهياج في جميع قبائل العرب فابتدأت قبيلة الحجوت بالنهب والقتل ولم تحاشَ ابواب الحاضرة واما الامير فانهُ شبّ الحرب على الفرنسيس مدعياً ان مرور جندهم في مضيق ابواب الحديد كان نكثاً منهم للعهود وجاء بفرسانه الى وسط سهل متيجا وما زال يزحف بهم حتى صاروا على ابواب الحاضرة وكانوا اكثر من خمسة آلاف جندي بين مشاة وفرسان وبما ان غشيان العدو كان فجأة فقد استطاع اخذ كثير من المعدات والخيل والمؤن والرجال وقد دافع لاموريسيير في مدينة القليعه كل الدفاع حتى ردّ عنها هجمات الامير وكذلك حاكم بليده فانهُ

طرد الامير بعد قتال شديد . واما في وقائع ولاية وهران فقد اشتهر اليوزباشي لاليافر بجيس ومدافعته العدو في مئة وعشرين رجلًا في مدينة مزاغران وكانت مدة القتال طويلة وكان العدو خمسة عشر الف عربي وذلك في شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٠

وقد كتب لاموريسيير الى خاله (وهو يومئذٍ احد نواب الامة) بتاريخ ١٦ شباط ما تعريبهُ :

« عليكم بعد قليل ان تقرروا في الندوة النيابية مسائل افريقية ونفقات الجيش وهذا السؤال في منتهى الاهمية ولاسيما ان الكافة تجهل كنهه ولا يعرفون من احوال الجزائر الاَّ ما يقرأون في تقريرات الحكومة ورسائل الجرائد وبعض روايات المتجولين . اما انا فاني اكتب لكم عن خبرة طويلة ومعرفة حقيقية فان ضعف حكومتنا في سير الامور والمسائل في افريقيا لما يجلب عليها عارًا عظيمًا فان الكافة هنا يشتغلون بمصالحهم الخصوصية غير مهتمين بالمصلحة العمومية جميع الضباط يأتوننا للاشتراك في تجريدة او في حصار ثم يعودون من حيث اتوا بعد ان ينالوا رتبةً او وسامًا . . . . على فرنسا ان تقول لنا ماذا تريد ان تفعل بالجزائر وما تريد ان تمدنا بهِ اسعادًا لهذه المستعمرة ولكن مهما رامت من الامور لا يستطاع اتمامه في سنة واحدة . فان استعمار اوربا على سواحل افريقية لهو في اقصى الاهمية ولا يمكن لفرنسا ان توطد اركان سلطتها في هذه البلاد الاَّ بعد تجشم متاعب ونفقات باهظة اللهمَّ اذا رضيت بان تكون كما كانت اسبانيا في سوتا (وهي مدينة في بلاد مراكش خاضعة للاسبانيول) بيد اني قانط من ادراك ما اتمنى لاننا لا يمكننا الآن ان نرى احدًا في فرنسا يهتم بالمستقبل فان الملك يرتجف ويخاف من ادنى حركة في الداخل او في الخارج وندوة الامة ـ وهي عبارة عن نواب غير قائمين مقام الامة حقيقةً ـ لا يمكنها ان تخاطر بشؤون من يطلبون اصلاح انتخاب اعضائها اما الوزارة وهي نتيجة اتحاد سلطية الملك والامة فانها تغادر الحوادث ومجراها لا تقدم على ابداء اقل رأي لتيقنها وشك سقوطها وانقلابها . هذه هي حالة حكومة فرنسا. ومن جهة اخرى نقرأ في جرائد العالم ما يأتيه الانكليز في افغانستان مقتفين اثار الاسكندر المكدوني واعمال الروس على شواطئ بحر قزبين وزحفهم نحو خيوى وسمرقند ويخال ان هذين الشعبين ينويان اقتسام الارض بينهما واما نحن وعددنا ثمانية عشر الف مقاتل (في ولاية الجزائر) فاننا محصورون في مدننا وامصارنا ومحاصرونا هم ستة الاف بدوي وها نحن ننتظر قدوم الدوق دي اورليان ليتولى قيادة الفرقة الاولى وقد جاءنا قبله عدد كبير من الضباط الباريسيين ولا يرى كثير

من الايام حتى يصير البرنس في رتبة ماريشال وترفع رتبة كل من رفقائهِ ويعود الجيش الى معسكراتهِ كما كان من قبل . ثم انهُ يموت في الصيف اربعة الاف جندي بشدة الامراض والاتعاب

هذه هي حالتنا ولا يبعد ان نصير مصير اسبانيا ولكن دون ان نقوى على الاجتماع حول علمٍ واحد للمدافعة عن حرّية وطننا واستقلاله . نعم ان افكاري محزنة الا انها حقيقية ولذا لا اطيل الخوض فيها مخافة اليأس والقنوط فاتلهى بالشغل فراراً من الموت لان الشغل عندي هو الحيوة »

وقد كتب لهُ الموسيو دي توكفيل قبل ذلك التاريخ يهنئهُ بنجاحهِ وفوزه في مسألة ابقاء الزواف ويغبطهُ عليها لان في الجيش راحة بالنسبة الى الحياة السياسية ويودّ لو كان اصغر سنًّا فيدخل في الجيش او اوفر ديانة فيلج رهبانية الترابيست

وفي بدء عام ١٨٤٠ رجع القائد العام الى مسالمة لاموريسيير وطفق يقرّبهُ اليهِ وفي ٢٤ شباط سألهُ بعد ان شكره على ما ارسل لهُ من الافادات ان يخابر الاعداء في حل قيود الاسرى الذين عند الامير او غيره من رؤساء العرب ولما ان نجح في تلك المخابرات استقدمهُ الى حاضرة الجزائر ليطلعه على الاعمال الحربية التي عزم ان يقدم به عليها وكان في نية القائد العام ان يصدم الامير ثلاث صدمات الاولى يغالبهُ فيها على مدينة شرشل وتحصينها لتكون قلعة في وسط بلاد الامير والثانية والثالثة يضطره فيها الى الجلاء عن الحاضرة المذكورة باخذ مدينتيه مديه ومليانه ثم بعد وقوع مناوشات قليلة بلغ القائد العام ودي لاموريسيير في الجيش الى شرشل فاستولوا عليها في ١٥ اذار وحصنوها وتركوا فيها حامية قويّة وعاد القائد العام منها وقد انضاه التعب فظهرت عليهِ امارات الشحوب فزادت شيخوختهُ ظهوراً (وكان عمره اذ ذاك ٦٧ سنة) ومع كل ما فرط منهُ خطأً وزلّات وصار اليهِ من سوء التدبير في تجريدة بشرشل لم يعدم من نفسهِ نشاطاً لاعداد تجريدة ثانية من شأنها افتتاح مديه ومليانه

ففي ١٤ نيسان وصل الدوق دي اورليان ومعهُ اخوه الدوق دومال (وهو رابع انجال الملك ولم يزل حتى الآن حيًّا في فرنسا) فرتب القائد العام تسعة آلاف جندي وقادهم مع البرنسين ومع لاموريسيير وبدو وشانكارنيه ودوفيفيه الى مدينة شرشل لاخذ الراحة والمؤن وكان الامير عبد القادر يحاول محاربتهم في ثمانية عشر الف مقاتل . ثم عاد الجيش الفرنسوي قصد اجتياز مضيق موازيا فوصل عاشر ايار فاذا بالامير عبد القادر قد استولى على جميع الممرّات وبنى في اعلى المضيق معقلين

ملأَهما بالمدافع والرجال لمنع مرور الفرنسيس

وفي ١٢ ايار شرع الفرنساويون يهجمون على تلك الصخور ليفتحوا لهم طريقاً واختار القائد العام قسماً من جيشهِ وجعله فرقتين كلًّا منهما الف وثمانمائة مقاتل يقود احدهما دوفيفيه ومعهُ شانكارنيه والاخرى لاموريسيير وهي من الزواف ثم لما كانت الساعة نصفاً بعد الظهر طفقت الفرقة الاولى تتسلق الصخور والجبال التي امامها من يسار المضيق وبعد عناء شديد ومشقة عظيمة وصلوا الى قمة الجبل وهم عرضة لرصاص العدو الذي رزأ منهم عدداً عظيماً وبعد ستّ ساعات نشرت تلك الفرقة العلم الفرنسوي على قنة الجبل

اما دي لاموريسيير وفرقته فابتدأوا بالهجوم من الجهة اليمنى بعد الفرقة الاولى بثلاث ساعات فاخذوا الاستحكامات الاولى ووصلوا الى مكان صاروا منهُ على مسافة قليلة من القبائل ولكن يفصلهم عنهم وادٍ عميق وما عدا ذلك فقد تألبت جنود العدو عليهم من كل الجهات وبينما هم في هذه الحالة سمعوا نداء الفرقة الاولى ودويّ صواعق نارها وكانت قد صارت وراء الاعداء فهجم الزواف ولاول اشارة تسلقوا التلال والصخور وفتكوا بالعدو واتصلوا بالفرقة الاولى وبالجملة فقد وصل سائر الجيش خلوًّا عن تعب الى متبوئهم في الساعة السابعة وكان المفقود من فرقة دوفيفيه مئة رجل ومن فرقة لاموريسيير خمسون. ثم أمر القائد العام بفتح طريق من ذاك المكان الى مديه فبنيت الطريق وفتحوا مديه وتبوأوها بحامية عظيمة قائدها كافنياك وكان يومئذٍ قد رقي الى وظيفة اميرالاي وصار بحيث يرجى لهُ ان يشتهر في تلك المدينة اكثر مما اشتهر في تلمسان

وانتهت تلك الحملة باشتهار بدو بمدافعتهِ عن موخر الجيش وبافتتاح مدينة مليانه. واما دي لاموريسيير فلم يرافق تجريدة هذه المدينة الاخيرة فانهُ لما وصل الى مديه اتاه من باريس امر بتاريخ ٢١ ايار يوجب شخوصه اليها عاجلًا لمخابرتهِ في امور المستعمرة فغادر القائد العام وسار فبلغ باريس بما امكن من السرعة فلقي الموسيو تيارس رئيس الوزارة اذ ذاك ينتظر قدومه ليفاوضهُ في شأن الجزائر لما روي لهُ من اخباره ولما عرفهُ فيهِ آونة الاجتماع به من قبل فاوضح لهُ لاموريسيير ان نجاح الجزائر يستلزم افتتاح البلاد ثم استعمارها فالمسألة الاولى (اي الافتتاح) تتم خصوصاً بهدم سلطة الامير عبد القادر واستنساره وبما ان مركز قوته في ولاية وهران فيجب ان تزاد قوة الجيش الفرنسوي هناك لمحاربته عبد القادر والاستيلاء على عاصمتهِ مسقره وعلى تلمسان وتجدمبت وكسر شوكة بني

هاشم وهم اعظم انصاره واخيراً قطع المواصلات بينه وبين دولة مراكش . وطلب لاموريسيير زيادة عدد المشاة من الجند لان الخيول الفرنسوية لم تكن قادرة على احتمال مناخ الجزائر وبيَّن ان الزواف قادرون ان يعوضوا عن وجود الفرسان وانهُ يتكفل بالظفر والفوز اذا انضم اليه عشرة الاف رجل من امثالهم. فعجب الموسيو تيارس من صحة ارائهِ واراد ان يتولى هو بنفسهِ امر التدبير والتدريب وفقًا لمشورتهِ فاعتمد الملك التماس الوزارة فرفع دي لاموريسيير من رتبة امير الاي الى امير لواء وهو في السنة الرابعة والثلاثين من عمره مع ان القوانين قد حددت سن الاربعين وصاعداً لمن يقلَّد هذا المنصب وفضلاً عن ذلك فان الملك لم يستشر القائد العام في جعله والياً على وهران وقائداً لجنودها التي كان عددها ينيف على ثلاثة ألوية وعهد اليهِ باجراء ما ارتآه . ففرح محبوه وذووه من اقربائهِ واصدقائهِ بعظم مظهر انتصاره السياسي على قائده حاسده ولاسيما ان تقدمهُ كان سريعاً وهو اصغر قادة الفرنسيس سنًّا . وما لبث ان انطلق دي لاموريسيير الى وهران وتولى ازمة الامر والنهي فيها مدة سبع سنين فاكثر اي من شهر حزيران سنة ١٨٤٠ الى ٢٤ شباط سنة ١٨٤٨

الفصل الثامن

وهران

سنة ١٨٤٠ و١٨٤١

وقد مرَّ ذكر وهران في تاريخنا عدة مرات اما صفتها فهي ميناء او فرضة في غربي الجزائر على البحر المتوسط تُعدّ ثانية في مدن الجزائر اهمية وسكاناً وقد تبدّلت هيئة حكومتها بتمادي الازمنة ودانت لعدَّة شعوب مختلفة واستقرَّت في حوزة الاسبانيول حتى سنة ١٧٩١ وعلى مسافة اربعة كيلومترات منها توجد بقايا ابراج تُعرف باسم القديس ميخائيل رئيس الملائكة وكانت مرابطة لمدخل المرفا المدعو المرسى الكبير . اما قلعة هذه المدينة فتدعى قلعة القديس غريغوريوس نسبة الى احد البابوات المشهور بالشجاعة والحماسة الوطنية والدينية وفي جملة ابراجها برج اسمهُ سانتا كروز اي الصليب المقدَّس وهو مشيَّد في موقع منيع جداً يشرف على جميع السهول الدانية المجاورة التي استقرَّت مدةً ثلاثة قرون ساحات لوقائع الحرب بين الاسبانيول والمراكشيين والجزائريين

والى هناك زحف لاموريسيير برجاله لمنازلة الامير عبد القادر ونظراً لانحصار اهمية الحركات الحربية في هذه الولاية ولنصب واليها بدون مشاورة القائد العام اصبح مركز لاموريسيير اهم من سائر المراكز بعد مركز القائد العام وهذا القائد لم يملك نفسه عن اظهار الاستياء بان اقتصر في مقابلة لاموريسيير على الامور الرسمية وكتب الى سلفه الجنرال دي كوهينيك يقول اني لا اعلم من داع لعزلك واستبدالك بالجنرال دي لاموريسيير . ولما تبين لاموريسيير ما بالقائد العام من شدة الحسد له على النعمة ثارت في رأسه مزية الانفة والاباء فاندفع يبرهن عن اقدامه ونشاطه : وكانت حالة وهران حين اتاها تسوء الناظر اليها وتحزنه ولم يكن للفرنسيس حولها سوى مساحة ١٢ كيلومتراً من متبوإ الجند المنوب الى التينة حتى سهل ميزرغين وكانت تلك المساحة قد اضحت برّية مجدبة تتعاورها الاخطار وفي آخرها بحيرة كبيرة ماؤها مالح وجبال تساله الحالية عن النبات وكان لهم في جهة الغرب برج صغير بالقرب من مستنقعات بريدية التي ذهبت بصحة جنود حاميتها. وكانت المخابرات بين هذه المراكز المختلفة محفوفة بالمكاره والاخطار اذ ان « ابو حمدي » احد نواب الامير ووكيله في تلمسان كان دائباً في شنّ الغارة على تلك السهول ونهب مواشي قبيلتي « الدوير والسمالا » المنحازتين الى الفرنسيس ولذا كانتا عرضة لاضطهادات الامير وارزائه نهباً وحريقاً حتى هاجر اكثرهم ودخلوا في خدمة الامير قصد التعيش وباتت حامية وهران القويّة محصورة داخل اسوارها مثل حامية مستغانم وارزو ورجال بريديه

واما عبد القادر فكان لا يطعم جفنه غمضاً ولا يغفل طرفة عين اهتماماً باستنفار الرجال وحضهم على نهب ضواحي وهران ومستغانم وارزو وقتل كل من يرى من العرب مظاهراً للفرنسيس او يبيعهم شيئاً من الميرة والذخيرة وكان يتحين الفرص لتبشير رعيته باطلاق مدافع مسقره ايذاناً بانتصاره على الافرنج وكان قواده سيدي مبارك والبركاني وميلود بن ارتش يراقبون حامية مديه ومليانه وشرشل وكان صهره مصطفى بن تامي محافظاً على السهول حول مسقره حتى مستغانم وخليفته ابو حمدي يشارف من مقرّه في تلمسان مدينة وهران مرسلاً نظره على مصبّ نهر التفنا تخليصاً للذخائر الحربية والاسلحة الواردة اليه من اوربا وكان كل منهم يعتني في تعبئة تابور من مقاتلة القبائل — وعلى هذه الحال كان الفرنسيس في وهران وولايتها حين قدم لاموريسيير ليتولى قيادة الجيش وادارة الولاية —

واهمّ ما صرف اليه همه رعاية صحة جنوده فزاد المستشفيات وشدّد في عقوبة الاطباء والممرضين « وهم من يخدمون المرضى ويحسنون القيام عليهم ويتعهدونهم بالعلاج » من اجل تهاونهم واهمالهم واجباتهم وارسل الى حاضرة الجزائر يستدعي غيرهم ممن هم اوفر كفاءة واضطلاعاً بالامر ثم أمر باخلاء برج بريديه معلناً ان سيبرهن باقدامه وقوة بأسه للعرب ان اخلاءه البرج لم يكن خوفاً منهم ثم جعل يرتب طلائعه ويبوّئهم مراكزهم مراعياً في ذلك احوال صحتهم وراحتهم

وأمر بان يكون لدى كل جندي منهم زنار من نسيج الفلانلّا وقاية لبدنه من المرض كما يتقيه به جند الزواف وان يحملوا قرباً من جلود التيوس لادخار الماء في السفر . وابدل الاطواق العادية برباطات الاعناق موافقة جداً لراحة الجندي وامر بكل جندي ان يشقّ جوالق رقاده وينشره كضرب او خيمة يرقد فيها . فتولد عن هذه التبديلات الداعية الى اقصى النفع سوء عاقبة في حاضرة الجزائر وابتدره القائد العام ايعاداً وانذاراً بالمؤاخذة وجعل العهدة عليه في هذه النفقات اذا ابت الوزارة ان تصدق عليها اما هو فلم يمتنع بل استمر ناهضاً بهذه المشروعات التي من شأنها وقاية الجندي من الامراض التي كانت تفتك به فتكاً اشد من فتك سلاح العدو وبالجملة فانهُ نجح سعياً وظهر صلاح عمله حتى ان سائر المستعمرة اي ولاية الجزائر وولاية قسطنطين اقتدتا بما فعله هو في ولاية وهران

ثم طلب ان يخصص كل فرقة « بلوك » من العساكر ببغل للتنقل والحمل وقد كان لكل تابور من قبل بغل واحد وعارض آراء من طلب تبديل البغال بالحمير لان الحمير لا تصبر على التعب والمطر صبر البغال . ثم اخذ في المخابرات والمداخلات مع جميع من حضر من العرب الى وهران استطلاعاً للاحوال وتعرفاً للحوادث الداخلية وشان العدو وشؤون الموالين لفرنسا من قبائل العرب وقد توفر على مساعدته في ولاية وهران رجلان يخلد التاريخ ذكرهما ابد الدهر اولهما مصطفى بن اسمعيل السابق ذكره . وكان منبوذاً عند من تولى وهران من ولاة الفرنسيس السالفين وبغضاؤه للامير عبد القادر متشاهرة معلومة وكان حينئذٍ شيخاً ذا لحية بيضاء طاعناً في السن مقداماً جسوراً لم يأخذه فترة في اخلاصه الحب والامانة للقائد دي لاموريسيير حتى الموت والثاني اليوزباشي دي مرغبري ولهُ عداد في اركان الحرب وكان اطال المكث بوهران متطلعاً فيها الى احوال البلاد وقد خدم بدرايته دي لاموريسيير مدة طويلة مستمراً على عهد امانته لم يحوله عنهُ منفاه . وكان لهذا الرجل في مستأخر الايام شان كبير جلت علياه وقائع حرب فرنسا اذ صار

رئيساً علماً لاركان الحرب في حصار سيبستوبول وحروب ايطاليا على ان ما جُبل عليه من فرط الدعة واللين قد قعد به عن ان يباري غيره من الرجال ويتقدمهم شوطاً بل اشواطاً في مضمار السباق المعنوي .

ولما قدم دي لامورسيير وهران نشط من فوره الى تجديد المكاتب العربية ورأس عليها اليوزباشي دوماس (وهو الذي صار بعدئذٍ جنرالاً وكتب حياة الامير عبد القادر) واستخدم عدة جواسيس من العرب وقوفاً على احوال محالفيه ورجال الامير من كل وجه فاستدل من انبائهم ان حلفاءه في ضيق لانقطاع الموارد بشبوب نار الوغى وقلة كفاء ما كانت فرنسا تمدهم به . فأمر باستكتاب اسماء محالفيه نسمةً نسمةً فاذا بهم يتعددون على ثمانية الاف نفس فرسم لهم ان يزاد في اعطياتهم الشهريَّة زهاء ١٢٠٥٠ فرنك وكتب الى القائد العام ينبئهُ ان الضرورة الجأتهُ الى تقرير ذلك قبل استشارته اياه فيه . وجميع هذه الاصلاحات قد اثبتت لمحالفيه خصوصاً لمصطفى بن اسمعيل ان حاكم وهران الجديد يختلف كثيراً عمن سلفه في هذه الولاية وان ساعة انتقامه من الامير اقتربت بل اتت . وقد حاول ابو حمدي مرتين ان يشنَّ الغارة على السائمة في مراعيها حول مزرغين ويلمُّ بها فرجع خائباً بعد ان هلك عدد غير يسير من رجاله وفي نهاية ايلول زحف لاخر مرة في اربعة الاف ومائتين من المقاتلة الى ضواحي « اجيل » في جنوبي « سبكه » اي البحيرة ذات الماء المالح ليهاجم هجوماً مطبقاً على القبائل الخاضعة لفرنسا وقد كان بلغ دي لامورسيير كل ما ذكر قبل حدوثه فجمع الجنود من الغد . فكان في الجناح الايمن جنود مزرغين وفي الجناح الايسر اربعمائة فارس بقيادة مصطفى بن اسمعيل وفي القلب اربعة توابير نظاميـة والامير الاي رندون (وهو الذي صار بعدئذٍ ماريشالاً ووالياً على الجزائر) وتابور شاسور (اي القناصين) افريقيا الثاني بامرة دي لامورسيير نفسه . وقد كفى في هزيمة العرب هجوم فرسان مصطفى وعساكر رندون فانكسر ابو حمدي ورجاله شرَّ انكسار . فظهر من هذه المناوشات تقدُّم الفرنسيس وتبريزهم على العرب لان هؤلاء وان كانوا شديدي البأس احامس الا انهم فوضى ابابيد لا نظام لهم ولا ترتيب .

ومذ ذاك طفق دي لامورسيير يهتم في الاعمال الحربية حتى فاق عساكر وهران سائر اقرانهم من الجند . ولم يشغله النظر في تعيين المراكز والمواقف الحربية لجنوده المجموة في قاصية خطة الامر عن مشارفة الشؤون وتحيُّن الفرص الملائمة وكان قد صح في اعتقاده ان خدمة سبعة

الاف لا غير من خمسة عشر الف جندي مرصدة لهُ وهولاء الذين لديهِ هم من المشاة يقتطع منهم اربعة الاف لمرابطة وهران ومستغانم وضواحيهما والباقون اي الثلاثة الاف هم مع الف من الفرسان ليس الا معدُّون بامرتهِ لمنازلة العدو وغزو اراضيهِ على كثرة رجال قبائله وجنوده المنظمة واتساع اراضيهم. وكان عبد القادر معسكرًا في مسقره اما القبائل المشايعة لهُ فهي قبيله بني عامر العظيمة وكانت مخيمة على ابواب وهران بين جبل تليلات وسهول مسقرة الفسيحة الجوانب. ثم قبيلة الغربيين الضاربة على ضفة جدول السيك . ثم كان في جبال نهر الحمام قبيلة بني شقران (ولعلها الاشقر) وهم من الجبليين الاشداء وفي اطوادهم تصدع طريق مسقرة . ثم من حول هذه المدينة احوية قبيلة بني هاشم الشرقيين والغربيين وعدد فرسانهم ينيف عن خمسة الاف فارس

ثم ما بين جدول المينا وجدول المناصفة قبيلة الفلتياس اما بنو ورك المشهورون بحب سفك الدماء فانهم ضاربون خيامهم في جبال وهران الفاصلة بين ولاية وهران وولاية الجزائر وان حالة ولاية وهران الوجدانية ومنعة جبالها واوديتها وشدة بأس رجالها كل ذلك جعلها ذات مركز اهم واقوى من مركز ولاية الجزائر ومدينة قسطنطين فحصلت لها اهمية الحرب بالتبعية فانها ما دامت خالية البطاح والربى والسهول عن اعلام فرنسا وألويتها لم يكن للفرنسيس سوى لقب ملوك البحر كما كان يدعوهم عبد القادر احتقارًا لهم . فبدأ دي لاموريسيير ببني عامر لما بلغهُ من انهم يحصدون الحقول التي على مسافة ٤٥ كيلومترًا من وهران فجمع جنوده في الـ ٢١ من تشرين الاول سنة ١٨٤٠ عند الساعة الثالثة بعد الظهر وخرج من المدينة بحجة مناورات حربية ثم اوغل غازًا في السير فوصل ليلًا والعدوّ عنهُ غافلون ففرَّ بنو عامر تاركين ما حصدوه بعد ان قتل منهم عدة رجال حاولوا المدافعة والنزال وبضع نسوة كنَّ قد دعونَ العرب المحالفين للفرنسيس باسم المعمودين ازدراء وسخرية فغنم لاموريسيير الفين من الضأن والفًا من البقر ثم قسم الغنيمة بين جنود وهران وسكانها ورجال العرب المحالفين

ثم بعد عشرة ايام خرج بجنوده واحلافه الى اراضي الاعداء فطردهم منها وفتح مخبَّأتهم واخذ غلالهم وفرّق الحبوب توزيعًا على الفرنسيس ومحالفيهم في وهران وضواحيها . ثم استأنف هذه الغزوة على رفقين اخريين . واذ عاد الى وهران ثاني مرَّة التقته قبيلة بني عامر لتصدَّه عن الرجوع وتأخذ بثارها فقاتلها وظهر عليها وشتت شمل رجالها وفقد من الفرنسيس في تلك الوقعة دي موسيون رئيس اركان حرب دي لاموريسيير

وكان امير الاي فخلفهُ على وظيفتهِ القائمقام بليسيير (وهو الذي صار فيما بعد ماريشالاً ودوقاً للاكوف بعد ان استولى على سيبستوبول ثم مات وهو والٍ على الجزائر) فأثرت هذه الوقائع في نفوس اعداء فرنسا وتراجعت القبائل الحاربة لها الى ما وراء مسافة ٨٠ كيلومتراً عن وهران ورحل بنو عامر الى جانب الوادي المالح ظانين انهم باتوا آمنين من وثبات دي لاموريسيير ومحاجاته لامتناعهم عليهِ وتعذر وصوله اليهم في يوم واحد وان ابطأ اكثر من يوم بلغهم اقباله فتحذروا من شره. ثم ما دروا الا وهو مندفع عليهم بغتة وذلك انهُ قد اعتاد ان يرسل كل يوم تابورين اوثلاثة الى مسافة معلومة صوب غربي وهران ليحصدوا حقول حلفا ويأتوا بالتبن لخيولهم وكانوا كل ليلة يعودون الى وهران ففي اليوم الـ ٢٦ من تشرين الثاني خرج لاموريسيير من وهران في جميع رجالهِ المشاة ومضى بهم لا يلوي على شيء قاصداً وجهة العدوّ ليلًا وكان في الليلة الثانية ان الجيش الفرنسوي وقع في اضطراب وخوف لادلهام الظلام الحالك وعدم معرفة المسالك

وبعد ان كانوا قاربوا الوصول الى العدو واخذه على غرة منهُ فرَّ اسيران من العرب واخبرا قبيلتهم فلاذت باكناف الهرب تحت جنح الدجى واستمرَّ لاموريسيير سائراً فوصل عند الساعة الثامنة صباحاً الى عبر النهر المالح فارسل الفرسان مع القائمقام مونتوبان لمطاردة العدو فوجدوه فاراً على مسافة بعيدة بعد ان نهبوا ثلةً من الضان عددها الف رأس وسبعمائة رأس من البقر . وهكذا تسنى للاموريسيير ان بطش بالعدو دفعتين جنوباً وغرباً ابعدتاه عن وهران ووسمتا حدود نفوذ فرنسا وجعلتا الجندي يفتخر بقائده ويستبشر من حسن مستقبله . ثم اراد دي لاموريسيير ان يوقع في الاعداء الذين في الجنوب الشرقي من وهران صوب مسقره حيث كان الامير نفسه ومعهُ نحو من ١٥ الف جندي وكانت قبيلة الغربيين تحصد الحقول على ضفتي السيك تاركة مواشيها في السهول اتكالاً على حماية مصطفى بن تامي صهر الامير الذي كان بينهم ومعهُ خمسة الاف مقاتل . فاستعدَّ لاموريسيير لمهاجمتهم بغتةً وابتدأ بالمسير في اليوم الـ ١٢ من كانون الثاني عام ١٨٤١ واتفق انهُ بينما الفرنسيس خارجون لمباغتة العدو في طريق معهود اذا بهم قد غادروا الماشية وانطلقوا في طريق آخر للايقاع بجاليي الفرنسيس فغنم لاموريسيير الماشية والغلال واحرق الحقول وذهب فتحصن عند مقام المرابط سيدي الاخضر . فرجع العدو من الغد ليدافع عن اموالهِ السائمة ويقطع على الفرنسيس خط الرجعة فانتصر عليهم دي لاموريسيير وقتل منهم خمسمائة فارس وقد تبين في ذلك اليوم شجاعة

اليوزباشي بوسكه ورباطة جاشه فقرّبهُ اليهِ وقدّمهُ وصار من اعز اصدقائه (وقد صار بعد ذلك ماريشالاً على اثر حرب القرم) ثم مرَّ عدة ايام فمضى لاموريسيير بجنوده حتى اذا طوى ١٨٠ كيلومترًا غار بهم على بني عامر بين مسقره وتلمسان فشتت شملهم ومزق جمعهم واستولى على غلالهم ومحصولاتهم فبهذه الغارات قوّى جنوده وعوّدهم ضيق عيش الحروب والنوم في البراري والتوغل في البلاد وهواء جبالها ووعورة مسالكها بيد انهُ مع اعتقاده بمنفعة هذه الغزوات كان عالمًا بانها ليست شيئًا بالنسبة الى ما بقي عليهِ عمله فلهذا كان يواصل طلب سرعة اكمال جيشه وارسال المدد المطلوب

وفي تلك السنة اي سنة ١٨٤١ لما رأى القائد العام (وهو الماريشال ڤالي اعراض الحكومة الملكية عن موافقة رأيه واجراء مراده استقال من وظيفتهِ حبًّا بالراحة فاقالهُ الملك وادال منهُ الجنرال بوجو حاكمًا عامًّا على الجزائر (وقد مرَّ ذكره معنا في موقعة سيكا ومعاهدة التفنا) فوصل الى الجزائر في يوم ال ٢٢ من شباط سنة ١٨٤١ وحصل من الملك على زيادة عدد الجنود في الجزائر الى مائة الف مقاتل . فذهب لاموريسيير الى الجزائر وخابره وعرض عليهِ ما نواه من الاجراءات في ولايتهِ وفي سائر المستعمرة وكان من الامور المقررة عنده ومما اثبتتهُ الحوادث الماضية ان لا خير ولا فائدة من تلك الغزوات الداعية الى ايغال فرقة او جيش من الجنود الفرنسويّة في اكباد البلاد قصد احدى مدنها او قلاعها وارجاع الجند من ثم الى حاضرة الجزائر او وهران بعد هدم تلك المدينة لان قبائل العرب كانت تتباعد عند اقبال الجنود ثم تعود حين رجوعها وتعاود المراكز التي كانت قد اخلتها وتجدد محاصرة الحامية الفرنسويّة المتبوئة تلك المدينة كما وقع في تلمسان وفي مديه ومليانه فكان من رأيه ان يزايل وهران بفرقته ويجعل مركز حكومة الولاية في مسقره بعد الاستيلاء عليها مبتعدًا عن حاضرة الجزائر زهاء ستين كيلومترًا ومقتربًا من حدود الصحراء مستحوذًا على اواسط البلاد واراضي قبيلة الامير عبد القادر وعلى طريق مواصلاته مع مراكش

واما الجنرال بوجو القائد العام فانه كان يفوق سائر اقرانه في حومة الوغى اجراء للحركات الفنية ولم يكن ليعرف شيئًا من امور الاستعمار والسياسة فقبل ما عرض عليهِ لاموريسيير راضيًا ان يتولى امر افتتاح مسقره بذاتهِ رغبةً منهُ في احداث وجه للمعارك ولكنهُ تخلى بعدئذٍ عن كل عهدة واعرض عن الاشتغال بتحصين مسقره وترميمها واكلًا كل ذلك الى لاموريسيير معالنًا بانهُ

لولا والي وهران ذهب انتصاره سدًى

وهنا يجدر بنا ان نذكر ما نشأ من الخلاف في الافكار والمبادىء والاعمال بين القائد العام بوجو وحاكم وهران دي لاموريسيير وهو الخلاف الذي زاد اتساعاً ونفوراً في السنين التالية . واما دي لاموريسيير فلم يسعهُ في شهامته وحبه لنجاح الجزائر الا متابعة آرائه واعماله بدون التفات الى منافسة رئيسه ومزاحمته اياه في النوبة الاولى راضياً ان يتركوا لهُ حرّية العمل في ولايتهِ . ونال آخر الامر الظفر بثباته اذ ان القائد العام قد اضطرَّ في مستأخر الحين ان يجري مأموراً في ولاية الجزائر التابعة لهُ رأساً ما كان دي لاموريسيير يجريه من لاصلاحات في وهران

الفصل الاول

﴿ مسقره . تيارت . وهران ١٨٤١ و١٨٤٢ و١٨٤٣ ﴾

ولما كانت مسقره قاعدة بلاد الامير عبد القادر استقرَّ رأي حاكم وهران ورئيسه عند ابتداء الحرب على اخذها عنوة وبما ان مدينة مستغانم (هي قصبة حكومة قائدها حينئذٍ وهو الجنرال بدو وخاضعة لولاية وهران كما مرَّ بك ذلك) هي اقرب اليها من وهران جعل لاموريسيير مدينة مستغانم مباءة ومعسكراً لبعث حملة مسقره فجمع فيها المؤن والذخائر اللازمة لجيش عدده خمسة عشر الف جندي معهم ثلاثة الاف حصان في مدة شهرين وذلك من خبز وكعك وارز وسكر وبن وشعير وكلاء . وبناء على تعديل انتقال الاحمال وعددها قرَّر وجوب إعداد الف بغل للبعث يقودها خمسمائة جندي لنقل اللوازم الجندية واخذ التعليمات الجغرافية اللازمة على خلافتي تلمسان ومسقره واستعان على ذلك باحد الجنود الذي كان اسير عبد القادر مرتين وفرَّ من السجن بعد بقائهِ فيهِ مدة طويلة وكان الامير خائفاً جداً من تلك الاستعدادات عارفاً بما وراءها فحصن مسقره واخذ بتحصين مدينة صيدا في جنوبي مسقره على مسافة ستين كيلومتراً منها ومدينة تجدمبت الكائنة على مسافة مائة كيلومتر من مسقره صوب الغرب وهكذا كان يهيىء المدن التي مزمع ان يتولاها بعد فقده المدن الاولى

ولما كانت القبائل القاطنة وراء صيدا وتجدمبت تبغض عبد القادر لحمد بينها وبين الهاشميين امر القائد الفرنسوي بارسال شرذمة من الجنود لهدم تحصينات صيدا وتجدمبت حين يكون القسم الاكبر من الجنود مهتماً بفتح مسقره . وفي ١٢ ايار سنة ١٨٤١ وصل بوجو الى مستغانم بعد ان مرَّ بمديه ومليانه وحصنهما وكان الدوق دي نيمور ثاني انجال الملك بقيادة لواء والامير الاي كاڤنياك ومعهُ تابورا الزواف. وفي ١٨ ايار سار الجيش الى تجدمبت متتبعاً ضفة المينا فبلغهـا في ٢٤ منه فوجدها محرقة بالنار وعلى خراباتها كلب وهرّ معلقان (مشنوقان) دلالة على تعادي الفرنج والعرب ولم يجد فيها الجيش احداً من الناس فاتمّ تدميرها ولم يبقِ منها حجراً على حجر ومن هنـاك ذهب الى مسقره فوصلهـا في ٣٠ ايار وهي على قنة عالية في وسط المسـافة بين حاضرة الجزائر والصحراء مستعليـة على ولاية وهران وسائر انهرها وطرقها فمنها كان يمكن لحائزها ان يهبط الى سهول مصب المينـا والهبرا والسيك او الصعود الى الجبال التي تبعد عنها نحو ٤٠ كيلومتراً او سلوك الاراضي الفاصلة تلك الجبال والمؤدية الى تلمسان . وفي اسفل قمة الجبل القائمة عليهِ مسقره سهل اغريس الخصيب وفيهِ مراعٍ وخيام لبني هاشم ومن حول المدينة كثير من الكروم والبساتين المملوءة عنباً وتيناً وزيتوناً . فلما وصل اليها الفرنسيون الفوها خالية على عروشها كما وجدوا تجدمبت وبدل ان يهدموها ويحرقوها وضع القائد العام فيهـا آلاياً كاملاً وهو الخامس عشر الذي كان اشتهر في مستغانم وتابوراً من الالاي الحادي والاربعين وعهد بولايتها وقيادة حاميتها الى القائمقام جري ومنها عاد القائد العام الى مستغانم في طلب المؤن والذخائر الكافية لحاميتها ولما فرغ من اعدادها رجع وفي اثناء رجوعه التقاه في الطريق عند مضيق «عبد القدار» اربعة الاف فارس يقودهم الامير بنفسهِ فهزمهُ الفرنسيون وفيها اشتهر دي لامورسيير بعمل عُرف بعد وفاته فانهُ انقذ الاونباشي روّفول من ايدي العرب وحمله على جواده ولم يتركهُ الا بعد ان صار في مأمن من العدو

وفي ٧ حزيران جاء القائد العام ولامورسيير بالميرة والذخيرة الى مسقره فوجدوا الحامية آخذة في تجديد المدينة وبناء ثكنة وتشييد ابنية كافية لها ولاكثر منها من الجند. فاذن لامورسيير لسائر الجيش ان يشنّ الغـارة على حاصلات بني هاشم واعتنى في تقسيم القلعة وتخصيص امكنة موافقة للجنود والمرضى وعمل اصطبلات واختط اراضٍ للحدائق والبسـاتين وزرعها بطاطة وجمع اربعمائة ثور للسرقين و٤٢ بقرة لهُ وللحليب وكثير من الخنازير والماعز والدجاج

واعدّ اربعمائة فراش لمرضى الجنود في الثكنة وخصص لهم مـا يلزم من الادوات والادوية والعقاقير وغيرها وامر بتنظيف المدينة وتحسينها وفتح فيها قنوات ومجاري للمياه ومسارب للاقذار ومهد طرق جديدة واسعة وألّف لجنة دائمة ادارية النظر في املاك المدينة وعمارتها . ومع كل هذا لمّا لم يجد بوجو فرصة واقعة كبيرة سخط على لاموريسيير ساخرًا باعماله وغادره قاطبًا غاضبًا وسافر راجعًا الى مستغانم في ٢٧ حزيران . ثم أُصيب لاموريسيير بمرض وصار الى حال الخطر فخيف على حياته مدة اربعة ايام امكن في رابعها ان تحامل على نفسه فركب جواده وعاد الى وهران والآلام تتنازعه وحسب المهام تتعاظمه وحين وصوله اتاه البريد من فرنسا ينعى اليه والدته المحبوبة الحنونة وقد كانت مبعث عواطف فخره ومصدر مقاطف نصره ومرجع مكاشفاته فلاحًا واقبالاً فدخل سرادقه وبكى عدة ساعات بكاء مرًّا ولم يجسر احد على الدخول عليهِ معزيًا . فما اسعد من لم يفقد امه ولم يذق مرارة هذا الخطب . وقضى سائر عمره كئيبًا لا يجد وجهًا للتأسي والعزاء عنها لاسيما انهُ لم يُتح لهُ ان ينظرها النظرة الاخيرة قبل وفاتها ولمّا عاد بعد خمس سنين الى « نانت » ولج غرفة امه وبكى كثيرًا واستمر من حين موتها الى ان لحق بها يتعارٌ من نومه مخاطبًا اياها باسمها خطاب ابن امه لآخر مرة في هذه الحيوة الدنيا . وكان قد تعود ان يجعل خاتمة رسائله الى فرنسا في كل بريد برقيم الى والدته

فحدث ذات مرة انهُ فعل حسب عادته وانشأ يكتب الى امه ذاهلًا عن المصاب بها ثم ثاب اليهِ روعه فرمى بالقلم بعيدًا عنهُ واغرورقت عيناه فبكى ساعات طويلة . ثم مرّت بهِ ايام أُخر تغلب في غضونها على احزان البلية بان تناساها وعاود اعماله الخطيرة فرجع الى مسقره وخرج مع الحامية فاخذ محصولات القبائل الموالية للامير برأى منه وعلى حدق قومهِ حتى انهُ بلغ ما ادخره هناك مبلغًا يكفي الحامية مؤنة سبعة اشهر . ثم غادرها وعاد الى وهران مارًّا بمستغانم بعد ان ردَّ هجمات الامير وفرسانه البالغين ثمانية الاف فارس وكانت الاحوال حسنة جدًّا في وهران وجوارها واتت قبيلة « المدجر » الى حاكم مستغانم ودانت لفرنسا ورهنت عددًا من بنيها رهنًا باستسلامها واخذ رئيسها علامات القيادة من والي وهران وكتب هذا « اي لاموريسيير » الى صديقهِ القديم المرابط وهو « سيدي مبارك » يعرض عليهِ الخضوع لفرنسا قائلًا لهُ :

« لا تأمركم ديانتكم بان تكونوا مصابًا على من اتّبع احكامكم وانتم تعلمون انهُ جاء في

الكتاب ان التسليم يجوز لمن يكون قد فرَّ ثلاث مرار ناقلًا خيامه . فكم من مرة قد انهزمتم امامنا وانتم مقوّضين خيامكم راحلين . فسلّموا ولاسيما واننا لا نسومكم ان تحولوا عن دينكم وتتخذوا بهِ بديلًا ولكن ان تدعوا عبد القـادر الذي غرَّكم »

هذا ما يدل على انقلاب الافكار والامور اذ ان سيدي مبارك نفسه كان قد عرض نفس الامر عكسًا على لاموريسيير سنة ١٨٣٩ واخذ العرب يتطوعون في جندية فرنسا فألَّف اليوزباشي بوسكه ووالسين في مستغـانم تابورًا وطنيًّا من المشاة واخر من الفرسان .

وفي ايلول كتب لاموريسيير الى بوجو يستقدمهُ في ثلاثة توابير الى مستغـانم مواثقًا على سوق تجريدتين على اراضي الامير واخضاع نصف قبائله ومنهم بني هاشم فرضي بوجو بذلك وبعد ان فتح « بوغار وتازا » (وهما مدينتان صغيرتان في ولاية حاضرة الجزائر) جاء الى مستغانم في ١٩ ايلول وفي ٢٣ منهُ انقسم الجيش الى قسمين احدهما بامرة دي لاموريسيير وهو الذي سار مرتين متواليتين الى مسقره لاتمام معداتها وذخائرها والآخر بقيادة بوجو الحاكم العام اما المرة الثانية التي ذهب فيها لاموريسيير الى مسقره مستصحبًا عجلات النقـل وكثير من البغال الحاملة انواع الذخائر والمؤن كانت علة لقائه عساكر الامير عند حضيض جبال البرج وهو اي الامير يقودهم بنفسـهِ فألحَّ بعض ضبَّاط جنود لاموريسيير عليـهِ باختراق صفوف العدو وادراك فخر الانتصار على العدو ولكنهُ لم ينصع اليهم بل آثر التجلد والتأني انتظارًا لوصول القسم الآخر من الجيش خوفًا من تعريض الذخائر والمؤن للوقوع في ايدي العدو

اما القائد العام فبدل ان يقدّر هذا العمل حق قدرهِ مع ما فيهِ من الحكمة عدا ما لمرؤوسيه عليـهِ من الاتكال انتهزها فرصة لاشاعة امور شتى في شأنهِ تدل على جبنه وقلة حوله . وبعد وصول القائد العام حدثت معركة هائلة كان الظفر فيهـا للفرنسيس وقد ضايق عرب الامير حامية مسقره وهم اذ ذاك بامرة امير الالاي « جري » ثم فوّت جموع الامير وهو في جملتهم واوغلوا في داخليـة البلاد قبل ان يتمكن الفرنسيس من حصره في جهة مخصوصة فذهب القائد العام وقسم من جيشـهِ الى صيدا « وهي مدينة صغيرة كان عبد القادر قد بدأ بتحصينها موقعها في داخلية بلاد وهران الى الجنوب من مسقره والى شرقي دايا » فوجدوها محرقة مهجورة فدمروا قلعتها وتركوها قاعًا صفصفًا . ومنهـا عادوا الى مسقره ثم الى « مستغانم » بعد ان لاقوا بعض مناوشات مع

فرسان الامير ولم يدرك الفرنسيس اقل نتيجة من التجريدة واستمرت قبائل العرب على ما كانت عليه خوفاً من رجوع الامير وقد اجاب احد شيوخهم قائداً افرنسياً يعرض عليه التسليم لفرنسا بما يأتي : « انتم تحبون الخيل ذوات الاذناب القصيرة فعليكم ان تنتظروا حتى تنتج اناث خيلنا مهارى من هذا النوع فنجيئكم بها تقدمة تؤذن بالتسليم » ولكن دي لامور يسيير لم يكن ليقنط من الفوز والفلاح فعاد في تلك السنة عينها الى مسقره واقام بهامدة الشتاء في ثمانية توابير من الجند المشاة ومئة وخمسين من الفرسان السباهية ومعهم طائفة (بطارية) من مدافع الجبال . ولما لم يجد فيها ما يكفيه ويكفي جنوده من الذخائر والمؤون عزم على نهب العدو فبدأ بالهاشميين الشرقيين فزحف عليهم خامس كانون الاول ورزاءهم كثيراً بان نهب محصولاتهم واحرق حقولهم وقتل منهم واسر عدداً عظيماً حتى الجأهم الى التسليم . وكان دي لامور يسيير اذ ذاك قد انفذ الاوامر اللازمة الى مصطفى ابن اسميل في وهران والى الجنرال بدو في مستغانم فخرج كل منهما من مدينته واحرقا ونهبا حقول القبائل فادرك دي لامور يسيير في شتاء عام ١٨٤١ نتيجتين مهمتين احداهما تدويخ معظم بني هاشم وطرد باقيهم والاخرى توطيد سلطة الفرنسويين ما بين مسقره ووهران ومستغانم وترتيب المخابرات بين هذه المدن الثلاث

وفي ١٩ كانون الاول اخذ لامور يسيير بني شقران بغتة في محلة « سيدي داهو » فاضطرهم وجيرانهم « البرجيين » الى الخضوع والتسليم وتابعهم على ذلك بنو هاشم الغربيون ثم طفقوا يغشون كل يوم ساحات مسقره ومستغانم فيبيعون السلع والخضروات والحبوب من الفرنسيس . وجرت المواصلات بين هذه المدن الثلاث مجاريها المألوفة المتعارفة خلواً من خوف واضطراب . فقوي بذلك حول اعداء الامير عبد القادر ونهض مناوئوه لمقاومته فكان منهم عند مصب الشالف الاسفل « سيدي لاريبي » فانه جعل رجاله يطالب الامير بدم ابيه القتيل صبراً في سجونه وظهر ضده غيره كثيرون حتى كان في جملة من تظاهر بمناوأته عند القبائل على حدود سلطنة مراكش رجل ادّعى انهُ مرسل من لدن الله لقهر عبد القادر وتقليص ظل ولايته فاستبشر « بوجو » بهذه النتائج واقبل على ولاية وهران مستصحباً في الفي رجل من جنود حاضرة الجزائر وفي كانون الثاني سنة ١٨٤٢ انطلق بلا مور يسيير ورجاله الى تلمسان وفتحها وجعل فيها حامية كافية بقيادة الجنرال بدو ومنها ذهب الى الجنوب الغربي فهدم قلعة « سبدو » وهي التي كان قد شيدها الامير لتكون معصيدا

« وتدجمبت » خط مستحكماته الجديدة

وكانت تلمسان اخر مدينة عظيمة في ولاية وهران باقية في يد عبد القادر. وقد سُلمت قيادة حاميتها الى الجنرال « بدو » وخلف هذا على قيادة حامية مستغانم الجنرال دي « اربوفيل » وكلاهما في رتبة امير لواء وصد يقادي لامور يسيير وقد اديا لهُ خدماً جزيلة وساعداه احسن المساعدات مدة مكثهما في هذين المركزين بامرته وكانا يحبانه محبةً صادقة ويعترفان لهُ بعلو المدارك مخلصين القصد والنية في طاعته لا يخامرهما حسد او منافسة مع انهُ كان وقتئذٍ مساويًا لهما في رتبتهِ الجندية لا يعلوهما مقامًا وقد اتفق « دي اربوفيل » « وسيدي لاريبي »وجهزا عددًا عظيماً من رجال العرب لمقاومة عبد القادر

و بعدذلك خرج دي لامور يسيير من مسقره وغشي اراضي مصب « المينا » وفتحها وغزا قبيلة « سدامش »مباغتاً في وسط فصل الشتاء ابَّان الثلوج والامطار وما زال بها حتى قهرها فدانت لهُ ولم يكن عنده ريب في خضوعها فرجع الى مسقره بعد مغادرتها بخمسة عشر يوماً . وفي اول ايار سنة ١٨٤٢ خرج دي لامور يسيير في اربعة الاف جندي وغزا اراضي « الفليتــا » حتى اذا غلب اهليها في عدة وقائع سالت فيها الدماء بلغ في الـ ٢٣ منهُ الى « تجدمبت » وكان قد جدد مبانيها واتخذها مقرًا لاسرته وفرسانه فاضطروا عند اقبال القائد المشار اليهِ الى الجلاء عنها هاربين خوفًا منهُ فحصنها واحلَّ فيها حامية يقودها الجنرال « تمبور » وجعل هو يقتص آثار اسرة الامير عبد القادر وفرسانه فلم يدركهم وقد انتهى الى قمم جبال سرسو العالية صوب الشرق ثم رجع الى تجدمبت ولبث بها اياماً طويلة يدوّخ جميع القبائل المجاورة وخصوصاً قبائل اليعقوبية وهي الساكنة السهول واصلح ذات البين بين قبيلة واخرى منها حتى الف كلمتهم على الطاعة واقام عليهم رؤساء معينين من قبله بعد ان استوثق منهم بحلف اليمين والعهود على التناصر فيما بينهم لقهر رجال الامير . وبعد ان استولى على معمل سلاح الامير عزم على العودة الى مسقره في الـ ٣١ من ايار تلك السنة ولما بلغهُ خروج الامير عبد القادر من حدود مراكش واجتيازه أطلال صيدا واستنفاره قبيلة الهاشمين الغربيين وهجومه بهم على سهول اغريس ثارت نفوس الفرسان العرب الذين في خدمة لاموريسيير خوفًا على عيالهم من العدو المقبل فسكن القائد روعهم ولم يعبأ بهجوم الامير بل استمرَّ مواصلًا السير نحو الجنوب . وفي تلك المرة كان مصطفى بن اسماعيل قد قدم من وهران بالف مقاتل

لمظاهرة حامية مسقره وعلم الامير بذلك وكان دائم القلق من رجوع القائد دي لاموريسيير فيصبح بين عدوين فاسرع في الهرب الى الشرق اما قائد حامية مسقره فقد خلف خمسمائة مقاتل برئاسة اليوزباشي بوسكه لاخضاع من ثار من العرب في جوار مسقره. واستمرّ دي لاموريسيير سائرًا الى الجنوب متأثرًا من كان قد اتبع اعلام الامير حتى وصل عين صفد التي على مسافة ٤٠ كيلومترًا من صيدا الى الجنوب في سهل اجرد خالٍ من نقاط الكلاء والنبات وحصر قبيلتي الهاشميين وبني «جفر» بين جنوده والبحيرة المدعوة الشط الشرقي فلبثوا محصورين مدة خمسة ايام وهم طامعون بذهاب صبر الفرنسيس في اليوم السادس خرج بنو جفر وسلموا انفسهم اليهِ منقادين لهُ فاعطاهم الامان ورجعوا الى سهولهم واما بنو هاشم فانهم اجتازوا البحيرة وحاولوا الفرار الى ما وراءها ولكن طلع عليهم الاعداء وسلبوهم اشياءهم فضاقت عليهم ابواب المعيشة هناك فلم يصبروا على الضنك فعادوا بعد قليل من الزمن مستسلمين للفرنسيس . ولما ان فرغ لاموريسيير من ادارة هاتيك المستعمرة الجديدة وتصريف امور القبائل واطمأن باله من جهة تلمسان وغربي الولاية رجع الى مسقره فعلم ان الامير عبد القادر حاول في غيبتهِ غزو بني شفران والبرجيين فالتقوه بالرصاص ولحق بهِ اليوزباشي بوسكه يطارده ويناوش رجاله القتال وكان الجنرال دي اربوفيل مخيمًا على مصبّ المينا ومعهُ كوكبة من الفرسان فتحصن دي لاموريسيير برجالهِ في معسكر فورتاسه على ضفة المينا مستشرفًا من ثم على جميع اعمال الاعداء وحركات قواده لمظاهرتهم عند الضرورة

وفي ذلك الوقت كان الهاشميون راجعين من هربهم ليعيشوا بطمأنينة في سهل اغريس تحت حماية الاعلام الفرنسويّة وعددهم ستة الاف رجل فالتقاهم الامير عبد القادر في ٢٥ حزيران املًا بتثبيطهم وخاطبهم عارضًا عليهم الرجوع معهُ فاجابهُ رئيسهم قائلًا :

« دعنا وشأننا يامرابط فلم نتبعك. نعم يمكنك ان تقتلني ان شئت ولكن ينبغي لك الاستبصار في الامر — اذهب ودعنا فقد كفانا ما تجشمنا من البلايا الجسيمة لاجلك — امضِ عنا وليرشدك الله تعالى »

وفي شهر تموز غادر لاموريسيير معسكره وامر دي اربوفيل بموافاتهِ من جهة ثانية ليحصرا الامير بين رجالهما ففرّ الامير الى الجنوب فجدّ في اثره فلجأ الى قرية جوجيلا وهناك ما يشبه ان يكون سورًا على جبال سرسو الشاهقة ومن ورائها صحراء الجزائر فاقدم لاموريسيير على مطاردة

رجالهِ وقد استمال اليهِ قبيلة بني عرار القوية فوصل في ١٢ تموز الى قمم هاتيك الجبال وفي ١٤ منهُ دخل جوجيلا فابصر من مطلها القبائل المعادية منهزمة في وادي «تجوين» وكان اذ ذاك هامد الجوانب ليس فيهِ الاَّ الهشيم فشنّ الغارة هناك واحرق الحقول ونهب الاسلحة والصوف والمحصولات وعاد الى مستقره بعد ان كان قد قضى ٣٦ يوماً في البراري وعسكره يرقد في الخيام وبعد اجتيازه مسافة تزيد على خمسمائة كيلومتر وقد اضحت جنوده حفاة فاعتاضوا عن الاحذية الافرنجية بجلود البقر مخصوفة على ارجلهم واعوزتهم الميرة لنفاد الذخيرة فاقتاتوا بجب زرع محاربيهم عدا انهم مع ما كانوا قد عانوه من المشاق والاهوال قد دخلوا في وسط الصيف يصلون نار هواجره في الفيافي والقفار وكان من حسن التوفيق انهم على شدة التعب والسغب لم يصب احدهم ردى او آفة مهلكة كانت هذه العاقبة الحسنة باكورة مظاهر توفيق البعث الفرنسوي في الجزائر وانما هي ثمرة سداد تدبير لاموريسيير واعماله وحكمته وقد قال هو نفسه عن رجالهِ ما معناه :

« ان رجلاً صحبني ثلاثة اشهر في الخدمة لا يتقي العناء لانهُ صار حليف التعب أليف الجهد لا يحيك فيهِ شيئاً »

وقال بوجو القائد العام وهو يخاطب لاموريسيير وعساكره ما مغزاه :

« نحن كنا نتشبه بجنود الرومانيين اما انتم فقد فقتموهم بما اتيتم من الاعمال ولاقيتم من الاهوال آونة طويلة »

وكانت تلك السنة اي سنة ١٨٤٢ اعظم السنين واكثرها نتائج حسنة واوفرها عواقب حميدة على الفرنسيس ومع ذلك فقد جرى في خريف عامئذٍ عدة وقائع وحملات فان لاموريسيير بينما هو وجيوشه في طمأنينة يأخذون قسطهم من الراحة اذ بلغهم اقبال الامير عبد القادر زاحفاً على ضواحي تجدمبت وشنه الغارة على فرنده والقاؤه الرعب في قبيلة سدامس واستنفاره قبيلة فليتاس فانفذ لاموريسيير الاوامر الكافية الى اربوفيل يستقدمهُ الى ارض هذه القبيلة الاخيرة وانطلق هو بنفسهِ في ١٥ آب الى تجدمبت فوصلها في ٢٧ منه بعد ما حضّ القبائل وسلحهم واستجاشهم على قتال الامير ومناوأتهِ فوجدها خالية عن الميرة والذخيرة فاضطر ان يعود الى مستقره ومن ذاك اليوم عزم على تشييد معقل قريب من تجدمبت حتى اذا استراح ثلاثة ايام في مستقره عاد الى تجدمبت مستصحباً رجال القبائل الداخلة في طاعتهِ وكاشفهم بعزمهِ على الشخوص الى قنن جبال

« سرسو » لاستئناف مطاردة الامير وذويه ومضايقتهم في منقلبها فلا يجدون بدًّا من الفرار الى الموامي والقفار او الى التسليم

وفيما هو في الطريق بلغهُ ان الامير يحاول تجديد ما اتاه في فصل الربيع وهو غزو بني شقران والبرجيين فلم يتريث لاموريسيير عن اتمام عمله بل جمع رجال القبيلتين واوجب عليهم المدافعة عن اراضيهم وانهُ هو لا ينجدهم ولكنهُ يقتصُّ ممن يظهر اقلّ ضعف او جبن او خيانة . ثم اوغل في مجاهل تلك الارض ومضلَّاتها متعقباً اسرة الامير واحلافه وكانوا نيفاً عن ثلاثين الف نفس . وفي ٢٤ ايلول وصل الى قمم الجبال ومنها توجه نحو الجنوب الشرقي وعجل المسير حتى ان عسكره كان يجتاز مسافة اربعين كيلومترًا كل يوم في قفار لا ماء فيها ولا ظل يقيهم حرّ الشمس وما زال حتى انتهى الى تجوين في حدود ولايتي حاضرة الجزائر ووهران وهي على مسافة ٢٤٠ كيلومترًا من مسقره الى الجنوب الشرقي مشيدة على اثار مدينة رومانية تُعرف باسم « كستلوم مديانوم » اي القلعة الوسطى كل ذلك ولم يستطع ادراك اسرة الامير وذويه اذ انهم داوموا الفرار جنوباً لا يلوون على شيء وللجوع وللتعب فيهم عوامل فعقد العزم على استئناف مطاردتهم في السنة التالية الى حيث كان مصيرهم فيفلح بيمن طالع قدوم الدوق دومال آتياً من ولاية الجزائر . ورجع اي لاموريسيير الى مسقره بعد ان اباح لبني عرار محالفيه ان ينهبوا اراضي قبيلة فليتاس التي كانت مصرة على مظاهرة الامير عبد القادر وجاء هو برجالهِ لمعاونتهم على نهب محصولات الاعداء وفيما هم يكتسحون تلك الحقول اذا بالامير عبد القادر مقبل عليهم لشنّ الغارة على ارض العرار فارتدَّ اليهِ لاموريسيير وكان بينهما معركة هائلة دارت فيها الدوائر على الامير وكاد يقع اسيرًا في ايدي الفرنسيس لولا انهُ فرَّ تاركاً خاتمه الرسمي وساعته وجواده الكريم وكان قد اهداه لهُ سلطان مراكش فاسر الفرنسيس من رجالهِ ٢٣٠ فارساً وغنم بنو عرار اربعين الف كيل من الحبوب وبمساعدتهم استطاع لاموريسيير سدّ مداخل تلك الاراضي في وجه الامير . ولكن عظم اقدام دي لاموريسيير ومجاهدته وكثرة الوسائل التي كانت متيسرة لهُ وفوزه الغريب كل ذلك لم يكن ليقلل شيئاً من اقدام الامير وعزمه واعماله بل انهُ كان لا يلبث بعد انهزامه ان يجدد الغارة ويعيد الكرة في وسط الارض التي اجتازها منهزماً متراجعاً الى القبائل على حين كانوا لا يطمعون بعودته اليهم ومن غريب امره انهُ كان يظهر في جهة ومحاربوه يرقبونه في جهة اخرى

اما دي لاموريسيير فاشار الى الجنرال جنتيل حاكم مستغانم ان يصعد في اراضي مصبّ المينا احداقًا باراضي قبيلة فليتاس وخرج هو من مسقره وانطبق على جانب كبير من تلك القبيلة وحصرهم بينهِ وبين رجال جنتيل ثامن كانون الاول فوعدوا بالتسليم وفي الليل حاولوا الفرار فلحقهم لاموريسيير مع قلة عدد رجاله وحصرهم وكانوا اكثر من سبعة الاف نفس ومعهم الف خيمة ومواشي لا تُعدّ ولا تحصى فاستسلموا خاضعين فلم يأخذ منهم دي لاموريسيير سوى عشرين جوادًا ومائة ثور وخمسمائة شاة فعرف رئيسهم هذا الصنيع ولم ينسه واستمرّ منذ ذلك اليوم امينًا صادقًا في خدمة الفرنسيس مع كثرة الاخطار التي حفت برجالهِ بعدئذٍ ثم عاد دي لاموريسيير من ثم الى جهة مسقره فاتاه ان القائد العام يتولى عدة اعمال وتجريدة في ولاية الجزائر على حدود خطتهِ فلاح امل من جهتهِ في انهُ يصيب قسمًا من الاعداء فنجح نجاحًا عظيمًا حتى انهُ كاد ان يلقي القبض على الامير نفسه الذي فرّ ببعض رجالهِ. اما عائلته فاستمرت منهزمة الى الجنوب في جهة جوجيلا

وهكذا انتهت اعمال سنة ١٨٤٢ ولها نتائج جليلة اذ اصبحت ولاية وهران خاضعة برمتها تقريبًا لحكومة فرنسا وكان قد قضى لاموريسيير ورجاله ثلاثمائة يوم في البراري والخيام ولم يصبهم مرض او اذى بالكلية. وقد قسم دي لاموريسيير ولاية وهران الى اربع مقاطعات وهي مقاطعة وهران وتلمسان ومسقره ومستغانم فولّى على تلمسان الجنرال بدو وعلى مستغانم دي اربوفيل ومن بعده الجنرال جنتيل وعلى مسقره امير الالاي جرى ووسد شؤون مقاطعة وهران الى صديقه « دي مارغبري» القائمقام . والقى مقاليد المكاتب العربية في تلمسان الى الوالي نفسه وفي مسقره الى اليوزباشي « شرّاس » وكان هذا من الضباط ذوي الخبرة والدراية مشطاً في آرائه الاشتراكية ولذا لم يتقدم مع شدة اقدامه وحذقه) وفي مستغانم الى اليوزباشي بوسكه وجميعهم من رجال فرنسا الذين اشتهروا بعد حين حربًا وسياسة وكان لهم شأن كبير وذكر خطير في التاريخ يعلم ذلك من تتبع سير الامور في مدة الجمهورية الثانية وامبراطورية نابوليون الثالث وكان قد جمع دي لاموريسيير في وهران الى اركان حربه اشهر واعظم ضباط الجزائر وكانوا كلهم متفانين في خدمته متعلقين بهِ يؤثرونا لمكث معه مع معاودة الجزائر مع ما لهم من مزيد الامل في التقدم هناك . ومنهم « بليسيار » « ودي كرني » و « دي لاكيش » و « دي سنفيل » و « ودبليار » و « جراس » و « تروشي » وغيرهم ممن ملاء ذكرهم صفحات التواريخ وحازوا من الشهرة اقصاها

وكلهم استمروا حتى الموت يرتلون آيات الشكر لقائدهم المحبوب باسطين له ايدي المساعدة في ابّان نكباته. ولكن مظاهر اقباله ونجاحه قولاً وعملاً كانت باعثاً على مزيد التواجد والتباعد بينه وبين حسوده القائد العام بوجو اذ كان يريد الاستبداد بالرأي والكلمة والنفوذ ولا يرى فوزاً في غير تكثير عدد الجنود واستئصال شأفة السكان الاصليين وحرمانهم من نعمة الامان . اما دي لاموريسيير فكان يؤثر تحضير القبائل وتمصيرهم اثر الانتصارات ويدرّجهم في النظام واضعاً لهم قوانين جديدة يسلكون بموجب احكامها مع استبقاء شرائعهم وعاداتهم وشعائرهم المذهبية وجعل في كل بلد مأموراً لقبهُ « باش‌اغا » ولكلّ قبيلة رئيساً لقبه آغا وخط لهم ارضاً خاصة يحرثونها ويزرعونها ويقيمون بها واظهر الرغبة في غشيان الاوربيين بلاد الجزائر قصد استعمارها باستعمال الاراضي الاميرية التي كان يتخلى لهم عنها بوجه الالتزام . وما كان ليهمل العناية في أهب الحرب ومقتضياتها فكان يسعى لتقريب المواصلات بين ولايتهِ وولاية الجزائر وانشاء مواطن القتال ومرابطة الثغور على حدود الولايتين بتشييد القلاع والحصون هناك ليسهل عليهِ تدويخ اهالي الجبال الفاصلة بين تينك الولايتين . ومما كتب بتاريخ خامس كانون الاول سنة ١٨٤٢ الى القائد العام:

« ان استيلائي التام على مسقره ثم على تلمسان هو الذي مهد لي الدخول الى وسط الولاية وتملكها وسهل نجاح المساعي والاعمال في قليل من الزمن حتى ان ما قد حصل من ذلك على قصر المدة لم يحصل في مدى العشر السنوات الاولى كلها . وانما الفضل لحسن التدبير وسداد الرأي لان العرب باتوا كل حين محاطين بحركات توابير عساكرنا فلم يبقَ لهم الاّ الخضوع او الجلاء . فهذه النتائج قد تسنّت لنا في غربي الولاية التي يبدي على ان جانبها الشرقي لم يزل خالياً عن مركز حربي مهم وامصاره بعيدة جداً عن مدن ولاية الجزائر لان بين مسقره ومديه مسافة ٢٩٠ كيلومتراً ولهذا لم تفلح مساعينا في اخضاع قبائل حدود الولايتين فسرُّ الامر وكنه الشأن مرجعه اتخاذ متبوإٍ في مسافة متوسطة بين مستغانم ومسقره من جهة وهران و بين مديه ومليانه من جهة الجزائر يكون نقطة الملتقى والاجتماع للعساكر الحاملة على قبائل العرب بعد مسيرة ثلاثة ايام وذلك لازم في اقرب وقت ممكن بحيث يتم انشاء هذه المباءة الحصينة قبل فصل الربيع ونصبح مداراً لحركاتنا الحربية في مستقبل الحين . وقد نحا هذا النحو الامير عبد القادر ووجه اليهِ عنايته يوم حصن مرابطة « تجدمبت »

— وكثيراً ما ذكرت هذه المرابطة — لانها هي وحدها خط وصول قبائل الصحراء الى سهول التل

لتناول الاقوات الضرورية من الحبوب والقطاني . بيدَ أن وجود « تجدمبت » في غور وادٍ عميق لا يعادله موقع مدينة « تيارت » — وهي مدينة رومانية قديمة كثيرة المياه والموّاد اللازمة للبناء محاطة بالسهول المخصبة والاراضي القابلة للحراثة والزراعة — ومن ثم فاني اسألكم ان تأذنوا لي في تحصين هذا الموقع الحربي في بدء اذار سنة ١٨٤٣ وهذا الامر لا يعوقني مطلقاً عن سائر اعمالي . ويجب ان يكون في تيارت من المؤن ما يكفي اربعة الاف جندي مدة ثمانية اشهر ومستشفى لمئتين وخمسين جندياً وثكنة تسع ستمائة جندي واصطبل مئة جواد ومكان يسع فرقة كاملة في فصل الشتاء ان دعت الحاجة ان أكون هناك وبهذه الواسطة لا نضطر ان نأتي مسقره سوى مرّة واحدة في السنة وهذا ما يزيد وقت هجومنا على العرب اذ يعودون غير متكلين على غيابنا مدة طويلة وترددنا كثيراً الى مسقره فاننا اضعنا في السنة المنقضية اكثر من شهرين بين الذهاب اليها والعودة منها . وما اجدرنا بتشييد سور حول « تيارت » دون ان نحتفر الخنادق والمتاريس » ولما وقف القائد العام على هذا الرأي اذعن له ووافق عليه واشار الى دي لاموريسيير ان يختاط مكاناً بساحل البحر المتوسط موقعهُ وسط المسافة بين شرشل (في ولاية الجزائر) ومستغانم (في ولاية وهران) فاختار اي دي لاموريسيير ارضاً موافقة جداً واختط فيها مدينة «تنز» وقضاها صالحة ان تكون بلدة بحريّة مسامتة لمدينة تيارت ولما كانت كلتا المدينتين متباعدتين احداهما عن الاخرى اتخذ دي لاموريسيير بينهما محلاً وسطاً في الطول وبين مسقره ومليانه في العرض وبني هناك مدينة دُعيت « اورليانسفيل » اي مدينة اورليان نسبة الى اسرة الملك . وهذه المدن الثلاث اي تنز واورليانسفيل وتيارت واقعة كلها في الدرجة الاولى من الطول الغربي . واولاهما وثانيتهما في ولاية الجزائر اما الثالثة فهي في ولاية وهران . ثم ان القائد العام لم تخله موافقته على هذه المنشآت من اتهام نفسه واتهام دي لاموريسيير بقلة سداد التدبير فبات واجماً من جرّاء ترك القبض على الامير عبد القادر ناقماً على جرائد فرنسا تهافتها في تعقب اعمال بوجو ومداومة التنديد به لجهل ذويها حقائق احوال الجزائر ولذا ما تمالك ان كتب الى دي لاموريسيير يحثهُ على اعتقال الامير المشار اليهِ او اسر اسرته واعوانها فاجابهُ بقوله « لا يمكن املك قوياً في درك هذه البغية اللهمّ اذا حدث ما لم يكن في الحسبان » ومع ذلك فاني قد امرت بني عرار ان يطاردوا عترة الامير ونصراءها وعقدت العزم على اقتصاص اثرها حتى عين صفد كما فعلت من قبل . وسيلنا

الان التوفر على طرد العدو من الحقول ذات الريع والخصب والزامه المكث في الموامي والقفار وينبغي ان نتئد في السير ولا يغلب علينا الطمع في قهر العدو بيوم واحد فيلزمنا ان نتخذ التجلد والصبر عوناً ورفيقاً فنصير الى غاية يتصل بخاتمتها ادراك المروم وهو توطيد سلطة فرنسا في هذه الاصقاع الانيقة ومن ثم فان صنيعنا يكون عظيماً . ولا اكتم من نفسي اني كنت في الثلاث عشرة سنة التي قضيتها في افريقية حليف اليأس والقنوط محفوفاً باشد مما تشكو من المكاره والعراقيل . ولكن اليوم قد حسنت « والحمد لله » احوالنا وصرنا الى غاية الاقبال وانما ذلك ثمرة التفكير في عواقب اعمالنا ونتائج مساعينا مع الاعراض عمّا يقولهُ الناس وقلة المبالاة بصعاب الامور . وفي الحال بدأ دي لاموريسيير باتمام الامر المهم الذي ذكرناه وهو تحصين المراكز الثلاثة السابق الايماء اليها وفتح الطرق اللازمة بين كل منها ومن مسقره ومليانه وشرشل ومستغانم فتوجه الجنرال « شانكارنيه » ببعض فرق الجند الى مكان يقرب من « تنز » استطلاعاً للاحوال فانتهز الامير ايام الشتاء فرصة وخرج في شهر شباط سنة ١٨٤٣ على قبائلها وهاجمها ناهباً وكان دي لاموريسيير قاعداً لهُ بالمرصاد فاراد طلبه وادراكه وأمر ببناء جسر عظيم فوق نهر الشالف لا يمنعهُ اشتداد الشتاء فبني وعبر عليهِ النهر المذكور برجالهِ وما زال حتى ادرك الامير عبد القادر وايقن بوقوعه في خطر أن تحدق بهِ عدة كتائب آتية من وهران والجزائر قصد الاحتشاد في تيارت فعزم ان يفرّ من ذلك الموقف ويهجم على غربي ولاية وهران حيث كانت الجنود قليلة فتخوف « بدو » في تلمسان من ذلك وكتب الى دي لامور يسيير مستنجداً فاجابه بما سكن روعه وخفف من خوفه معتذراً لهُ بعدم استطاعته المسارعة في انجاده وامداده اذ انهُ لا يجد بدّاً من تحصين مركز تيارت وبعد ان اتمّ استعداداته في محلّة « سيدي جلال ابن عمار » فتح طريق تيارت ووصل اليها في ٢٣ نيسان سنة ١٨٤٣ . ولم يثبّطه علمه بان الامير عبد القادر قد جاء كالعام الماضي الى سهل اغريس لينهب بني هاشم ومنها هجم على المصب الاعلى من مصبّ المينا وحاول قطع المصاولات بين تيارت ومسقره بكبته القبائل المسالمة لفرنسا فلم يفلح واستمر دي لامور يسيير مدمناً المسير الى الجنوب تتبعاً لآثار اسرة الامير وذويها ولم يقف الاّ عند اخر حدود الكسور في محل لم يجد فيهِ شيئاً من الكلاء لقوت خيل فرسانه فاستمرت عائلة الامير منهزمة حتى انتهت الى « تجوين » ووقعت في يد الدوق دومال وكان آتياً من ولاية الجزائر فهجم بفرسانه وعددهم خمسمائة لا غير على رجال اسرة

الامير وكانوا ينيفون على خمسة عشر الف نفس فيهم ستة الاف مقاتل — واستولى عليهم باجمعهم رابع عشر ايار ومن فرَّ منهم راجعاً نحو ولاية وهران وقع في ايدي عساكر دي لامور يسيير ·

ولما بلغ الملك لويس فيليب نبأ هذا الظفر العظيم عظم فرحه واستبشاره خصوصاً ان حصوله كان على يد ابنه فارسل يهنيء قواده في الجزائر بذلك ورفع رتبة القائد العام من فريق الى مشير (ماريشال) ورتبة نجله الدوق دومال ودي لامور يسيير من امير لواء الى فريق ففرح الجيش بتوجيه هذه الرتب واهلَّ بذكرالله عند ورود بشائرها لوفرة فرحه بتقدم رؤسائه · ولكن لم يخلُ مورد الصفو من الكدر اذ حدث ان مصطفى ابن اسمعيل غادر الجيش في بعض فرسان لهُ وكرَّ راجعاً الى وهران تشوقاً لوصال فتاة مغربية كان قد اقترن بها منذ حين وبينما هو يسير في وسط غابة باغتهُ العدو وبطشوا بهِ وذهبوا برأسه ويده اليمنى الى الامير عبد القادر. فحزن دي لامور يسيير على فقده حزناً شديداً واذاع في ذويه ان آلى على نفسه حلفةً يبرُّها وهي انهُ لا يستخلف احداً بعده « باش آغا » حتى يلقي لهُ نداً وان علمهم اثر مقتله لا يكون سوى منسوح مضرَّج بدم رئيسهم القتيل ايذاناً بان ادراك ثاره من قاتليه قبيلة فلتاس واتى هو برجالهِ الى اراضي تلك القبيلة واستقرَّ فيها الى العشرين من تموز تلك السنة وما زال بها حتى داخها واتمَّ قهرها . وهكذا نجحت مساعي دي لامور يسيير بتشييد معقل تيارت واحكام المواصلات مع ولاية الجزائر وتبين حسن رأيه في فرار الامير وتباعده عن المدن الكبيرة وبهذه الواسطة اصبح محطّ رحال الامير غربي ولاية وهران بين مسقره وتلمسان وهناك مسافة كبيرة فجدَّد نشأة رفقته واطلق على مجموعهم اسم دائرة وجعلها على حدود القفر اما هو فكان معهُ خمسمائة فارس وقد اتاه من نوابهِ ووكلائه سيدي مبارك وصهره مصطفى بثمانمائة راجل . وكانت دائرته ذات اربعمائة خيمة والف وثمانمائة بعير اخذها كلها سرقة واختلاساً من بني عرار. ولما كان دي لامور يسيير يتتبع كل حركاته ليغتنم فرصةً ترشده الى الاستفادة من زلاَّتهِ او تدابيره عزم على طرده من بين مسقره وتلمسان فقضى صيف سنة ١٨٤٣ مهتماً ببناء مدينة سيدي بالعباس على مسافة متساوية بين مسقره وتلمسان وبترميم ما تهدَّم من قلعة صيدا التي كان غلب عليها الامير عبد القادر وهدمها وهي على مسافة ستين كيلومتراً الجنوب من مسقره والغرض من بناء سيدي بالعباس فصل بني جفر عن بني عامر ومنع الاولين منهم عن قصد الساحل لابتياع الحبوب ومحاربتهم بالجوع قهراً لهم وابعاداً عن مساعدة الامير والاخذ بناصرهِ

واوصى دي لاموريسيير القائد بدو ان يداوم مطاردتهم ولا يرضى بتسليم بعض فرق من قبيلتهم بل يستمر حرباً لهم حتى يلجئهم طراً للاستسلام والخضوع

وبعد ان استراح ورجاله برهةً في مسقره وامهلهم ريثما ادخروا الميرة والمدد واصلحوا احذيتهم غادرها وجاء معسكراً لهُ في صيدا ناقلاً اليها مركز الاعمال والمعدات الجندية . وكان قد بنى في وسط المسافة بينها وبين تيارت معقلاً احلَّ فيهِ مئة رجل وموقعه «محلة سيدي جلال بن عمار» وجعله مستودعاً للحنطة والشعير والتبن اللازم لرجالهِ وفرسانه على طريق تبلغ مسافتها ١٢٠ كيلومتراً في وسط البرية والصحراء وايضاً فانهُ بنى في وسط المسافة بين صيدا ومسقره معقلاً واتخذ مستودعاً في ويزرت وبوَّأ فيهِ مائة مقاتل

فاستكبر الماريشال بوجو هذه الاحداثات ولام الجنرال دي لاموريسيير على تفريق قواته بين هذه المراكز العديدة . اما الجنرال فبيَّن لهُ فائدة عمله وداوم مطاردة الامير اذ بات بعد هذه الانشاءات المستحدثة مضطراً الى المحاربة كرئيس عصابة عادية لا مساعد لهُ سوى الليل وبعض المصاعب في الطرق

وفي آب وايلول وتشرين ثاني سنة ١٨٤٣ انهزم الامير في عدة وقائع . فان لاموريسيير قسم جيشه الى ثلاث فرق سيَّارة الاولى في جهة صيدا بقيادة امير الالاي «جري» والثانية في جوار سيدي بالعباس بقيادة الجنرال بدو والثالثة ما بينهما بقيادته حتى اذا كان في ٢٤ من آب كبس بغتة معسكر الامير واستولى عليهِ بمن فيهِ من الرجال والمؤن وانقذ كثيراً من اسرى الفرنسيس

وفي ١٢ ايلول انتصر امير الالاي جري عليهِ انتصاراً عظيماً ففرَّ من امامهِ وحاول دخول اراضي قبيلتي سداماس وفليتاس فلم يقدر لتوفر رجال لاموريسيير على مراقبته ولم يجسر رجاله على هذه الحركة لكثرة ما فيها من المخاطر فامتنعوا عن اطاعتهِ فاضطر ان يلبث في تلك الجهة اياماً طويلة بحيث تكون دائرته قد تمكنت من قطع المسافة بينها وبين مراكش اذ كان من عزمها الانهزام

وفي هذه المدة حارب فانكسر في موقعتين مهمتين احداهما في ال ٢٢ من ايلول في محلة سيدي يوسف بالقرب من صيدا حيث شنَّ الغارة عليهِ امير الالاي موريس باربعمائة فارس وتبعهُ المشاة بعد حين ففتك برجال الامير فتكاً ذريعاً وفي تلك الموقعة اسر العدو النفر اسكوفير وذلك ان فرس القولاغاسي دي كوت قتل وبقي راجلاً لا جواد لهُ فجدَّ في اثره العدو فترجل اسكوفير عن

جواده وقاده الى الضابط المذكور وقال لهُ : خذ حصاني اذ انت اجدر مني بقيادة الفرقة . فامتطى الضابط الجواد ورجع بالجنود لمقاتلة العدو . وفي تلك البرهة كان هذا قد اسر اسكوفير واستمرّ مدة سنتين في الاسر فاكرمتهُ دولة فرنسا بوسام جوقة الشرف واذن لهُ عبد القادر في قبولهِ وحمله وهو في حال الاعتقال لمزية شهامته

اما الهزيمة الاخرى فكانت خامس تشرين الثاني في محلة الملح وهلك فيها من جيشه كل الجند المشاة الباقين عنده وعددهم ثمانمائة رجل وقتـل احد قواده وهو سيدي مبارك صديق لاموريسيير القديم ايام كان في القليعه . ولما ابصر لاموريسيير رأسه مقدّماً لهُ بين يديه حسب عادة العرب بكى حسرة على نضرة شبابه . اما الامير فاذ كان قد فقد جنوده واسرته ولم يبقَ لهُ ملاذ فرَّ من ولاية وهران وتجاوز الحدود غاشياً ارض مرّاكش

وكانت هذه المرّة هي الاولى لاضطراره منذ عشر سنوات ان يغادر ارض الجزائر . وهكذا انقضت السنة ١٨٤٣ التي فيها اسس لاموريسيير تياريت وسيدي جلال بن عمار في شرقي مسقره على طريق الجبـال العالية وويزرت وصيدا في الجنوب وسيدي بالعباس في الغرب ما بين مسقره وتلمسان . واما مستقبل موقع سيدي بالعباس فقد حقق آمال دي لاموريسيير اذ صار حتى هذه الايام مركزاً حربياً من الطراز الاول وقد عادت تلك المدينة في غاية الانق والرونق

تلك نتائج حسنة قد حازها دي لاموريسيير بجده وتفانيه في الخدمة على بعد الشقـة صارفاً همه الى مقاصد كان الجمهور كافةً معرضاً عنها ازدراء ولم يثبطه استهدافه لمعاكسة رئيسه اذ كان يتعقبه في كل الامور معاسراً حتى لم يدع ضابطاً حاذقاً من ضباط اركان حربه من مثل بليسيار ودوماس الّا نفسه عليه واقصاه عنه بذرائع وعود الترقية المعجلة الانجاز ومن ابقاه لهُ منهم اهمل شانه فلم ينله حظاً من التقديم والاختصاص وحاول ان يبعد عنه « دي مرتمبري » فابى الا ان يلزم خدمته وهو موقن بحرمانهِ من الترقي لاجل ذلك . وكثيراً ما عني دي لاموريسيير في ترقية احوال ضباطهِ فلم يفلح يؤيد ذلك حبوط سعيـه ثلاث مرات لاعلاء قدر « شرّاس » حتى حمله عجزه عن ذلك ان يسألهُ الصبر على فوات فرص نجاح امره حثاً بهِ وبملازمة خدمته والاقلاع عن عزم الاستقالة استياء

وايضاً فانهُ كان يعنى في تسكين جاش بدو وحمله على اللبث والاقامة في الجزائر مذكراً اياه عظم ما يسعون لهُ من الغرض المقصود وكان يسمي « بدو » ساعده الايمن وكثيراً ما كان يهتم

لاصلاح ذات البين بين « جري » امير الالاي و « بورجولي » احد القواد وحملهما على المسالمة والوئام وترغيبهما في مزيد المكث بالجزائر وما خلا ذلك فان ضابطاً منفذاً اليه من لدن وزير الحرب اخذ يحتال حتى اطلع على كل اسرار دي لاموريسيير ودخل في ولائهِ متلطفاً بهِ وما زال كذلك الى ان سبر غور افكاره وآرائهِ فباح ببعضها للماريشال بوجو وصبغه في عينهِ على حسب ميله وهواه فرقعت النفرة بينهما ثم استحكمت الشحناء استحكاماً بلغ بلاموريسيير ان بات على وشك مزايلة وهران وترك منصبه

ثم حدث ستئنذٍ مادعاه ان يدنو منهُ متلطفاً في التزلف اليهِ مكاشفاً اياه بعدم قصده منافسته ومدابرته وبرهن لهُ عن اخلاصهِ في خدمتهِ

وهنا يجدر بنا ان ننبه الى اشياء منها ان الملك لويس فيليب كان كلفاً بمحبة بنيه شديد الرغبة في رفعهم الى اعلى الرتب ليشتد حب الشعب الى ذريته والحرص على رعاية قدر سلالته ولهذا كان يكثر من مبعوثيهم الى الجزائر. اما الدوق دورليان بكر ولده فمع اشتهاره باقدامهِ وجرأتهِ لم يكن خبيراً في فنون الحرب وكان عاماً اول (١٨٤٢) قد عرض لهُ في طريقهِ الى نويلي وهي بلدة صغيرة في فرنسا ما ألقاه عن عربتهِ فتجدل ومات لوقتهِ وهو في الـ ٣٢ من عمره ولهُ ولدان حدثان . واما ابنهُ الثاني الدوق دي نيمور وهو الذي توفي منذ حين قريب فكان يحبّ الوحدة واعتزال الاشغال واما ثالث انجاله البرنس دي جوانفيل فقد انتظم في عداد جند البحر وحاز في البحرّية رتبة اميرال وجمع على لوائهِ ولاء قوم من الفرنسيس سنة ١٨٤٠ اذ قد قصد جزيرة القديسة هيلانة وعاد منها ببقايا جثة نابوليون الاول . واما الرابع وهو الدوق دومال (وكلا هذين الابنين لم يزل حيا) فكان قد دخل في الجيش البرّي وتقدم متدرجاً في كل الرتب وصار فريقاً وانتصر في تجوين على رهط الامير واعوانه وتولىُ قيادة ولاية قسطنطين فاشتهر ثمة بحسن التدبير وباشر اموراً خطيرة عادت بنتائج جليلة كادت تضاهي اعمال لاموريسيير في وهران مع شيء من الصعوبة والعناء وهو فيمن قاموا على ولاية قسطنطين واول من تخطى سلسلة جبالها الفاصلة بين سهولها وحزونها او بين ساحلها وبرّيتها واوغل في المرامي والفيافي حتى افتتح بتنه وبيسكره فامسى الناس طرّاً يتحدثون باعمالهِ وفتوحاتهِ مع شدة اجتهاد القائد العام في اخفائها وطمس معالمها او نسبتها الى سداد تدابيره

وكان من نية الملك ان يولي ابنه هذا حكومة الجزائر العامة مكان بوجو ولكنهُ تربص بهِ بلوغه

السن الموافق ومصيره الى حال الاستغناء عنه معه . ولهذا اقرّه على القيادة العامة ووسد ازمة حكومة ولاية قسطنطين الى ابنه تحت سيطرته ليشتهر ويتدرّب بامرته

وكان الملك يحدوه مع حرصه على ادراك ما نواه ان يتفادى من اشتهار سائر القواد هرباً من مزاحمتهم نجله ومباراته . وكان بوجو قد احس بما هنالك ودرى سر هذه السياسة فجعل يمقت الدوق دومال ويتحين فرص تعقبه في اعماله ناقدًا منددًا

وفي غضون هاتيك الاحوال ظهر في حاضرة الجزائر جريدة فرنسويّة اللسان تدعى « الجري » اي الجزائر مبدأها التمليق والدهان فانشأت مذ نشأت تقدح وتطعن في اعمال « بوجو » وتطري وتجلّ الدوق دومال ثناء جميلًا على اعماله فبلغ منهُ ذلك ودفعتهُ حدته وحماقته الغالبة عليهِ ان قام يردّ على مقالات تلك الجريدة بفصول كان ينشرها في جرائد اخرى فعظم الامر واشتد اللجاج بين الجانبين وكثر القيل والقال فاغتنم دي لاموريسيير تلك الفرصة فابان للقائد العام خطأ ظنهُ السيء الفارط ضده وبرهن على لزومه حد طاعته والائتمار باوامره ونواهيه وان ليس اقلّ فكر في منازعته منصبه والتقدم عليهِ وتبوئه المقام الاول . وان لا همّ لهُ سوى سعادة المستعمرة وتحقيق حسن مستقبلها وبالجملة فقد افصح لهُ عن مباعدته كل مطمع ومفارقته اي مطمح شأن من قنع فراض نفسه على الرضى بما قسمهُ لهُ الله فاغضى

واما القائد العام فانهُ ادّى بهِ غضبه من تلك المسائل الى انهُ طلب عزل الدوق دومال وقال : لا يكون الاّ احدنا في الجزائر . ولما كان الملك موقنًا باحتياجهِ اليه وقلة كفاءة ابنه ان يخلفه في عمله لم يجد بدًا من استقدام نجله الدوق من الجزائر متربصاً بالقائد « بوجو » فرصة اقصى تكون بالمقصود اوفى

وبذلك تقرّب دي لاموريسيير بعض التقرب من قائده . وقضى اواخر سنة ١٨٤٣ رافغ العيش فارغ البال بعد ان قضى سنتين متواليتين لا يعرف للراحة طعماً وهو نضو اسفار في البراري والقفار يقهر القبائل ويشيد الحصون وقد احرز كما رأينا رتبة فريق غير متجاوز الـ ٣٧ من عمره والسنة الـ ١٥ لانتظامه في عداد الجند

واذ رتب حكومة ولايته رجع الى وهران وكان مقرّه فيها بقصر يدعى القصر الجديد . واليك ما قالهُ احد ضباطهِ في تلك السنة واصفاً القصر ورجال معيته :

ان القصر الجديد المعروف عند العرب باسم البرج الاحمر هو على شكل مثلث الزوايا فسيح الارجاء اصله يتجه شمالاً نحوِ البحر وشرفته الشرقية تشرف على البرية وجانبه الغربي يطلّ على مدينة وهران . وفي وسط محيطهِ العظيم تجد كثيرًا من المخازن والمباني والغرف والرداه قد شيد بعضهـا الاسبانيول في سالف الايام ونحن شيدنا البـاقي منها وفي ذرى اعلى زواياه ذاك الصرح المدعو البرج الاحمر وهو مقرّ دي لاموريسيير وكان قبلًا مثوى البكوات ولاة وهران . وكان الداخل اليهِ يمرّ بباب قديم يُفتح على فناء ضيق فيه غراس الفرصاد « الوت » وفي آخر تلك العرصة عدّة قناطر بديعة البناء تحدق من جميع الجهات بقاعة فيحاء بناها بكوات وهران . وكان المتفرج يخرج من تلك القناطر في باب صغير الى حديقة انيقـة جداً على جانب القصر وكان من عادة بكوات وهران ان يتناولوا الطعام في جوّها « اي في جو القناطر المذكورة » وهم متطلعون الى مدينتهم البادية لاعينهم باسرها . وفي جهة ذلك البـاب الصغير بقعة كرمة على مدخلها دار ذات طبقـة واحدة وامامها عرصة صغيرة تحيط بها عدة قنـاطر من جهاتها الاربع وهناك كان يخرج ضباط دي لاموريسيير وحجّابه واركان حربه قصد النزهة وترويح النفس مسـاء وقد فرغوا من اعمالهم وهم في حاجة الى الراحة بضع دقائق . ومن هاتيك القناطر كنا نرى البحر وشواطئه ومخازن الكمرك ومرسى السفن الكبير .

وكنا نتبين في تلك البنـاية آثار الطرز العربي والاسبانيولي يزيدها رونقاً حسن مجرى الحركات الفرنسوية لانّا كانا باجمعنا كنا نحتذي في عملنـا مثال قائدنا البطل الهمام الذي لم ياخذه ملل ولم يكن ليستريح او يرقد الأ آخر الليل . وكنا نتناوب الخدمة ونستقبل الآتين لمواجهته فنسمع طلباتهم ونعرضها عليه ثم ينصرف كل منا الى عمله ويتخلف عنده من كان منا اقل علماً وخبرة لكتابة اوامره (وقد جرت العادة بان اكون اناذاك الكاتب) وكنا نجتمع باسرنا على المائدة لتناول الغداء صباحاً وقلما خلونا عادةً عن كثيرين يواكلونا ممن اتوا لقضاء حاجاتهم فان قائدنا كان كثير الغاشيـة لشهرة كرمه وحسن ضيافته ولذا كانت مائدته تكتظ بالضيوف صباح مساء .

وكنا اذا فرغنا من تناول الطعـام نخرج الى جوّ تلك القناطر الشاهقة العقود ونحن ندخن بلفائف التبغ (السيغـارات) فيأخذ القائد يسألنا أُحادَ أُحادَ عن شان المامورية وما جرى . ثم ياتيه دي مرتمبري امير الالاي ورئيس اركان حربه حاملًا المحررات والاوامر قصد التوقيع والختم وكان هذا الضابط الشريف المجتهـد والعمل محبوباً مكرماً عند الجيش باسره لما عرف من شهامتهِ

وتبين من شدة اقدامه ووفرة لطف طباعه النادر المثل . وكان نافذ القول مطاع الامر عند الجميع .
وكان اذا فرغ من اعمال اركان الحرب ينقطع لدرس المسائل واقتراح المشروعات ثم يركب جواده وينطلق الى الاماكن النزهة ترويحاً للنفس وعند المساء يعود الى مثواه

وكثيراً ما كنا هناك نعلل النفس بالفراغ من الشغل آخر النهار فيعرض لنا ما يثبطنا عنده الى منتصف الليل . وكل من زار ذلك القصر الجديد من الضباط الفرنسيس والاجانب ومن الامراء والشرفاء المتشوقين الى رؤية الجزائر ومشاهدة دي لامور يسيير البطل الفاتح عاد ولسانه يترطب بطيب الثناء عليه لحسن استقباله ووفرة احتفائه وسعة معارفه وسداد تدابيره الحربية وسذاجة معيشته

وما اكثر زائريه الذين رجعوا من زيارته وهم له اخلاّء اصفياء واستمروا على ولائه وفي جملتهم شاب من ضباط الجند البلجيكيين يدعى كسافاريوس دي ميرود (وهو نجل الكونت دي ميرود الذي ابى ان يكون مرشحاً لتخت الملك في بلجيكا سنة ١٨٣٠ حباً بالالفة والاتحاد)

ومن خبر هذا الرجل انهُ اشتهر بعد حين اشتهاراً عظيماً وانما حمله على غشيان وهران اوانئذٍ كلفه المفرط بمعرفة جميع الامور . واذ رأى القائد المومأ اليهِ احبه محبة شديدة واقام عنده اياماً . ثم وجه معه رجلاً بمثابة دليل الى البكباشي شرّاس قصد اراءته المدن والمحلات الداخلية وفيما هو عنده حدث بينهما عدة محاورات افضت بهما الى شدة الجدال واللجاج لاختلافهما في الرأي والمبدا ولكنهما افترقا على عهد وولاء

وما كان يخطر ببال دي لامور يسيير ولا بال شرّاس ان هذا الشاب سيصير وزير حرب لدى قداسة البابا بيوس التاسع فيجتمع بدي لامور يسيير قائد عساكره البابوية ! .

ثم توفر دي لامور يسيير على ادارة ولايته وتنظيم شؤونها وتوطيد دعائم الامن والراحة فيها وترقية حالة الزراعة والعمارة هناك فسهل مجيء الفرنسيس وقدومهم اليها . واستعمل عدة رجال ملكيين على البلاد التي جلا عنها العدو وتباعد تباعداً مطلقاً واعاد اليها الشرائع المدنية واتخذ في « مستغانم » امكنة مخصوصة اعدّها لتربية الخيل اللازمة لفرسان الجيش وارسل في طلب الجياد من مراكش والمشرق من وثق بصدقهم وامانتهم

واستولى على كل الاراضي الاميرية ونحوها واخذ يستعملها ويستغلها مؤاجرةً او التزاماً . ونصب القضاة الملكيين وألّف اللجان البلدية ورتب هيئاتها اما القوانين الجندية فلم يستعملها الاَّ في

المدن المتقدمة بين بلاد العدو والمواطن الحربية

وما كان لاموريسيير حتى حينئذٍ قد رجع الى ممارسة اعمال الدين ومع ذلك فان ما رآه في العرب اذ ذاك من شدة الغلو في دياناتهم واستهزائهم بالفرنسيس لقـلة تحمسهم في دينهم المسيحي وما اعتـبره في جاليات الافرنج الى هاتيك الديار على قصد الاستعمار من مظـاهر الحيوة الخالية عن التدين المملوءة من الريب والشبهات ذلك حمله ان يصرف همه الى الامور الدينية

وهنا محل ان نذكر الاسقفية الكاثوليكية المنشأة سنة ١٨٣٨ في مدة حكومة الماريشال كالي ومركزها حاضرة الجزائر وان اول اسقف جعـل عليها هو المطران دو بوش وان اعراض الحكومة يومئذٍ عن مساعدتها مع قلة ذات اليد في الراعي والرعية قد منع من ابلاغ الكهنـة الى العدد الكافي للخدمة الدينيـة في تلك الخطة الواسعة الشاسعة المنبث في ارجائها جماعات الكاثوليك

ويزيد ذلك بياناً وجلاء المطالع فيعلم شدة الحاجة الى هذا الامر المهم قولنا ان مدينة وهران المعدودة في الدرجة الثانية من الاهمية سكاناً وموقعاً حربياً لم يكن فيها كنيسة قط حتى سنة ١٨٤٣ مع انها كانت آهلة بآلاف من الكاثوليك اسبنيول وفرنسيس ما حلا الحامية التي كانت تنيف على ستة الاف جندي في الاقل

ولما سافر « بوجو » اواخر تلك السنة الى فرنسا مستأذناً قصد مقابلة الملـك وكل امور الجزائر الى دي لاموريسيير حاكم وهران . ثم كان انهُ بعد ايام قليلة اخذ دي لامور يسيـير يتأهب للسفر الى حاضرة الجزائر تفقداً لشؤون المستعمرة واهتماماً بتدبيرها وفيما هو على اهبة المسير دخل عليهِ راهب يسوعي يدعى الاب باسكالين — ولم يكن لهُ في وهران غير يوم واحد اذ قدمها مرسلاً من لدن رؤسائهِ ليسعى في بناء دير لرهبانيتـهِ هناك — وعرض عليهِ استعداده لخدمتهِ وخدمة سائر قومه ورفقته سواء كانت في المستشفيات او السجون او في صحبة الجنود الى مواطن القتال. اما القائد المشار اليهِ فقد قدمنا من خبره انهُ لم يكن منصرف الهمة بعد الى مزاولة الاعمال الدينيـة والاشتغال بمهامها فضلاً ان لفظة يسوعي في ذلك العهد كانت مدعاةً لاحتراز بل لخوف يغلب مثله على الاحداث والصبيان ومحضاةً لبغضـاء منشأها سخف في العقل وفساد في الرأي عند كبراء رجال الفرنسيس ومعـظم هولاء ممن سرى فيهم روح الشيعة الماسونية لتدربهم على مبادئها وانبعاثهم في تيه اهوائها . ومع كل ذلك فانهُ اي لاموريسيير لم يتجهم الاب اليسوعي المار ذكره بل اقبل عليـهِ

وقال : « اعلم انهُ سيّان عندي كونك من الرهبان اليسوعيين او من غيرهم لانّا سنكون ابدًا يدًا واحدة على عمل الخير وانت رجل من الخيّرين اهل الصلاح امضِ واتمّ ما امرك به رؤساؤك وان تصدّى لك احد في شانك فاكون انا عضدك لا محالة »

وبعد محادثة مليّة قام الاب واستأذن في الانصراف فاستوقفه القائد متلطفًا وقال لهُ « ولكن ما رأيتك سألتني شيئًا ولا التمست مني اعداد محل تأوي اليهِ »

فقال الاب ليس من همي الان ياسيدي حصولي على منزل أُقيم بهِ وانما غاية سؤلي اتخاذ بيت لعبادة الله تعالى — اعني السعي في وجود كنيسة

قال القائد « اذهب الى المدينة وابحث حتى اذا اصبت محلًا يصلح ان يكون بيعة فعد اليَّ واخبرني عنه »

فانطلق الاب وطاف المدينة وعاد الى القائد بعد يومين وقال لهُ « لم اجد الا معبدًا مغربيًا متقادم العهد مهجورًا الان لا يغشاه احد للصلوة » فاطرق القائد يفكر في هذا الامر تفاديًا من ازدياد المقاومات وفرارًا من مؤاخذة القائد العام لهُ عند ايابه ثم قال « كم درهمًا يلزمك في نفقة تهيئة المكان الذي وجدت وجعله صالحًا للتقديس فيهِ ؟ »

فقال اليسوعي « اعطني مائتي فرنك وانا ضمين باصلاحه في مدة ستة اسابيع »

قال القائد « اني مسافر غدًا الى حاضرة الجزائر لاقوم مقام القائد العام في تدبير المستعمرة وكوني كذلك يمهد لك الوجه ان تبعث اليَّ بتقرير وافٍ بالمراد ثم يرد لك مني الجواب »

وكان كذلك اذ ان الاب رفع تقريرًا الى القائد فتعجل ارسال الجواب لهُ مع اول بريد جاء من الحاضرة الى وهران وامدّه بصلة قدرها الفا فرنك واذن لهُ في جعل معبد باب القديس اندراوس كنيسة كاثوليكية

ثم بعد عدة اسابيع ندب اسقف حاضرة الجزائر ان يأتي وهران ويبارك « يكرّس » الكنيسة المذكورة فانتدب الاسقف لذلك وحضر القائد بنفسهِ مستصحبًا جميع اركان حربهِ والموسيقى الجندية والحامية . وما لبث ان توالت عليهِ الاحتجاجات والاعتراضات من كل جهة حتى من ندوة نواب الفرنسيس فاندفع يبين وجوه فساد تلك الاعتراضات غير مبالٍ بقوة عصبية اعداء الدين ومناوئيهم

وكان في مدة اقامته بالحاضرة وكيلًا عن القائد قد اسرع في اتمام معظم الاصلاحات التي حاول احداثها في وهران من مثل زيادة رصيف المدينةطولاً وعرضاً و بناء اماكن مزيدة للمكوس (الكمارك) وتكبير الجزر (المسلخ) وتوسيع قنوات الماء القديمة وترميمها وسعى في مدّها الى الجانب الشمالي من المدينة اذ كان خاليًا عن الماء مقدرًا لهذا العمل نزرًا قليلًا من النفقات مع اقتصاد يعود بهِ على الخزينة لانهـا كانت تبذل مبالغ جسيمة من المال جلباً للماء كل يوم الى المستشفى العسكري هناك وهذه النفقات السنوية كانت تتجاوز الفي ليرة

وايضاً فانه اهتم لجر الماء الى مدينة « المرسى الكبير » بنفقة لم تزد على خمسة وعشرين الف فرنك . ولكن لما كانت مدن الجزائر خالية عن موارد دخل خاصة بها لانها كلها كانت ترسل الى الحاضرة تعذر اجراء شيء من الاصلاح بغير رخصة مجلس الحاضرة المذكورة وهذا المجلس كان يأبى معظم الاصلاحات اللازمة خصوصاً المطلوب منها لولاية وهران لما بين القائد العام ووكيله من التقاطع والتدابر

ثم ان القائد النائب كتب في مستأخر الحين الى وزير الحربية يستأذنه في افراز قطع من الارض للقبائل ليحرثونها ويزرعونها بمراقبة ضباط المكاتب العربية . ومما عمل في مدة نيابته عن القائد العام بناء السد العظيم المشهور منعاً لميـاه « السيك » و بهذا العمل حصلوا على سهول واسعة . وايضاً فانهُ بنى سدًّا لمياه (المينـا) وكانت منفعته كبيرة جدًّا

الفصل الحادي عشر

واقعة ايسلي ١٨٤٤ — معركة سيدي ابرهيم ١٨٤٥ — ١٨٤٦

وفي اول سنة ١٨٤٤ اوشكت الحرب ان وحدود المستعمرةالغربية . ودرى القائد لامور يسيير ان لا بد لاهل مراكش ان ينهضوا لمناصرة الامير عبد القادر اذ كان قد لاذ بهم مستنجدًا فاخذ القائد للامر اهبته التامة ووطن نفسه على منازلة العدو بخيله ورجله . ومما نمي اليهِ وتحققه يومئذٍ ان مولاي عبد الرحمن سلطان مراكش ليس براغب من شبوب الحرب مبادأة بالعدوان ولكن ضعفـه وتعصب المراكشيين قد دفعاه الى اقتحام حومتها واصطلاء بنـارها

اما القائد دي لامور يسيـير فانهُ انفذ « مرتمبري » امير الالاي الى تلمسان لانجـاد

الجنرال بدو وايلائه التعليمات الكافية وامره ان يتخيَّر مكانين جديدين في مواقع حربية يصلحان ان يشيَّد فيهما حصون تعين ضباط الفرنسيس على مراقبة حركات العدو والقبائل واعمالهم . فانطلق وفعل ما امره بهِ القائد واختار « سبدو » في جنوبي تلمسان وهي على خط واحد مسامت لتيارت وصيدا واختار للآمرنيا في غربي تلمسان على حدود سلطنة مراكش. فان مركز سبدو كان معواناً لفرقة من الفرسان او المشاة ان تذب عن مدخل تلك الاراضي وممهدًا لان ياتيها المدد من تلمسان او سيدي بالعباس او من صيدا ومركز للآمرينا كان يهيء للفرنسيس ان يراقبوا حدود مراكش والبحر وما يحدث في مدينة « وكدا » الوحيدة بقرب الحدود . ومع كل ما كان يُقدَّر حصوله من معارضات القائد العام لهذين المشروعين امر القائد بفتح طريقين الاولى الى سبدو والثانية الى للآمرنيا واخذ يكثر من التوصيات للجنرال بدو ان يتحامى المبادأة بالعدوان وبان يراقب حركات القبائل والمراكشيين محذرًا اياه من التسمح مع ايٍّ كان من قبائل مراكش في غشيان ارض الجزائر اذ بذلك يمكن للمراكشيين ان يتذرعوا الى شبوب الحرب . واذ ذاك شرع الامير يذيع اخبار تراجعه الى الجزائر واجتيازه الى الحدود طمعاً في مخادعة الفرنسيس وحملهم على تخطي تخوم مراكش فتقع الحرب . فاغترَّ الماريشال بوجو وصدَّق تلك الاخبار واخذ يلوم دي لامور يسيير على تهاونه وفي الوقت نفسه جعل يراسل الامير عبد القادر بافتداء الاسرى فاجابه دي لامور يسيير بان قرَّعه على وثوقه بتلك الاراجيف واعلمه بان الامير لم يزل بعيدًا عن الحدود واشار عليهِ بعدم مراجعته في استنقاذ الاسراء اذ ان عبد القادر كان يتوسل بتلك المراسلة الى ايهام وشك وقوع الصلح ورجوعه الى الجزائر . ثم تمهد آخر الامر لدى لامور يسيير ان ظفر بموافقة بوجو على تشييد معاقل سبدو وللآمرنيا

وفي شهر اذار سنة ١٨٤٤ بدأ بالعمل هناك ولما كانت صيدا لم تزل بعيدة عن خط الاتصال بسبدو وفي وسع العدو الحيلولة بينهما عمد دي لاموريسيير الى تعبئة تجريدة زحَّافة بامرة الجنرال تمور لمراقبة تلك الشقة وقبيلة بني عامر التي كانت مستترة على شدة الانقياد للامير ودسائسه . ثم عاد صوب الشمال وامر بتحصين مركز عين تموشنت بين وهران وتلمسان . وفي ٢٧ نيسان وصل الى للآمرنيا وواظب على الجد في العمل حتى انهُ في مدة ستة ايام احاط المدينة الصغيرة المذكورة بخندق عظيم عرضهُ لاربعة امتار وعمقهُ متران وشرع يشيّد الحصون ويعدّ فيها الاسلحة ويبني الجسور

على نهر تفنسا وجدوله مولويا ويحكم المواصلات بينهُ وبين وهران ويلتمس مكاناً موافقاً على البحر لبناء مدينة تكون ثغراً للأمرنيا لكونها على مسافة ستين كيلومتراً من الشاطىء . وكانت امواج الهياج والاضطراب متلاطمة وراء الحدود والحشود المراكشية في ازدياد وعلى قدم التأهب للقتال اقتراحاً على الفرنسيس اخلاء للأمرنيا ومغادرتها . وايقن لاموريسيير بقرب انتشاب الحرب فأمر في ١٨ ايار روساء الكتائب والفرق والحصون ان يكونوا على اهبة القتال فاستدعى الامير الاي اينار حاكم تياريت واشخصهُ في قسم من رجالهِ الى صيدا واوعز الى الجنرال بورجولي ان يغشى اراضي الفليتا ليكون عضداً ومدداً لامير الالاي السابق الذكر واوصى الجنرال تمبور بزيادة التحرز والمرابطة ما بين سبدو وسيدي بالعباس وآخر ما كان انه أمر الجنرال تياري وكيله في وهران ان يخرج منها ويجمع رجال معسكرات السيك ووادي الحمام ويستعد للمسارعة في انجاده حين الحاجة . وكان المراكشيون يزدادون جرأة واقداماً لما رأوا من فترة عزائم الفرنسيس واحجامهم عن مزيد المجاهرة بالمناوأة

واعلن الامير عبد القادر خبر رجوعه الى الجزائر مستنفراً جميع العرب على الهياج والعصيان مواعداً اياهم بالغلبة والظفر وطرد الافرنج من وطنهم . وكان لاموريسيير متتبعاً سير تلك الامور يستقري الاحوال غير متوانٍ في حشد الرجال وإعداد المدافع والتحصينات في معسكر للأمرنيا حتى اصبح فيها ذا ثلاثة الاف وثمانمائة مقاتل من المشاة وسبعمائة من الفرسان وكان الماريشال بوجو في حاضرة الجزائر يتململ غيظاً من تشاغل اولئك الالوف من النفوس بما لا طائل لهُ في باب التقدم والنجاح متبرماً بذلك النهج من السياسة لعدم فصل المسألة مع مراكش على اي وجهٍ كان وطفق يشير على لاموريسيير بتجاوز الحدود وهدم معسكر المراكشيين في وكدا وتدمير المدينة بالنار فاجابهُ بما دلَّ على ما هنالك من المخاطر لخلو ولاية وهران من العساكر على حين يكونون هم نائين عنها في زحفتهم الى وكدة ما عدا ان دول اوربا ولاسيما انكلترة قاعدة لهم بالمرصاد تتحين الفرص وتتربص بفرنسا ان تاخذ على يدها فتصدها عن التداخل في شؤون مستعمرتها اذا تجاوز جنودها الحدود او كانوا سبباً في الحرب

وفي ٣٠ ايار حدث ان الفي فارس مراكشيٍّ قد تعدوا حدود الجزائر ذاهبين صوب « للأمرنيا » قبل وقوع الحرب وهجموا بغتةً في محلة سيدي عزيز على الفرنسيس الحاشدين هناك لحصد زرع قبيلة من العصاة فاستنجد هولاء برجال للأمرنيا فاتاهم لميرالالاي دي كرني منجداً وشتت شمل المهاجمين

واسر منهم واخذ اربعة الوية

وفي ١١ حزيران وصل الماريشال بوجو الى للأمرنيا وراسل روساء الاعداء وعرض عليهم مسألة المفاوضة شفاهاً في شأن متاركة العداء وآخر ما كان من هذا الوجه ان قد استقر الراي في ١٥ حزيران على الدخول في ذلك وارسل بوجو الجنرال بدو الى منتدى المفاوضة على ضفة المولويا ووافاه هناك زعماء المراكشيين فلم يحصل اتفاق بين الجانبين وتواثب فرسان العدو على الجنرال قصد الفتك بهِ فتخلص من بين ايديهم ونجا من شرهم وانفذ دي لامور يسيير بعض ضباط للاقاتهِ فاطلق المراكشيون عليهم النار فلما عاد بدو سالماً ساق دي لاموريسيير فرقة من الجند فصدمت الاعداء صدمة شديدة وقتلت منهم ثلاثمائة رجل وتبعه سائر الجيش الفرنسوي فزحفوا الى وكدا حتى وصلوها في ١٩ حزيران فوجدوها خالية عن العدو خلواً تاماً وما لبثوا ان رجعوا ادراجهم مخافة ان يتمكن الامير من غشيان الولاية في فرسانه

ولما صارت الاحوال الى هذا الحد لم يبقَ مندوحة عن محاربة مراكش فتكفل لاموريسيير للقائد العام بانهُ ينهض باعبائها عند سنوح اول فرصة وتعهد احسن حال لفرنسا بشرط ان تحصر اساطيل فرنسا شواطىء مراكش وثغورها كلها منعاً لموارد الارتزاق والاتجار وابتناء فرضة عظيمة في محلة جامع غزوات (لتكون فرضة للأمرنيا وتلمسان وسبدو على ما تقدم البيان) وان يؤتى بثمانمائة جواد من فرنسا لركوب الفرسان وهكذا كان فاخذوا يبتنون مدينة في جامع غزوات على حين كانت اساطيل فرنسا بقيادة البرنس دي جوانفيل راسية في البحر المتوسط تجاه طنجة وموغادور وجاء مدد الجند من فرنسا فاصبح الماريشال بوجو وهو في اواسط تموز على حدود مراكش صاحب جيش عدده ثمانية عشر تابوراً من المشاة وتسعة عشر كوكبة من الفرسان وثمانمائة فارس عربي. وكذلك اتخذ المراكشيون معسكراً حصيناً عند وادي الايسلي على مسافة ٤٠ كيلومتراً من للأمرنيا وجعلوا فيهِ ثلاثين الف فارس

وفي ١٠ تموز ابلغت حكومة فرنسا الى القائد العام خبر اعلان الحرب رسمياً فنشط من فوره الى اعتاد أهب القتال وفي ١٣ آب اجتاز الفرنسيون نهر ايسلي وفي ١٤ منهُ حدثت المعركة بين الجيشين وكان الماريشال قد قسم الجيش الى اربعة اقسام وجعل كل قسم منها على شكل مربع وكان الاول بقيادة دي مرتمبري والثاني الى اليمين بقيادة الجنرال لاموريسيير والثالث الى اليسار بقيادتهِ هو نفسهُ

والرابع الى الوراء بقيادة الامير الاي بليسيار . ثم هجم فرسان المراكشيين عدة هجمات متوالية على تلك الكتائب والفرق محاولين اختراق صفوفهـا فلم يستطيعوا حتى اذا استيقن بان الاعداء قد اعياهم الجهد والتعب وفترت عزائمهم عن النزال يأساً من الفوز كرُّوا عليهم و باقل من ساعتين شتتوا شملهم . وكان عدد الفرنسيس المقاتلين عشرة الاف وعدد العدو خمسة وعشرين الفاً فانهزم المراكشيون تاركين معسكرهم بما فيهِ من الميرة والذخيرة والسلاح والخيام والخيل والبغال والذهب وفي الجملة خيمة وليّ عهد ملكهم و بلغ المفقود منهم قتلاً سبعة الاف رجل والمأخوذ اسرًا في ايدي الفرنسيس زهاء الف نفس

وكان البرنس دي جوانفيل قد أطلق من البحر قنابل مدافعه على طنجة في ٦ آب غير مبالٍ باسطول انكليزي قريب منه فهدمها وتركها خرابًا وعاد الى اخر اطراف شواطي مراكش وفي ١٦ منه رمى مدينة موغادور بكرات المدافع فدكها حتى لم يبقَ في حصونها حجرًا على حجر واخرج الى كلتا المدينتين رجاله وتبوَّأها بهم الى نهاية الحرب

و بلغ الملك لويس فيليب ما كان فعظم سروره بانتصار جنوده في معركة ايسلي لانها المعركة الوحيدة التي وقعت في ايامه ولهذا احسن مكافأة المنتصرين فخص المار يشال بوجو والي الجزائر العام بلقب « دوق ديسلي » وانعم على الجنرال دي لامور يسيير بوسام « جوقة الشرف » من طبقة كومندور وعلى الجنرال « بدو » باعلاء رتبتهِ من امير لواء الى رتبة فريق ونصبه واليًا على قسطنطين . فطلب دي لامور يسيير تعيين الجنرال كافنياك عاملًا على تلمسان بدلاً من الجنرال بدو فأُجيب طلبه

ورأى سلطان مراكش ما نزل ببلاده من جسيم الخطب فهاله واندفع يراسل في عقد الصلح ومهد لذلك بان امر الامير عبد القادر بالجلاء عن سلطنته فلم يذعن لهُ واحتج بانهُ لا يمكنه التحول والانصراف بداعي الامراض الفاشية في قومه ولما طالت المخابرات تداخلت انكلترة بين الفريقين

اما القواد في الجزائر فانهم استمروا على قدم الاستعداد ورجع المار يشال الى حاضرة الجزائر ولبث البرنس دي جوانفيل محتلًا طنجة وموغادور وعاد دي لامور يسيير الى شمالي للامرنيا عند جامع غزوات واخذ يستخدم الجنود في بناء القلاع والابراج والتحصينات هناك وتوسيع نطاق المدينة

لتصير فرضة بحرية ومركزًا حربيًا

ثم أُطلق اسم نيمور (نسبةً لثاني انجال الملك) على هذه المدينة واصبحت الان مرفأ القسم الغربي من ولاية وهران وموقعًا حربيًا مهمًا باعتبار كونها على حدود مراكش. وفي الحال اخذ العرب والمراكشيون انفسهم يترددون على اسواقها حتى صارت مرسى عظيمًا للتجارة وكانوا يأتون اليها بالخيل فاشترى لاموريسيير عددًا كثيرًا منها ثم اقرَّ فيها حامية كبيرة برئاسة القائمقام منتانياك وكان شجاعًا حزومًا ومقدامًا هُمامًا الا انهُ كان سريع الغضب شديده ذا اخلاق شرسة

وكان دي لاموريسيير في ذاك الموقع يجيد المواصلات بين البرنس والماريشال وكانا قد فوضا اليهِ فض اختام رسائلهما والمجاوبة على ما اهمَّ منها فتمكن من تدميث اخلاق الماريشال وتلطيف عباراتهِ وتسكين غضبه لما كان يراه من ضياع ثمرة الانتصار

وعُقدت الهدنة في طنجة عاشر ايلول وتمَّ في المدينة المذكورة عقد الصلح في ٢٦ تشرين الاول على وجه باتٍ ومن شروطها طرد الامير عبد القادر من سلطنة مراكش . والتسليم بتحديد السلطنة المشار اليها وابقاء مستعمرة الجزائر على ما كان لها من الحدود قبلًا قبل احتلال الفرنسيس فيها وارجاع طنجة وموغادور الى المراكشيين . وتحريًا لمرضاة الانكليز لم يشأ ملك فرنسا ان يطلب غرامة الحرب تمسكًا بقول احد وزرائهِ « ان فرنسا غنيّة مليّة قادرة ان تقوم بنفقات يقتضيها مجدها »

ثم بعد مدة استأذن الماريشال « بوجو » في القفول الى وطنه بفرنسا ووعد بالوكالة العامة الى عامل وهران على شريطة ترك غشيان حاضرة الجزائر فاعترض دي لاموريسيير على هذا الشرط وصرح بان في رضاه بهذه الوكالة فناء حياته لما وراءها من تزايد مشاغله وعظم عنائه ولم يرضَ بها الا عند ما ورد لهُ الامر بولايتهِ المطلقة فقضى سبعة اشهر في حاضرة الجزائر وكيلًا عن القائد العام يدبر الشؤون ويصرف الامور المهمة في خطتهِ خصوصًا وسائر المستعمرة عمومًا وفي غضون مكثه بالحاضرة المذكورة تنحى اسقفها لما عاناه من المشاق التي انحلت بدنه وذهبت بعافيتهِ على تقدمه في السن فانتخب بدلاً منهُ المطران باڤي وهو ثاني اسقف على حاضرة الجزائر وذلك سنة ١٨٤٥ وبقي اسقفًا احدى وعشرين سنة اذ انهُ توفي سنة ١٨٦٦ وخلفهُ على كرسي الحاضرة المطران لافيجري الذي صار في السنة الثانية لتسقفهِ رئيسًا على اساقفة الجزائر وجعل بامرتهِ اسقفان

احدهما في وهران والآخر في قسطنطين ثم صار بعد ذلك كردينالاً وتوفي في مستأخر الحين

وفي مدة اقامته بحاضرة الجزائر اهتم دي لاموريسيير باتمام المشروعات التي كان يعوقها الماريشال عن اتمامها في ولاية وهران. وتفرَّغ ايضاً لمصالح المستعمرة باسرها وسنَّ اكتتاباً عمومياً لبناء كنيستين في وهران وكان اول من دوَّن اسمه في دفتره. وايضاً فانهُ سعى في تيسير كهنة لخدمة الشعب وارسلهم الى مستغره وتلمسان ومستغانم وساعد راهبات الثالوث المقدس في وهران بان استأذن لهنَّ في التملك فيها واقترح تسيير باخرة على طريقة مستقرة بين وهران الى طنجر مارة بجامع غزوات وبناء مرفا في وهران اذ ان ما تحتاج اليهِ تلك المدينة من البضائع كان يخرج الى المرسى الكبير واقترح تحصين هذه المدينة الصغيرة خوفاً من تعرضها للوقوع في ايدي الانكليز اذا انتشب القتال معهم

وكذلك اهتم في عمل الرسوم الجغرافية وخرائطها الحاوية مصوَّرات الطرق والانهار والجبال والسهول والمدن في تلك المستعمرة كلها وبحث فلم يجد لذلك اثرًا في ولاية قسطنطين ولم يلفِ في حاضرة الجزائر من مصوَّر الجغرافية الا ما كان على عهد الماريشال ڤالي اما في ولايته فكان رسوم جغرافيته متقنة الصنعة وهي من اثار عنايته وعناية اركان حربه فاستشار همم اركان حرب القائد العام وصنع بتلك الرسوم وكذلك تقدم اليهم في وضع تقريرات وافية البيان عن املاك ولايتي الجزائر وقسطنطين وما فيهما من الاراضي الاميرية وما في المستعمرة من المواشي للقيام بعيشة اهليها فتحقق ان فيها خمسين الف ثور واربعين الف رأس من الضان واخذ في استثمار الاراضي الاميرية. اما ولاية قسطنطين فلما كانت قد خلت عن مشاغل الحرب جعل يكل حقولها الى أكرَة من العرب ليحرثونها ويزدرعونها معفياً اياهم من الاموال المضروبة عليها وباذلاً لهم ثلث الغلة وكان يفوّض الى رجال من المأمورين اعطاءهم الحبوب للبذار وبذل النفقات واستئجار فعلة من العرب باجرة معينة . وفي اخير الايام كانوا يختصون الجنود بالارضين المذكورة حراثة وزراعة على ان الجنرال كان يستهجن هذا الامر الاخير الذي كان يستحسنهُ بوجو فاستقل بمنعه على حدود ولايتهِ في تلمسان ووهران ومستغانم

وايضاً فانهُ كان يحسن معاملة العرب والسكان الوطنيين بمنتهى الرفق والانصاف ويقيهم عاديات الاذى والجور وينادي في الجند : « ينبغي ان ترحبوا كثيرًا بالجاليات وتكتفوا منهم بجواد واحد ايذاناً بخضوعهم وطاعتهم ولا تسوموهم غير اداء بواقي الخراج ويجب ان تسكنوهم مواضع

قريبة من الطرقات اقرارًا للامن والراحة وتعاقبوا المأمورين الذين يسومونهم خسفًا »

ومن ثم فانهُ كثيرًا ما كان يوصي الضباط والمأمورين العسكريين بمراقبة اعمال المامورين الملكيين ومنعهم عن الاستبداد بالامر في قبائل العرب . وكان معظم اهتمامه منصرفًا الى اعادة احكام الشرائع وتنظيم مجاريها لما بذلك من الفوائد في سبيل صد المظالم ودفعها . وما اعظم ما كانت عنايته في توفيق شرائع الفرنسيس مع عادات العرب وبعض شعائر ديانتهم ولم يكن احد في فرنسا ولا في رجال حكومتها مكتنهًا ذلك

واتفق ذات يوم ان ورد امر من لدن وزير الحربية الى دي لاموريسيير موجبًا عدَّ القبائل متكافلة يلزم كلاً منها ما ياتيه ايًّا كان من آحادها من مثل الفرار بالاسلحة او بما يكون الوالي قد سلَّمهُ اليهِ الاشياء . فاعترض لاموريسيير بان قال في الجواب « نعم ان القبائل متضامنة فيؤاخذ الفرد منها بما يفعله غيره ولكن ليس ذلك على اطلاقهِ اذ لهذا التكافل حدود معينة ونحن واعدناهم من انفسنا باحترام عاداتهم والحقيقة هي — ان القبيلة مؤاخذة برمتها وعليها عهدة كل جريرة تحدث في ارضها ولم يعرف فاعلها الجرم لانها خبأته او ابت تسليمه ولكن اذا كان الجرم معروفًا فعلينا نحن ان نلقي القبض عليهِ ونقتص منهُ ولا يبقى على القبيلة تبعة او درك بسبب ذنبه . وان احد القبيلة فرَّ من الخدمة لا يحق لنا ان نطالبها بهِ لانهُ لا يعود عادة الى ارضها لاشتهار امره ومعرفته بعينه »

ومما يذكر في اخبار لاموريسيير ما وقع لهُ ايام كان في جامع غزوات آخذًا في تحصينها وهو ان امرأة عربية تدعى عينة ضُربت خنجرًا بخاصرتها وهي على الطريق العام وقتل اخ لها صغير بالقرب منها واتفق ان سارع اليها بعض المارّين قبيل خروج روحها فذكرت لهُ اسم قاتلها وبلغ ذلك بعلهــا فانصاع من فوره ثائرًا فقتل بها شقيق القاتل ونمي الى القائد ما حدث من الخطب فجاء محل العائلتين العاقلتين وطلب الجاني وحبسهُ وعقد مجلسًا بالموت اعدامًا وباعفاء زوج المرأة من القصاص لانهُ اخذ ثاره ومثاه يحسب مدافعًا معفيًّ من العقوبة لعدم قصده القتل وكان لذاتهِ ذلك الحكم بحضور دي لاموريسيير ومعهُ مائة جندي وجمهور كبير من السكان وكان من العادة عندهم ان يدفع المحكوم عليهِ الى ولي القتيــل ليقتلهُ او ليتدي منهُ « اي لياخذ الدية » فطلب القضــاة الى زوج المرأة ان يتدي ولا يثأر فاجابهم الى طلبهم فعدلوا الحكم بان قضوا على القاتل بالنفي المؤبد وبهدم بيتهِ حسب عاداتهم وعندئذٍ اقبل عليهم القائد وقال لهم

وفيها قبيلة بني حماينو هي وحدها كانت ذات ستة عشرة الف خيمة واعتبر بها وقس غيرها عليها

ثم عزم دي لاموريسيير على حرث ما بين قلاعه ومراكزه من الارضين فتوخى تقريب اسباب الاتصال هناك ولما كان مركز صيدا بعيداً جداً عن « سبدو » كما علمت من قبل انشأ في اذار سنة ١٨٤٥ قلعة « دايا » وسطاً بين هذين المركزين وجعل فيها حامية حطية بقيادة شراس صديقه المار ذكره ، وصمم على اخراج فرقتين سيارتين من الجند تنطلق احداهما من مستقره بامرة امير الالاي « جري » قاصدة « ستيتين » وهناك ما يشبه ان يكون سوراً عظيماً على مسافة مائة وثمانين كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من صيدا على وادي الحشيش حيث يوجد اربعمائة مقاتل من العرب وسور متهدم وتذهب الاخرى من تلمسان بقيادة الجنرال كافنياك الى شلالا وهو شبه سور كبير في جنوبي تلمسان يضم ستمائة مقاتل بدوي ، وكان الجنرال كثير الوثوق بهاتين التجريدتين يأمل بالقيام بمهمتهما احسن النتائج وانجع الوسائل ، وبينا هو يهم باعدادهما وسوقهما حضر المارشال « بوجو » من فرنسا بعد ان غاب عن المستعمرة مدة سبعة اشهر فوجد الاحوال على احسن ما يرام من الانتظام فلم يسعه في حسده وكيله ان ينكر فضل تدبيره وحذقه فامتدحه مضطراً واعترف بانه لم يوخذ عليه شيء في عمله غير ما كان قد لزمه من تخطئته لاكثاره من انشاء المراكز الحربية .

وكان وصوله الى حاضرة الجزائر في ١٢ حزيران سنة ١٨٤٥ ومن فوره اخذ من وهران بضعة توابير يدوخ بها قبائل السواحل الضاربة في جبال الدهرا او الظهرا وجبال الحدود الفاصلة بين الحاضرة ووهران فلهذا لم يتمكن دي لاموريسيير من ارسال التجريدتين معاً بل اضطر ان يرسلهما الواحدة بعد الاخرى وكان ذلك علة للانحطاط فخلف كافنياك قائماً مقامه في شمالي ولايته واتى « دايا » ليتم معداتها ومنها ارسل امير الالاي « جري » الى « ستيتين » في ثلاثة توابير من الجند المشاة وثلاثمائة فارس واربعة مدافع فاستمر دورانه مدة ثمانية ايام سائرين نحو الجنوب في قفار وفياف واسعة متباعدة الاطراف خالية عن الحركة والسكن .

وبعد ان اجتازوا الشط الغربي (وهو بحيرة تعرف بهذا الاسم) يقاسون شدة البرد القارس انتهوا الى ارض رمضاء جدباء يضل فيها الخريت وليس لهم من رفيق او هاد فكانت ابرة المغناطيس دليلهم على الطريق وكانوا هم ودواب النقل يحملون الاثقال وما يكفيهم من القوت مدة

لقد خليت بينكم و بين شرائعكم وعوائدكم تجرون ما ترون تفاديًا من الحجاج واللدد اما وقد فطلتم ذلك فتعين علي ان اعدل قضائكم الاخير بعض التعديل فيستبدل هدم البيت بغرامة قدر من المال يوديه المحكوم عليه جزاء نقديًا ويعتاض عن جزاء النفي المؤبد بضربه مائة سوط وبحبس سنة واحدة فأعجب القوم كلهم بحكمته وعدله

واخذ يحث ضباطه ورجاله على إتقان اللغة العربية كتابةً وتكلمًا ورتب لهم معلمين واوقاتًا للدراسة والممارسة واكثر من الكنائس والكهنة . وفي الوقت نفسه كان يراقب حركات القبائل وما وراء حدود مراكش منتظرًا رجوع الامير دقيقة دقيقة وهياج القبائل خصوصًا من كانت منها لم تلاقِ اهوال الحروب مضاعفًا عدد الجنود في كل موطن حربي مهتمًا كل الاهتمام في « سيدي بالعباس » وفي احداث مرابطة بين صيدا وسبدو المتباعدتين تباعدًا قاصيًا طالبًا ابقاء من انتقاهم من الضباط في مراكزهم واعلاء رتبة من كان اهلاً منهم لذلك مثل شراس و بوسكه ودوتمار ملحًا بابقاء الالوية معقودة لامراء الالايات الذين وفوها من الرعاية مثل صنيع جري ودي برال وغيرهما

وكتب الى وزير الحرب ما يلي : كأني بأركان حربي قد كتب عليهم الحرمان من الترقي وكأن جميع الرتب هي وقف على ضباط الماريشال وان طالت هذه الحال بت لا اجد احدًا يرغب في خدمتي . وكان ساهرًا بعين لا تنام على رعاية كافنياك في مركزه الجديد بتلمسان لانهُ كان شجاعًا بعيد الهمة عالي المدارك بيد انهُ كان ذا افكار خيالية يحسب الناس مثله سلامة في القلب وتوقدًا في الذهن وكثيرًا ما كان يشكو الى لاموريسير سوء سلوك الضباط المرتبين في خدمته و يتأفف من خبث العرب وخيانتهم ومعظم شكواه من القائمقام دي منتنياك المتبوىء « جامع غزوات » كما ذكرنا . ولقد بالغ دي لاموريسير سعيًا في ازالة الثغرة من بين كافنياك ومرؤسيه موجبًا عليه الرضى بالضباط والرجال على علاتهم والاعتناء بتدريبهم . ثم امر منتنياك بالاقلاع عن الغلظة والفظاظة الى الملاينة والاذعان لاقوال ضباطه واتباع السنن . ومما يدل على خشونته وجفائه ما نحن مخبرون به عنه وهو في ليله ان رجلًا عربيًا فتك باحد ضباطه فجد في طلبه وقتله صبرًا بالرصاص بغير محاكمة البتة

وايضًا فان لاموريسير كان يسعى لاسترضاء شراس وحمله على لزوم الخدمة والعدول عن

الاستعفاء لقنوطه من التقدم اذ مع كل اهتمام دي لاموريسيير بترقيته في المراتب الجندية لم يفلح . وكذلك لم يألُ جهداً للتأليف بينه وبين رئيسه امير الالاي « جري » وما كان لينثني له عنه خلة الفظاظة ولكنهُ مهد وجهاً لقبول الشفاعة فيه لديه بانهُ حضهُ على التخفيض من غلوائه وتلطيف طباعه ثم وصاه بهِ ان يبرّه ويكفيه حيف الوزارة واذاها

ثم كتب لاموريسيير الى شرّاس يقول لهُ : « يجدر بك ان تفكر متطلعاً الى ما هو اعلى بك عيناً نابذاً عنك الدواعي التي حدتك الى الاعتزال على اني عقب خمس عشرة سنة تقضت عليّ في افريقيا اعجب من اقدامك على الاعتزال لاسباب ضعيفة كالتي قدمتها وقد كادت حرب الفتوح ان تنقضي وصار من المحتمل ان تدخل مسألة الجزائر في مسائل اوربا السياسية . هذا وليس بخافٍ عني ما لقيت من الشان العظيم في هذه الحرب ولا اشكّ ان تركك الخدمة وانصرافك من هنا سيوقعني في ارتباك طلباً لخلف لك . ولذا فلني آبي عليك ما اردت واريد من حبك للوطن ان تعدل عن عزمك وتلزم مركزك لترى ما يصير اليه امرنا الذي بدأنا بهِ »

وكان لاموريسيير كما قدمنا يتوقع تجدد الهياج بين العرب لعدم فشل بعض القبائل وبما للامير من الدسائس التي كانت مبثوثة في ضفاف « الملويا » على حدود مراكش استنفاراً للعرب الى الجهاد وان ما حدث اوائل سنة ١٨٤٥ قد نبهُ الى وشك وقوع ذلك الخطب وتفاقم الثورة والهياج اذ في ال٣٠ من ك ٢ تلك السنة جاء قلعة « سيدي بالعباس » خمسون بدوياً حاملين العصي ايهام كونهم حجاجاً وكان الجند في خارج القلعة وما لبثوا ان نزعوا عنهم ازياءهم واندفعوا يذبحون من يجدون ثمة منفرداً واتصل صراخ القتلى باسماع الجنود فاسرعوا الكرة متراجعين وبطشوا باولئك الحجاج الخادعين

ثم ظهر بين « السنداسه » رجل يدّعي بعثتهُ رسولاً من لدن الله لطرد الفرنسيس واخراجهم من الجزائر وعزز دعوته بايهام اشياعه ان رصاص العدو لا ينفذ صدره ولا صدور متابعيه ولكنهُ ما عتم ان بات مكبوتاً متهوراً وغدا اسيراً فبطلت دعوته الكاذبة

ثم لما كان لاموريسيير في فصل الربيع عمد الى اتمام تشييد المراكز الداخلية وتحصينها واحداث مراكز غيرها وراء ما كان منها قائماً قريباً من حدود الصحراء تقويةً لسلطته بين قبائل العرب المنتشرة في هاتيك الجهة حديد الحصى لان جميع القبائل في جنوبي تلمسان كانت في حال العدوان

شهر كامل وما زالوا على هذا الحال الشديد يطوون المفاوز والبيد حتى وصلوا الى الجبال ودخلوا مدينة ستتين فاذا هي خلو من السكان. وبعد ان اخذوا فيها قسطهم من الراحة عزم « جري » ان يغشى البرية الشاسعة شاخصاً نحو الجنوب غير مبالٍ بما هنالك من مظان المخاطر والمهالك واذ نفدت الازودة وكاد ان يعوزه القوت انفذ رسلاً من قبله مسرعين لا يلوون على شيء الى حاكم قلعة تيارت في طلب الميرة والمدد الكثير واعدادهما له وقفاً على رجوعه وتوقل هو ورجاله في جرود تلك الجبال ومعهُ بعض ادلاء من العرب فخدعوه واضلّوه عن الطريق وبالجملة فانهُ وصل الى « بريزينا » ذات النخل الكثير ولها به شهرة وهي على ٣٠ كيلومترًا من البحر في منتصف اراض لقبيلة بني « سيدي الشيخ » وهي كثيرة العدد بمكان من القوة والباس وكانت كلها شاكية السلاح على اهبة نزال العدو .

ومما كان لاموريسير قد اعتمده من التدابير ان كافنياك يزحف على القبيلة المذكورة ويحاربها قبل وصول الجنرال « جري » فلم يجد مندوحة عن مصاولتها وكان بينه وبينها وقعتان مشهورتان وُفق في عقباهما الى النجاة والرجوع أدراجه مسرعاً في سيره لاحقاً بالمدد المنفذ اليه من « تيارت » واتصالاً بالذخيرة والمؤنة على مسافة خمسة ايام من هذه القلعة تأخر يومين في الطريق لادراكه عبد القادر ورجاله وفرسان اولاد « سيدي الشيخ » وكانوا اهلكوه وجميع رجاله فلم يفلت منهم احد اذ ان عبد القادر لما بلغهُ خروج « جري » الى البرية جمع رجاله وخرج من برية ولاية الجزائر حيث كان مخيماً واقتص آثارهم كما رأينا

اما دي لاموريسير فانهُ رأى « جري » قد ابطأ ان يحضر في الميعاد قلق بالاً من اجله وخاف عليه جداً فجمع الكتائب واقام ينتظره في قلعة « فرنده » وهو يراقب حركات الامير .

واما نتائج تجريدة « جري » فلم تكن ذات شان كبير وغاية ما فيها انها هاجت القبائل الجنوبية وجعلتهم يتوجسون شراً من الفرنسيس ويتحدون يداً واحدة على مناصرة الامير والاعتراف بسيادته فاتاهم مصلحاً ذات البين فيهم فازال الخلاف الذي كان شاغلاً قبائل صحراء مراكش والجزائر وبذلك فتح للجزائريين طريق سواحل مراكش فكفاهم غشيان ولايات الفرنسيس في الجزائر وقاتل من خالفهُ منهم واخذ منهم خمسمائة جمل وستة آلاف رأس من الضان

واما « جري » فبات مجيد التشكي اذ قتل من حملته غير خاسر مع ان الشقة التي قطعها كانت سبعمائة كيلومتر ذهاباً واياباً

وفي تلك المدة ما كفى دي لاموريسيير انهُ اضطر الى عدم ارسال كافنياك الى « شلالا » كما كان في النية بل دعته الحاجة ان يغشى ارض « السدامه » بنفسه لتسكين السائرة هناك وتقليل العصاة . حتى ان الماريشال نفسه لم يجد بدًا من ترك ما نواه في الجنوب وطفق يضم اليهِ اطرافه ويجمع قواه في المستعمرة لكبت الثائرين في جبال الظهرا وجبال تخوم حاضرة الجزائر ووهران المعروفة بوهرانسيس الى جبال وهران . وكانت قبائل تلك الجبال جاهرت بالعصيان ومتابعة شاب يدعى محمد بن عبدالله بالغ من العمر نحو عشرين سنة وكان يطوف الجبال نهارًا في الفتنة داعيًا الى الجهاد مبشرًا بوشك تقلص سلطة الفرنسيس وكان قد اشتهر بتقواه واجتهادة في الدين وكان لا يخرج الا ومعه عنزة او ماعزة ولهذا اشتهر بلقب (ابو معزى)

وكان يقول ان الرصاص لا يخترق جسده . فهاجت جبال الضهرا ووهرانسيس وتبعته وهجمت بعض قبائلها على تنس واورليانسفيل واثاروا قبائل الفليتا وبني اوراغ . فحنق الماريشال من هذا الهيجان وساق عليهم ثلاث فرق الاولى بقيادة اميرالالاي دي سانت ارنو والثانية بامرة اميرالالاي بليسيار والثالثة بامرة الجنرال بورجولي فاجتازت تلك الفرق الجبال المذكورة وقهرت الثائرين في وقائع حرب دامت اكثر من سنة ونصف سنة . وفي تلك المدة اشتهر بليسيار بعمل فظيع وحشيّ اضطرته اليهِ اوامر الماريشال وذلك انهُ كان طارد اشابة من احدى القبائل والجأها الى الاختباء بمغاير الضهرا وكان عدد الفارين اكثر من سبعمائة نفس بين رجال ونساء واطفال وشيوخ فحاصرهم فيها ولما تعذر عليهِ فتح تلك الحصون الطبيعية ولم يستطع الجاء المحصورين الى التسليم امر باضرام نار حامية دائمة على ابواب المغاير فاستمر السعير والدخان امامها اربعًا وعشرين ساعة وكانت الريح تزيد النار استعارًا وتدفع اوارها وشواظها الى اجواف الكهوف فما اصبح للفرنسيس الا وقد وجدوا اولئك العرب جثثًا في تلك المغاير لانهم كانوا كلهم قد ماتوا قتلًا بالدخان والنار ولم يبقَ منهم احد . فهاج الرأي العام والجرائد في فرنسا باسرها وسلقت بليسيار بالسنة حداد حتى ان وزير الحرب اضطر لان يعزله عن رتبة رئيس اركان حرب الماريشال وخفض منزلته ولم تنفعه شدة مدافعة الماريشال عنه واقراره بانه هو الذي امره بهذه الفعلة الشنعاء

اما دي لاموريسيير فلم يشتهر في تلك الحرب مع قبائل ولايته بغير الحلم والشفقة والحزم والعزم مما دعته اليهِ مبادئه التي لم يحد عنها وهي العمل على اخضاع العرب وعدم الفتك بهم واستئصالهم

خلافًا لمبادىء القائد العام ولمن كان لا همّ له الا حبّ الحروب والوقائع

وبعد ان انتهت علامات العصيان العام كان دي لاموريسيير واقفًا في فرقه بالمرصاد للامير ليمنعه من الدخول الى الساحل وشرع يرسم طريقًا حربية مهمة جدًّا تبتدىء في (تيارت) وتنتهي في (سبدو) بعد ان تمر على صيدا ودايا ليحيط بولاية وهران من الشرق الى الغرب وطفقت الجنود المجمرة في هذه المحلات الاربع تشتغل بعملها وكان للجند على ذلك زيادة رزق قدرها ٢٥٠ فرنكًا عن كل اربعة كيلومترات . ولما كانت مسافة الطريق المذكورة زهاء ٣٢٠ كيلومترًا فالنفقات اللازمة لا تتجاوز مبلغ عشرين الف فرنك . وبشروعه في عمل تلك الطريق واشتغاله باتمامها لم يمنعاه التنقل من مكان الى اخر في اراضي قبائل اليعقوبية قصد زيارة الجماعات والافراد منها لكثرة اصدقائه واحبائه هناك عند هدم تجدمبت وتشييد معقل تيارت ولما اتاهم زائرًا احتشدوا اليه محتفين به وجددوا معه عهد المودة صارفين اليه اماهم واما نيهم لاسيا حين رأوه مقبلًا على ابتناء المراكز الوطيدة والنجاح قرين اعماله ومساعيه . وكثيرًا ما كان يعنى في تسكين ثورة جاش الماريشال بما يبين له من ضروب العجز عن اخذ الامير عبد القادر عنوةً واقتدارًا . وكان يكثر التوصية لاولياء المعاقل والمرابطات بمداومة التيقظ والانتباه واستعمال الحكمة واظهار الشدة في حينها . وكان لا يأمن قط على القائمقام دي منتانياك حاكم جامع غزوات عدوات العرب ويحذره تزالهم فرادى ووحدانًا ويبغض اليه الحدة والغضب في تكلانه واطمئنانه . وكان في عزمه اجتياز الحدود في الربيع لادراك اسرة الامير وقبيلة بني (سناسن) البالغ عدد رجالها المتسلحين اكثر من عشرة الاف . وكانت عقارب الامير كما قلنا من قبل قد دبت الى معظم قبائل (التل) فهاجتهم ثم سكن من شدة ثورتهم ما صار اليه من الانكسار . وفي آخر آب سنة ١٨٤٥ قفل الماريشال بوجو الى فرنسا مستأذنًا وقد استخلف على حكومة الجزائر الجنرال دي لاموريسيير حاكم وهران وابان عند سفره فرط عيّ وعجز عن القيام بمهام الحكومة وجاهر بعزمه على هجر الجزائر وترك العودة اليها بالمرة وفي نفسه خلاف ما يظهره اذ كان يحسب ان لا ندّ له ولا نظير في فرنسا وهي لا تجد عنه غنىً وكان قد رسم في تقرير طويل خطة مخصوصة لاستعمار الجزائر بطريقة عسكرية وسأل الوزارة ارسال لجنة من نواب الامة الى الجزائر لتنظر في تقريره وكيفية اخراج تصوراته الى حيز العمل على حين كان يضبط لديه تقارير حاكم وهران في كيفية استعمار الجزائر . وكانت تطلباته كثيرة

بشيرة لا تكاد تحصى منها اقتراحه على الحكومة احد امرين وهما اما التزامها الدفاع عنه واما قبولها احتكامه في ترك المنصب. وكان الملك قد ملّ تماديه في المطالب المشطة وهم باقالته من خطته فثبطه حدوث الهياج ايامئذٍ عما نوى

وممن صحب الماريشال بوجو الى فرنسا القائد بدو حاكم ولاية قسطنطين و بوسكه رئيس المكتب العربي في مستغانم ودي كرني من امراء الالايات. وايضاً فان الجنرال كاڤنياك استأذن دي لامور يسيير في الذهاب الى فرنسا بداعي وفاة اخيه فابى عليهِ بغية ان يلزم مركزه اتقاء ما لا تحمد عقباه من الشؤون والاحوال المترامية الى الوبال على حين لا يلفي من يسد مسده كفاءة ودربة

ثم ان دي لامور يسيير بدا لهُ في الامر فارسل الى الحكومة يسألها ان تكون نيابته عن الماريشال بوجو في حكومة الجزائر صادرة من لدن الملك مباشرةً لا من قبل وزير الحرب وحده لان انفراد الوزير باستنابته لا يوليه كل الحقوق مثل ان يترأس مجلس ادارة المستعمرة ونحو ذلك . اما الملك فاسعفه بمراده واعتمده قيماً شرعياً على المستعمرة المذكورة مع ابقائه والياً على وهران وكان ذلك اول ايلول سنة ١٨٤٥

وفي الخامس من الشهر المذكور نُشرت رايات العصيان العام. وظهر في شرشل رجل يدّعي انهُ هو (ابو معزى) ونادى على العصيان نعّاراً في الفتنة ولكن ما لبث ان باء بالقهر و برد اسيراً وثارت قبائل الفليتا و بنو ترارا في جوار جامع غزوات . ولما كان دي لامور يسيير يحسب حكومة مراكش سداً في وجه الامير عن الدخول الى التل حباً بحفظ الظواهر امر حكام مديه ومليانه بالاستعداد لغشيان الجنوب الغربي وكذلك امر كل حكام المراكز والمدن في ولاية وهران ان يكونوا مستعدين للمحافظة على حدود الولاية وامر الجنرال بورجولي بالشخوص الى اراضي الفليتا لاخماد الثورة والجنرال كاڤنياك بالخروج في الفين وخمسمائة جندي الى اراضي الترار . اما الجنرال بورجولي فقد خرج من مستغانم في قوات غير كافية فهاجمه الاعداء في الـ ٢٠ والـ ٢١ من ايلول وتعددت الوقائع بينه و بين الفليتا ووجد بني اوراغ مجاهرين بالعصيان وعزّ عليهِ اللحاق بالمدد الآتي اليهِ من تياريت ومسقره واورليانسفيل فكرّ راجعاً الى مستغانم فاذا بقبائل ما بين الشالف والمينا قد استعصوا على بكرة ابيهم ومن بقي مع الفرنسيس قد انهزم و باتت ارضه عرضة للنار . وشاعت الاخبار بوصول الامير الى اراضي الترارا وان (ابو معزى) الحقيقي قد انبعث — اي عاد

الى الوجود — فاصبح دي لامور يسيير في موقف حرج ومقام خطير لانفساح مجال عظيم في مرمى بصره يمكنه من الاتيان على ما في وسعه وطاقته بما أوتي من مزايا الحذق والحكمة والاقدام وذلك بتسكين الهيجان وتدويخ المستعمرة ثانيةً واحراز المنزلة الاولى من عيون الكافة خصوصاً في عين الحكومة التي كانت تتوفى هذه النتيجة لتبين للماريشال بوجو انها باتت في غنى عنه وانه يستطيع ان يستقيل من الخدمة لوجود من يقوم مقامه بمهامه

ولكن تلك الملاحظات لم تخامر خاطر دي لامور يسيير دقيقة واحدة اذ كان يعتقد انهُ باعتبار كونه نائباً في حكومة الجزائر يلزمه ان ينهي الى مستنيبه كل ما حدث ويحدث في مدة غيبتهِ لاسيما وانه عالم بعدم وجود كفوء لمعاونتهِ في الولايات اوانئذٍ وامل ان يكون والماريشال اذا حضر عضدين احدهما للاخر . وبالجملة فانه بعث اليه حاجبه (ياوره) توًّا يخبره بحقيقة الحال ويستعجله في العودة اليهِ . وانفذ الى الجنرال بدو واميرالالاي بوسكه يامرهما بالرجوع الى مركزيهما ثم زايل حاضرة الجزائر وتوجه الى ولاية وهران في الغرب فمر بمستغانم وظهر لهُ عجز بورجولي عن كبت الثائرين واذلالهم وانما مقرن للدفاع عن مراكزه ليس غير . ثم سار صوب الغرب فسمع بخبر دخول الامير عبد القادر الى الولاية وفتكه بحاكم جامع غزوات ورجاله وهياج العرب باجمعهم عندما سمعوا بهذا الانتصار

وحقيقة ذلك ان الجنرال كافنياك خرج من تلمسان وفقاً لاوامر دي لامور يسيير وسار في قوات قليلة الى اراضي الترارا وامر حاكم للامرنيا وحاكم جامع غزوات بموافاته في ضفة « التفنا » فتقدم حاكم للامرنيا مأموراً ودنا من حدود قرية ندروما في الـ ٢٢ من ايلول . اما الاخر وهو دي منتنياك فعوضاً ان يتبع امر قائده ويأتي المكان المعيَّن لهُ انخدع لتسويلات بعض العرب الخائنين وخلف مائة وخمسين رجلاً فقط في جامع غزوات وذهب باربعمائة وثمانية من المقاتلين بين مشاة وفرسان الى متبوأ اصدقائه الماذقين الخادعين وعدته مؤونة يومين اثنين وستين حشوة بندقية وعسكر برجاله على مسافة ١٢ كيلومتراً من المعقل قرب مدفن الولي « سيدي ابرهيم » وفي ثاني يوم وصوله خلّى كتيبتين (بلوكين) في المعسكر وخرج بالباقين الى السهل حيث التقى بثلاثة الاف مقاتل عربي يقودهم الامير عبد القادر . فحدثت بين الفريقين معركة هائلة فقتل دي منتنياك في بدء القتال بعد ان امر رجاله ان يترتبوا على شكل مربع يدافعوا من جميع الجهات

فاستمر القتال ساعةً لم يخطر فيهـا على بال الفرنسيس خوف الهزيمة والانكسـار او طلب الرجوع والادبار حتى اذا قضوا الساعة في النزال نفدت عدتهم واعوزهم البارود ورأى العدو خبو نارهم فاحاطوا بهم ومزقوا شملهم شذر مذر واذ ذاك جاءت احدى الكتيبتين الباقيتين في المعسكر فما عتمت ان هلكت عن آخرها ثم اتت الاخرى ولم يمر غير قليل حتى عاد الـ ٤٠٨ من الجند ٨٠ جنديًا لاذوا بمدفن الولي حيث حاصروا مدة ثلاثة ايام يشربون البول ممزوجاً بالعرق ولما قنطوا من الغوث والفرج وثبوا جميعاً واخترقوا صفوف الاعداء منصاعين حتى صاروا على اربعة كيلومترات من معقـل جامع غزوات وهناك قُتـل قائدهم اليوزباشي « جرو » وهلك اكثر رجاله بالقرب منه ولم ينجع منهم سوى اثني عشر رجلًا وهم حفاة على اخر رمق وحلاوة الروح ولشدة الهول والرعب وخور القوى تعباً وعياء لم يقدروا على النطق الأ احدهم « لاڤيسيَّار » من قادة العشرات (الاونباشية) فاخبر بما جرى متقطع الصوت

وفي تلك المدة رجع حاكم « للامرنيـا » معييًا الى معقله وانطلق الجنرال كاڤنياك الى تلمسان في طلب مددٍ كافٍ . وفي غضون هاتيـك الاغلاط والزلاَّت الحربية التي كثرت وعظمت كان دي لامورِيسيير يحمـد بسالة رجاله ومأموريه بدل ان يلومهم ويقرعهم ويلقي عليهم تبعـات الغلطات ولقد اطال في وصف شجاعتهم وشدة بأسهم وذكـر القائمقام الذي قتل في الحرب احسن ذكر بما يمازجه الغم والاسف عليه وأبَّنه تأبين بطل ثابت الجاش واصفاً رجاله بالصبر والثبات وكتب الى الجنرال كاڤنياك يقول « لا شك عندي ان الحوادث لا تغلب على قلوبكم وطباعكم وانت جدير ان تتملص من فروج المحن والكوارث نبيلًا شريفًا »

بيدَ أن الماريشـال فبدل ان يعجب بحسن صنيع دي لامورِيسيير اليه ويحفل بتنبهه لايقاظه من غفلته انحى عليهِ باللائمة مبتدرًا اياه بالمؤاخذة ملقياً عليهِ تبعات جميع الحوادث والزلاَّت الحربية كاخرق متهوّر لا فطنة لهُ ولا حظ لهُ من الدراية وما كفاه ما زنّه بهِ من النقـائص حتى حمل على اكثاره من انشاء المعاقل والحصون جميع الرزايا والويلات

ولكن ذاك الوقت لم يكن وقت التلاوم والتلاحي والانقسام لان المستعمرة باسرها كانت قد جاهرت بالعصيان على اثر استطالة الامير عبد القـادر في عين تموشن واسره مئتي رجل وظفره بعشرين الف بندقية محشوة ومقتل البنباشي « بيلو » حاكم « سبدو » وبعض رجاله في الطريق وتألب

حشود العرب على صيدا ودايا ومقتل رئيس المكتب العربي في تيارت وكان جري اذ ذاك محصوراً في مسقره « و بودجولي » على ضفاف الميـنا واقبل « ابو معزى » يحاصر مستغانم وثار البرجيون و بنو شقران اولئك الذين كانوا قد دانوا مذ سنة ١٨٤١ وعمَّ القتال حتى تلاطمت امواج الهيـاج في ضواحي مدينة تلمسان بل في ازقتها وشوارعها وجلا بنو عامر و بنو جفر و بنو عوار الى مراكش والصحراء فامست البلاد بعدهم خراباً بل بلقعاً

فالى مثل هذه الحـال السيئة صارت حالة المستعمرة في مدة ثمانيـة ايام بعد ان كانت قد دانت برمتها تقريباً

وفي ثاني تشرين الاول سنة ١٨٤٥ خرج لاموريسيير من وهران مسرعاً تواً الى تلمسان فوصلها في السابع منه وامر باكمال تحصينـاتها و بسد الخارق بين جدران البيوت والبسـاتين وباختراق مرام ونوافذ فيها و باختطاط طريق حول هذا السور الموقت وخرج منها لاحقاً بكافنياك واجتازا معاً مضيق « باب تازا » و بلغـا جامع غزوات وجددا الذخائر والازودة ومن ثم صعدا الى اراضي الترارا واجتازا بعد موقعة هائلة مضيق « عين كبيره » حيث اظهر كافنياك شجاعة غير معهودة وتعرض كثيراً للهلكة شأن من اراد بشدة اقدامه محو اغلاطه وتقصـيراته السالفة على حدق فرسان الامير عبد القادر وهم حيارى كالسكارى وما هم بالسـكارى وما لبثوا ان ولوا الادبار اثر انكسار « الترارا »

وثاني يوم تلك المرقعة وصل دي لاموريسيير الى وسط اراضي تلك القبيـلة ونهب مجد ولاتها وحصرها بين جيشهِ والبحر ثلاثة ايام كوامل ولما آيست من النجـاة استسلمت باسرها الى دي لاموريسيير بلا شرط طالبة منهُ الامان فقال : « كان في وسعي ان اشير الى كتائبي العديدة مرة واحدة فتندفع على تلك الجموع المحصورة بينهـا وبين البحر وباقل من دقيقة واحدة كنت استطيع ان افتك بها فتكاً هائلاً اخذاً بالثار المنيم . ولكن هذا العمل لو اتيتهُ كان مستفظعاً لما في قلوب جنودي من الاوغام والاحقاد وفي صدورهم من الحزازات والحاصل اني اعطيت المستسلمين عهد الامان واخذت عليهم مواثيق الطاعة . ثم هبطت السهل لطاردة الامير عبد القادر اذا اعاد الهجوم . فانبـه الماريشال على حلمه واشار اليهِ ان يُبيد العصاة اما هو فلـم يذعن لتلك الاوامر واستمر مداوماً استعمال الشفقة والتأديب فقط . واما عبد القادر فخوفاً من ان يضيع ثمرة انتصاره توارى من وجه

دي لامور يسيير و بقي منفردًا مدة عدة اسابيع . وهكذا نجح سعي دي لامور يسيير في توقيف ابتداء الحركة ثم توجه الى « سيدي بالعباس » حيث غادر المرضى والجرحى ووثب على طريق مسقره فاتاه بنو شغران خاضعين طالبين الامان فامنهم لقاء جزاء نقدي وتعويضات باهظة خلافًا لاوامر الماريشال الصادرة بابادتهم وجعل اراضي الجالين اقطاعًا بين الخاضعين والحكومة اذ كان لا يزال يقول لا بد من التسامح مع العرب بالرجوع الى البلاد ما دام الاوربيون لايغشونها استعمارًا بل ينبغي اكراههم على معاودة اراضيهم بجد السيف ثم ترك شمالي ولاية وهران في ١٥ تشرين الثاني وجاء اواسطها لاحقًا ببني هاشم واضطرارهم الى معاودة « اغريس » وكانوا قد ذهبوا الى اراضي الفليتا والسداما لائذين

وهذه التجريدة كانت قد جددت حركات سنتي ١٨٤١ و ١٨٤٢ فكان على دي لامور يسيير دويخ ما في الميناء والعبد والحداد من السهول والحزون والجبال وعلى الماريشال ان يدوخ تلك الجبال من جهة الشرق . فاندفع الجنرال لامور يسيير كارًا على تلك الاودية والجبال واوقع في كتائب القبائل وفتك بهم قاهرًا اياهم كتيبة كتيبة بسرعة غريبة وكان الماريشال اذ ذاك حاملًا عليهم من جهة الشرق وهكذا قد اخذوهم بين نارين . وقسم الماريشال قوات الجزائر كلها الى اثني عشر قسمًا وبثها بعوثًا لاخضاع الجزائر باسرها واقتص اثار الثائرين فنكل بهم وفتح المعاقل والمضايق

اما الامير عبد القادر فكان يومئذٍ في الجنوب يصول على محالفي فرنسا ناهبًا اموالهم من جمال وماشية واخذ يبشر اهل الساحل بقرب رجوعه ويستنهضهم للعصيان والهرب اذا انتصر العدو عليهم . ولما بلغ الماريشال قدومه أمر قواده بالسهر الدائم واندفع يطارده ليوقعه بين اقسام جيشه الاثني عشر واستمرت تلك المطاردة حتى ٢٨ من كانون الاول والتقى الماريشال بعدوه مرتين كان بعض النصر فيهما لهُ عليه . ثم ادرك رجاله العياء والكلال وسئم هو طول المطاردة فانقلب الى حاضرة الجزائر موعزًا الى لامور يسيير بقيادة الجيش مدة غيابه . فاستمر دي لامور يسيير من ذلك الوقت مدة خمسة اشهر يطارد الامير واغلق في وجهه ابواب ولاية وهران فوثب على ولاية الجزائر ووصل بغتة الى ولاية « متيجا » امام الحاضرة المار ذكرها وتأمل معالمها ومشاهدها كلها وهاج القبائل المجاورة واضطر الماريشال الى طلب المدد من قواده بلسان التلغراف والى تدجيج الاهلين والمسجونين للمدافعة عن الحاضرة وبليده والقليعه ودويرا . ومن ثم ظهر عبد القادر في

اراضي الفليتا والسدامه في ولاية وهران فتتبعهُ دي لاموريسيير فاخرجهُ من الفليتا بعد ان كان نشم في اخضاعها لهُ واما السدامه فانها قاومتهُ وطردته فاضطرَّ حينئذٍ للانهزام والالتجاء الى الجبال الشامخة على حدود البرية . وهكذا انتهت تلك الوقائع على حين عزمت كل قوات فرنسا في الجزائر على اخذ رجل الدفاع خلوًا من نتيجة

وقد حدث في تلك الآونة بسبب طول غياب الامير عن مثابة عترته في اراضي مراكش ما هدم قوته وافناها وهو انهُ ارسل امرًا من محله في الجبال الى قبيلة بني عامر النازلة مع اسرتهِ ان تأتيه بسلاحها فجاهرت بالعصيان عليهِ وجلت الى داخلية سلطنة مراكش استجارة بولاتها وكان عددها خمسة عشر الف نفس فادخل هذا الجلاء على اسرة الامير واتباعها شديد الخوف والقلق والجزع فامسوا بعضهم يشير بامتثال امر الامير والشخوص اليهِ جنوبًا وبعضهم يشير باستجارة بني سناسن . ولما اعوزتهم الازودة والاقوات عزموا على ذبح اسرى الفرنسيس الذين لديهم وكانوا ثلاثمائة اسير . وكان قبلًا قد احسن الامير معاملتهم واذن لهم في مكاتبة قوادهم وقبض الدراهم المرسلة اليهم وكثيرًا ما عرض امر اطلاقهم بفدية مالية فلم يجبه الماريشال بشيء ولما ضاقت فروج الاحوال عليهِ وقد لاحقه قواده طلبًا للفتك بهم امر بقتلهم ما عدا ثلاثة عشر اسيرًا منهم استبقاهم تخليصًا له ولقواده فيما لو وقعوا في ايدي الفرنسيس . وكان قتل الاسرى المذكورين رميًا بالرصاص وذبحًا في منتصف الليل على ضفة المولويا على حدود وهران ومراكش ونجا منهم رجل لهُ عداد في اصحاب الموسيقى يدعى رولان موكولاً اليهِ امر قتله ففرَّ واجتاز المولويا وبات يسري ثلاث ليال ثم سلم نفسه على اخر رمق الى بعض المراكشيين فدفعوه الى حاكم للامرينا الفرنسوي

ثم كان ان خرج كافنياك من تلمسان واجتاز الحدود املًا بانقاذ بعض الجرحى فلم يجد احدًا ولم يرَ الدائرة الاهلية وعاد الجنرال لاموريسيير الى اتمام مشروعه وارسل فرقتين الى الجنوب احداهما خرجت من دايا وكادت تهلك جوعًا وعطشًا واحتراقًا برمض الرمل . والاخرى وكانت بقيادة اميرالالاي « رنو » وصلت الى ستن ومنها الى كسور عربا حيث كان الامير قد حاول دخولها فلم يقدر وجدَّ الفرنسيس يقتصون اثر الامير في تلك البرية الشاسعة مجتازين مثله مسافة ستة وخمسين كيلومترًا في اليوم ووصلوا الى اراضي قبيلة اولاد سيدي الشيخ الذين كانوا نهضوا في العام المنصرم على اميرالالاي جري وحاربوه كما تقدم الخبر اول هذا الفصل فبات اولئك المشايخ

الذين في « البيود » للقائد الفرنسوي صاغرين بعد ان طردوا الامير عبد القادر قائلين له : « انت اشبه بذبابة تهيّج الثور وتفر فنحن نحتمل القتل والقصاص »

وفي نهاية حزيران سنة ١٨٤٦ كانت كل حدود ولاية وهران وداخليتها في سكينة وخضوع لسلطة الفرنسيس ورجعت القبائل الحالية وعادت الجنود الفرنسوية الى مراكزها والتجأ الامير عبد القادر الى مراكش بعد ان كان خرج منها ليدبر تلك الحملة والحركة التي طالت احد عشر شهرًا ٠ قلنا والحق يقال ان هذا الرجل العظيم اظهر في السنتين المذكورتين قوةً واقدامًا وفنونًا حربية يندر وجودها وكثيرًا ما اعجب الناس بعظم منة هذا الباسل المقدام وحوله مع شدة فاقته الى المال والرجال وخلوه عن مصر او معقل يأوي اليهِ واكبروا استمرار مريره في محاربة دولة عزيزة من مثل فرنسا قد ارصدت لقادتها اكثر من مئة الف رجل لمنازلته ٠ فلا جرم انه رجل عظيم يحق له الافتخار وقد نظم ذكره في عداد رؤساء الامم العظام الاماجد . والان اذ قد خرج ثانيةً من ولاية وهران وانقطعت اماله في امكان الانتصار خلا الجو للفاتحين من الفرنسيس ودانت لهم المستعمرة باسرها وقلت الحروب واصبحوا مضطرين للاعتناء بها واستعمارها وتكثير سكانها وتحسين موارد دخلها لاجتناء ثمار اتعابهم المبذولة في مدة ست عشرة سنة

الفصل الثاني عشر

الاستعمار سنة ١٨٤٦ و ١٨٤٧

وكان استعمار الجزائر مجالاً واسعًا لما لرجال السياسة والمزارعين والنواب والشركات من المبادىء وما في الاحوال السياسية والاجتماعية من المناحي ولكن كان من المحظور على اهل الديانة ان يهتموا بذلك لتنشب حب الماسونية في قلوب ارباب السياسة لذاك العهد وغلبة نزعات الحرية على انفسهم مع ان الدين وحده جدير ان يستفيد من الجزائر وينهج مناهج الهدى لسكانها . وقد ظهرت لنا مساعدة الجنرال دي لامور يسيير لرجال الدين في ولايته ولكنه لم يكن بعد قد رجع الى الديانة وعرف كل منافعها ليعلم حقيقة المركز الواجب لها في الاستعمار ٠ وكانت المسألة عنده يومئذٍ محصورة في كيفية استعمال الافرنج لاموالهم ورجالهم احياء لاراضي المستعمرة وزيادة سكانها

وتعزيز قوة محبي فرنسا. وهنا كان يتعاظم التباعد بين دي لاموريسيير وبوجو ويشتد اشتداداً عظيماً يزيد في حسد الثاني للاول. لان بوجو كان مشهوراً بطبعه الاستبدادي وميله الحربي فقط وكان دي لاموريسيير معروفاً بعقله العملي واحترامه للشريعة ونزوعه الى الحرية والحكومة الملكية وفي ذلك الوقت كاد ان لا يكون احد غير هذين الرجلين مهتماً بمصالح الجزائر. فان القواد الذين وقفوا على حقيقة الحال في الجزائر كانوا نزراً قليلاً والمستعمرون اقل منهم عدداً وعلى هذا النحو كانت اراء القائدين المذكورين: فالقائد العام الماريشال بوجو كان يكره العرب ويرغب في ابادتهم او اضطرارهم الى هجر البلاد وكان اذا رأى رأي العين جماعة المتوابين متهمكين في النهيب والمغالاة في اجور المساكن واثمان البيوت والمستعمرين اكثرهم فقراء يهلكون جوعاً دون ان يبنوا شيئاً كره كل المستعمرين وبات لا يميل الى سوى استعمال الجنود والعساكر استعمال الرومانيين والروس وكيفية ذلك انهُ كان يضرب اجل ثلاثة اشهر لكل جندي لم يبقَ لهُ من مدة الخدمة الجندية سوى سنتين او ثلاث امهالاً لهُ في اتمام ما شرط عليهِ من الشخوص الى فرنسا والاقتران بامرأةٍ ينوي بها عودةً الى الجزائر حتى اذا عاد مستصحباً عرسه خصه بمسكن وحقل يزدرعه واجرى عليهِ راتبه الشهري نقداً الى منقضى مدة خدمته النظامية وعلى هذا المنوال كانت الحكومة تتجشم كل النفقات اللازمة للاستعمار باذلةً لكل جندي من هولاء الجنود لا اقل من ستة الاف فرنك ولو قدرنا ان عدد الجنود الواجب اسكانهم ارض الجزائر هو مائتا الف نفس اربت النفقات على مليار ومئتي مليون فرنك. ومثل هذه المبالغ الجسيمة من المال المبذول كان يروع اهل الندوة النيابية ويحملهم على ترك اجابة طلبه وكانت الوزارة راغبة عنه لعدم ثقتها بنجح هذا المسعى فلم تأخذ بناصر الندوة المشار اليها

اما دي لاموريسيير فانهُ نظم تقريراً مشبعاً في كيفية الاستعمار على مقتضى رأيه ونهجه فامسكه عليهِ « بوجو » في الجزائر ولم يبلغ منه الى الوزارة غير مآله مشفوعاً بالرد عليهِ. ولما علم بذلك دي لاموريسيير كلف اميرالالاي « دي كرني » و « دي مرتمبري » والبكباشي ديليار ان يعملوا تقريراً وافياً بالمراد مطابقاً لآرائهِ وبيَّن لهم المسائل المهمة والمواضيع اللازمة فنظموه واتموه في مدة قصيرة واتوه بهِ فانهاه الى الوزارة من معسكر « دير الكيف » حيث كان مستقراً في اركان حربه وتاريخ التقرير ١١ نيسان سنة ١٨٤٦ ومفتتحه مسألة مالية اذ اشار فيه على وزير الحرب

(وكان وقتئذٍ على هذا المنصب المار يشال سولت مع توليه رئاسة الوزارة) ان يترك لوزير المالية مسألة الكمارك لما انها لم تكن في ايدي رجال اكفاء يحسنون الادارة ثم قال لهُ : « اخالك الان تنادي معترضاً باني تجاوزت الحدود الماماً في واجبات الادارة وحقوقها نعم اني ملمٌ بها ولكني بحق فاعل ذلك لان مشاغل الكمارك تعوقك بكثرتها ودقة مقتضياتها باعتبار المصلحة عن اتمام المقصود وفي المستقبل لا تجد بدًّا من مغادرة مسألة الاملاك الاميرية لوزير المالية ايضاً وحينئذٍ يمكنك ان تهتم حقيقة بما يهم الدولة وهو النظر في كيفية احلال الاور بيين ارض المستعمرة قاطنين واول ما تعترضني بهِ هو ترك هذا الاهتمام الى ان يقدم الجزائر جالية من الافرنج ولكن هذا الاعتراض لا محل لهُ اذ لا يمكنك ان تقدم الجزائر احدًا غير عالم من قبل بما يكون لهُ فيها من الحال والحقوق والامتيازات . واست اريد بما قلت من يستأذن في المجيء الى هنا جيئة مستعمر ولكني اعني بقولي اولئك القوم التجار والاغنياء الذين يوّدون لنا المساعدة بمالهم واعمالهم فانما هم وحدهم من اروم قدومهم فاقصدهم بمطالبي

اعلم « ايها الوزير » انه ليس في الجزائر من فرق بين من جاءَنا باهله وخدمه وبضاعته وماله ومن عدّ في الرعاع وهو لا يملك شيئاً وانما اتانا طمعاً في الكسب والغنى وكلا هذين يفترق عن الوطنيين بدخوله في الجندية . بيدَ أنه ليس في قوانين الجزائر ما يرشد الى اسكان احاد الرعية في مكان اذ لم يكن لكل مدينة ومصر مجالس بلدية ولا موارد معينة . ولكن ثمة قوانين غير عادية ومحاكم غير معهودة وآثار استبداد وسلطة مطلقة مسلمة الاقليد الى القائد العام وهي بمكان من هول السطوة ولكن يخفف من شدة وطائتها خوف القواد نبأة الرأي العام في فرنسا وزد على ذلك وجود سلطة رائبة في تعقب جميع الامور واقتحامها من غير ان تاتي اقل خير او نفع فهذه الازقة ما زالت حتى الان خلوًّا عن عناية الحكومة باناراتها خلو الشوارع عمن يكنسها وليس عندنا محكمة جزائية « جوري » وانما القائد العام يحتكم في تأليف محكمة وتشكيلها من اعضاء ينتقيهم بحسب رأيه وهواه ونصبهم وعزلهم متوقف على ارادتهِ ولهذه المحكمة ان تقضي بالاعدام والحبس الدائم مع الاشغال الشاقة (الكورك)

أو ترى « ياحضرة الوزير » اني اروم مع وجود هذه الآثار الاستبدادية وفناء الحقوق العمومية ان آتي الجزائر واقيم بها تحت ظل هذه السلطة فيما لو كنت غنيًّا او تاجرًا ؟ وها ان لنا بعلم التاريخ هاديًا منبئًا عمَّا كانت عليهِ جميع المستعمرات في بدء امرها وما آلت اليه من العمران العظيم

والفلاح الجسيم متدرجة نشوءاً وارتقاءً باحكام ايام الحرّية وبساطة الشرائع وسهولة اسباب المعيشة على المهاجرين الى البلاد المأخوذ في استعمارها

اما ما يتورك عليـه بعضهم زعماً بان هذا الاستبداد لا بدَّ منهُ ضرورة في نشر راية الامن على الجزائر فهو زعم فاسد بل لا حقيقة لهُ فهآنذا والي وهران منذ ست سنين او تزيد ولم استعمل بعد هذه السلطة الاستبدادية ولم اتصرف بشيء مطلقاً في داخل الارضين التي سلمتها الى الحكومة الملكية مع كل ما نابني وناب الولاية من الاخطار الجسيمة وازمات الآونة الشديدة

فيجب ان لا نقيس الجزائر بمستعمرات الانتيل او جزيرة بوربون ونحوهما بل يجدر بنا ان نحتذي مثال لويس الرابع عشر وكولبر في استعمار «كنادا» على وجه المباراة احساناً للنهج والتصرف لان العرب هم اعلى شأناً من هنود اميركا فلا بد للافرنج هنا من امثال الحقوق والامتيازات والشرائع التي لهم في اوطانهم

ثم استشهد دي لامورنيسير باعمال الرومانيين واستعمارهم وعطف كلامه قائلاً :

« وهم ايضاً اجتهدوا ان يجعلوا في جميع الامكنة رعايا رومانيين وبالجملة فيجب ان يحسب السكان من النصارى في بلاد الجزائر شطراً من فرنسا نفسها اما سكان الجزائر الوطنيون من اهل الاسلام واليهود لا يعرفون شرائعنا وعاداتنا ويطلبون البقاء على شرائع كتبهم الدينيـة فيلزمهم الآن ان يخضعوا موقتاً لشرائعهم المذكورة وان يعاملوا بمقتضى احكامها . ولكن ان تعذر علينا في الزمن الحاضر ان نمتعهم بامتيـازاتنا وحقوقنا ونعطي اعداءنا السابقين حقوق رجالنا وجنودنا فلا ينبغي ان نخضع هؤلاء الاخيرين الى الاستبداد الواجب ان يعامل بهِ الاولون . هذا وارجوك ان تتحقق صـدق مقالي ان من يرفضون وجود هذه الامتيازات في الجزائر لا يعتبرون قوة شرائعنا فانهم يخافون منها ومن حريتنا ولكن كل قوتنا هي فيها ودونك الامتحان في فرنسا فخذ من ولاية فيهـا الحقوق المسلوبة للجزائر فتجد حينئذٍ الحركات والقـلاقل هناك وتخرب الارض اذ ان الرجل الحرّ لا يمكنه ن يعيش في ظل شرائع استبدادية الاَّ اذا تسنى لهُ هناك مكاسب كثيرة حتى اذا حصل عليهـا اهجر البلاد في طلب الحرية

هذا ما اطلبه في حاضرة الجزائر وفي الديار الممكن اخضاعها لشرائع من مثل شرائع فرنسا وكورسيكا بمعنى ان يكون فيها والٍ ومجلس عام للمستعمرة ومجلس خاص للولاية وحاكم بلدية

(Maire) ومجلس بلدي كما في فرنسا مع الحقوق التي فيها بعينها وان يكون في الداخلية نواحٍ و بلديات مثل فرنسا وحرس وطني مع استبقاء اسمه الحالي « اي الجند » وذلك بزيادة عدد الرجال ذوي الرواتب . هذا ما اروه واريد ان يتمتع بهِ الفرنسيس والاجانب المستوطنين واطلب ايضاً ان يتمتع بهِ اليهود واهل الاسلام الذين راضوا انفسهم خضوعاً لشرائعنا مع تخويلهم بعض امتيازات كما كان يفعل نابوليون الاول مع يهود مملكته وذلك توفيقاً بين بعض عاداتنا وشرائعهم الدينية . ثم بعد ذلك يمكنهم الحصول على كل الوظائف والمراتب مثل الافرنج انفسهم اما اليهود والمسلمون الممتنعون عن الاذعان والانقياد لشرائعنا فيستمرون على عاداتهم وشرائعهم و يعين لهم رؤساء وقواد وامراء وقضاة من قبائلهم عينها . غير انهم يكونون في زمن العصيان والحرب تحت اوامر القضاة العسكريين

وقد آن لنا ان نتكلم باحثين عن المحاكمة وهيئة العدلية فاقول : اريد ان يكون في الجزائر عدلية كعدلية فرنسا اي ان يكون مجلس ملكي ومحاكم ذات اعضاء مستمرين في مناصبهم لا يعزلون وتشكل هيئات اتهامية لتحقيق الامور الجزائية (الجوري) وان يكون قضاة صلح ذوو سلطة واسعة برواتب رابية امثال قضاة الصلح في البلاد الانكليزية اما المسائل المالية فقد طالعتكم برأيي فيها والحاصل اني اروم ان يكون كل شيء هنا كما في فرنسا

وبقي عليَّ الان ان ابيّن كيف ينبغي ان تكون سلطة القائد العام فان وظيفته يجب ان تنحصر في قيادة الجيش العامة وسياسة البلاد وان يعتني بتوسيع اراضي المستعمرة ويقي المستعمرين من عدوات العرب و بدواتهم ويجب ان يكون عنده مجلس عام من شأنه ان يهتم بنظم تقارير سنوية ويقدمها قبل المدة بسنة لتأسيس بلديات واختطاط قرى جديدة في البلاد العربية وتعيين امتيازاتها وحقوقها . هذا ما اريد ان امتع بهِ سكان الجزائر وآتيه الافرنج توسيعاً وتوطيداً لسلطة الفرنسيس بل المسيحيين كلهم اجمعين في شواطي افريقية حيث ظهر من غلو السكان الاصليين في دينهم ما طمس معالم ديانة اعدائه . واني رافع اليكم هذا التقرير رجاء امعان النظر فيهِ وفي نتائجه

وكانت اعمال دي لامور يسيير تلاقي لدى الماريشال بوجو معاكسة ظاهرة جهرية لانهُ كان يضاد كل مشروعاته ويخبط في حاضرة الجزائر جميع تقريراته و بالجملة كل الاوامر الواردة من الوزارة اجابةً لطلب دي لامور يسيير كما جرى في بناء قلعة و بيوت في « جامع غزوات » وحوضاً

في مدينة المربى الكبير . — وكان دي لاموريسير يتغيظ ويستاء من جراء هذه المعاكسات وقصارى الامر انهُ لما رأى عدم امكان تبديل هذه الحال بسوى تداخله الذاتي في ذلك استأذن في قدوم فرنسا واناب عنه في ولاية وهران الجنرال كاڤنياك وانما اراد بهذا العمل الانتظام في عداد اعضاء ندوة نواب الامة وفقاً لما كان اقرباؤه يستدعونه اليهِ من قبل وهو ان يكون في جملة النواب المشار اليهم وما كان ليجيب سؤلهم بداعي صغر سنه وانخفاض منزلته اما الان وقد اصبح من اشهر قواد فرنسا وهو ذو رتبة فريق وقد ادار امور ولاية وهران مدة ست سنوات وعدة اشهر ودبر شؤون المستعمرة كلها زمناً طويلاً على ثلاث دفعات وقد بلغ الحادية والار بعين من سنيه ودرس مسائل الاستعمار درساً حقيقياً فيمكنه ان يظهر في ندوة النواب مظهر رجل حرّ مقدام يلتقي الامراء والوزراء ويخاطبهم ويبين اراءه ويسندها الى خبرته وحكمته فكان خليقاً بهِ بل لا بدَّ لهُ ان يجالي بخواطره مكاشفاً حباً بمستقبل فرنسا ومستعمرتها ولهذا فرح اصدقاؤه وذووه واستبشروا بقدومه وطابت لذلك نفس الملك وانفس وزرائه تروعاً الى خضد شوكة الماريشال « بوجو » وادناء لاجل اقالته من حكومة الجزائر العامة

الفصل الثالث عشر

دي لاموريسيير نائب في ندوة الامة

اتى دي لاموريسيير باريس اواخر صيف سنة ١٨٤٦ بعد ان غاب عنها منذ سبع سنوات لم يدخل فيها ارض فرنسا فوصلها قبل اوان انتخابات مجلس النواب بمدة قليلة وكان الجميع يتساءلون عن الحزب الذي ياخذ باخذه ويجتمع تحت لوائهِ وعن ماهية المبادىء والمشارب التي ينصرها . اما هو فكان تشاغله بمصلحة الجزائر ومستقبل وطنه يمنعهُ من الاهتمام بنزعات الاحزاب وكتب في ال٢١ من ايار لاحد اصدقائه ما ياتي

« صديقي العزيز : انت تعلم تاريخنا واتعابنا منذ ست عشرة سنة فان كل حروبنا ووقائعنا منصرفة الى طلب اراضٍ في ولايات الجزائر واسعة الى حد الكفاية بحيث لا تصلها نيران الحروب ليطمئن المتمولون واصحاب المصالح بالاً وها انَّا قد ادركنا هذه النتيجة منذ عدة سنين ولم نجد

حتى اليوم تقدماً في الاعمال والزراعة مع كثرة الخصب في الارضين وحسن جودة الهواء هناك وأمن تصريف المحصولات لتعدد جيش الحلول على مائة الف جندي وسكان المدن واهل الحضارة ينيفون على هذا العدد فالارباح ولا شك تكون موفورة مقدورة للمزارعين ومع هذا كله لا نرى احداً ياتينا فحالتنا في افريقية سيئة جداً ونحن باجمعنا خائفون من عواقبها اذ لو توقعنا شبوب حرب بيننا وبين الانكليز فلا نأمن في الجزائر ان نهلك جوعاً عن آخرنا

فهذه الخواطر والافكار الحقيقيـة التي لم تفارقني منذ سنة ١٨٤٠ قد شيبتني وارقتني عدة ليال طوال وما زالت تساورني كل دقيقة. وبالحق اننا جديرون ان لا نصف انفسنـا بالحول والقوة والقدرة الكافية لحماية الجزائر مستعمرتنا وحفظها كما يجب ما لم نصر قادرين فيها على أن نتناول منها جميع حاجاتنا المعاشية الكافية وللجيش ولسائر اهالي المستعمرة ولهذا يجب اتخاذ جميع الوسائط لاستقـدام الفرنسيس خصوصاً وسائر الاوربيين عموماً الى الجزائر واستعمال اراضيها واستيطـان مدنها احياء لسهولها وحقولها وتقوية للعنصر الاوروبي

واذ قد استولينا الآن على ثلاثة ارباع المستعمرة وابعدنا اخطار الحروب عن اكثر المدن فيها فلا خوف ثمة على المستعمرين من شبوب الحرب او الثورة. ولست اقول بنهاية الحرب الآن لانها تبقى بحكم الضرورة ما دمنا على حدود الهمجية وتلك حقيقة اثبتتها التواريخ باسرها فها ان الانكليز لا يمر عليهم يوم في الهند خلواً من محاربة مع انهُ قد مضى اكثر من مائة سنة لتبوئهم ارضها. والروس ما برحوا يقاتلون في جبال القوقاس بعد ان وطأوها وداخوها منذ اكثر من قرن. فالحرب اذاً هنا لم تنقض ولكننا ابعدنا نارها عن قسم كبير من المستعمرة فيجب السعي في استـثمار اراضي هذا القسم والاكثار من السكان فيه. وقد اختبرت في هذه السبع عشرة سنة صواب عمل الاسبانيول اذ طردوا بقايا المغاربة من بلاد الاندلس

فها انذا اسأل مجلس نواب فرنسا ادخالي في عداد اربابه وما اجهل المصاعب التي تحول دون الوصول الى ذلك خصوصاً واني غير عارف بالاساليب والطرق التي تظفرني بغالبية اراء المنتخبين. ولكن حسبي ان اقول بان اقصى غاية اريدها بدخولي ندوة النواب وانتظامي في عدادهم عاملاً بينهم يكون مظهر انتصار وفوز لكل ما فيه خير الامة وتحقيقها بقطع النظر عن نزعات الاحزاب وتضارب اغراضهم وتباين آرائهم بل محجتي نجاح جميع المساعي الآيلة الى فلاح المستعمرة الجزائرية وزيادة خيراتها

وتوطيد سلطتنا فيها

اعلم علم اليقين بان الندوة النيابية وما هي الاحزاب الغالبة فيها وهذا رأيي في كل منها : انهُ لما كان كل من حزب الملكيين (حزب الفرع الاول الملكي وقتئذٍ) وحزب الجمهورية وحزب الامبراطورية مخالفاً للهيئة الحاكمة الحاضرة وطالباً اركاسها ومحوها لم يكن من وجه للالتفات اليها او الاتفاق معهـا وانما ينبغي وقاية رجالها وعمّالها تحت ظلال ألوية الشرائع الحاضرة ما داموا لا يأتون باقلّ حركة عدوانية

واما حزب الحكومة الحالية فينقسم الى ثلاثة اقسام اولها ينتسب الى الموسيو اوديلو ن بارو (وزير فرنسوي ورجل سياسي شهير) وهو ليس بذي شأن كبير من حين عجز ان يشكل وزارة من رجاله والثاني يعزى الى الموسيو كيزو (مؤرخ ورجل سياسي فرنسوي شهير جداً كان من اشياع البروتستانية وتوفي سنة ١٨٧٥ والثالث ينتمي الى الموسيو تيارس (رجل سياسي شهير في فرنساوهو اول من تولى رئاسة الجمهورية الحاليـة وتوفي سنة ١٨٧٣ ومهما اختصم هذان الحزبان الاخيران وجاهر حزب تيارس بالعدوان والشحناء لحزب كيزو المتولي الوزارة لهذا العهد فلا شك عندي انهما على وشك اتفاق في الاراء والاميال

ولما وصل لاموريسيير الى باريس ما لبث ان لقي الموسيو كيزو ثم الموسيو تيارس ولكن لم يفلح باستمالة كل منهما اذ انهما طلبا منه الانتماء الى حزب من الاحزاب والا فانهما لا يساعدانه في مسألة الانتخاب . فتقدم دون اكتراث بذلك الى المقاطعة الاولى من ولاية السين في بغية انتخابه نائباً عن سكانها في الندوة الشعبية فلم ينجح سعياً ثم سعى فاخفق لدى منتخبي ولاية المان واللوار لانهم اثروا عليهِ رجلين من اشياع الملكية الشرعية وهما صديقه القديم الكونت دي كاتر بارب الذي رأيناه متابعاً الماريشال دي بورمون حين انفصاله عن قيادة الجيش والكونت دي فالو . ونهض الحزب الكاثوليكي ايضاً لمضادته ومقـاومته فاخذت جريدة الاونيفر (وصاحبها ومحررها الكاتب الشهير لويس فيليو) تنشر عنه الانباء الدالة على بغضه للكنيسة والدين ومقاومته لرجال الاكليروس في الجزائر فاندفع حينئذٍ إسقف الجزائر وكهنتها باجمعهم يكذبون تلك الرسائل ويعددون المساعدات التي كانفهم بها والكنائس التي بناها واختتموا تلك المقالة بهذه العبارة : ونطلب من صميم الفؤاد ان تصير معاملة مستشفيات حاضرة الجزائر وفرنسا نفسها باعتبار المعنى الديني مثل

مستشفى وهران

فهذا ما يبين ان جميع الناس تقريباً على اختلاف المشارب والاسباب كانوا اضداداً في مسألة انتخاب لاموريسير وكانت مضادتهم له تشتد وتقوى لكونه قائداً غير منسوب الى احد الاحزاب فيعاونون على انتخابه . ولكن كان له بعض اصدقاء مثل الكونت الكسيس دي توكفيل ولانجوينه وبينو وغيرهم ممن كانوا في الندوة النيابية باسم حزب « المستقلين » اي غير التابعين لاحد من الاحزاب فطفق احدهم وهو الموسيو كوستاف دي بومون يسعى في تسهيل انتخاب دي لاموريسير وذلك انهُ وقع انتخاب الموسيو دي بومون المشار اليه في مقاطعتين معاً فرضي ان ينوب عن احداهما وطلب الى منتخبي الاخرى قبول لاموريسير نائباً عنهم بدلاً منه فاجابوا طلبه . وهكذا انتظم لاموريسير في ندوة النواب

فمما سبق يعلم القارىء سقوط حال شعب فرنسا الادبي اذ إنهُ بات لا يهتم الا بالمصالح المالية والمكاسب المادية دون التفات الى الشهرة الحربية والى شهامة النفس وعظم الافكار السياسية التي كانت عند لاموريسير واكثر رفقائهِ في الجندية يشهد على اباء النفس والشهامة ما حدث قبل ذلك بسنتين مع بليسيار الذي كان في خدمة دي لاموريسير وهو ان هذا الضابط لما كان حاكماً في مقاطعة مستغانم اهدى الى اصطبلات الدولة حصاناً مسنًّا بشرط ان يأخذ بدلاً عنهُ مهراً اصيلاً ولما لم يكن هذا الشرط مصرحاً بهِ رفض المأمور الملكي ان يعطيه المهر فبلغ لاموريسير الامر فعرض على بليسيار إستبدال المهر بفرس مأخوذة من العدو فاجابهُ الضابط المذكور بما يلي :

« سيدي القائد — قد وقع في يدي كثير من الافراس ولكني كنت اعتقد انها للبلوكات التي فقدت خيلها وللضباط الذين قتلت جيادهم في الحرب . فمهما كانت رغبتكم في اصطناع المعروف اليَّ باهداء الفرس فانني مضطر ان لا اقبلها آسفاً لحسبانكم اياي موضعاً لمثل هذه المطالب الشخصية حالة كوني غرس يدكم متشرباً مبادئكم الشريفة اني لثابت لا انفكُّ عن تلك العهود ثباتي على تعلقي بشخصكم النبيل واظن ان سابق اعمالي شاهد كافٍ بذلك »

وبالحق فان بليسيار قد برهن على هذه الصداقة في مستقبل الايام باشد مما برهن في الزمن السالف

ولما كانت مدة اجتماع النواب لم تزل بعيدة الموعد عاد لاموريسير الى وهران اول كانون الاول سنة ١٨٤٦ فبلغه حين وصوله اليها رضى الامير عبد القادر بردّ من بقي عنده من الاسرى

بفدية من المال فسرّ جدًا لهذا الخبر خصوصاً لعدم انتظاره اياه . وقد اخبر الضابط دي كستيلان احد اركان حربه عن رجوعهم الى وهران بعبارة شائقة ضمنها وصف ما ابداه الموسيو دوزان من الشهامة والاقدام في سبيل اتمام تلك المخابرات وما تجشمه من الجوع والعطش والتعب والتعرض للاهوال وخطر الموت في وسط القفار بين معسكر الامير عبد القادر ومعسكرات الفرنسيس .

ثم رجع الاسرى المذكورون آخر الامر الى « المرسى الكبير » فاستقبلهم لاموريسيير ومن حوله جميع اركان حربه وفرق الجيش مصطفة والموسيقى الجندية تصدح باحسن الالحان وهذا المظهر كان من اعظم الدلائل على فقر الامير عبد القادر وشدة عوزه وعدم امكانه معاودة الحرب في تلك السنة . واخذ لاموريسيير يطوف في مقاطعات ولايته زائراً جميع مدنها من اقصاها الى ادناها مسهلاً اعمال المستعمرين من الافرنج معززاً للعنصر الفرنسوي آمراً بجميع المشروعات التي من ورائها منفعة المستعمرة ومجد الدين المسيحي وما يضمن صحة المستعمرين . وبعد ان ارسل النظر في جميع امور ولايته واصلح كل شوؤنها رجع الى فرنسا في شباط سنة ١٨٤٧ لحلول اجل اجتماع نواب الامة في باريس . وكان في كل مرة يغادر الجيش واتباعه ويعود الى فرنسا يشعر بوحشة وحدته لانه كان اصبح وحيداً منفرداً في هذه الدنيا لا لم له ولا شقيق ولا شقيقة يقضي واياهم احسن اوقاته وبعض دقائق من الراحة فعزم حينئذٍ على الزواج لاسيما وانه بات لا يتوقع شيئاً من مزيد الملل والضجر . وقد رأيناه من قبل قد ابى الزواج طمعاً في الغنى والفخر وكان يبحث عن فتاة تقية نبيلة ميالة الى عيشة العزلة والخلاء تجافياً عن زخارف الدنيا واباطيل مجدها فالتقى ما تمناه وذلك انه كان في السنة السالفة تعرف عند نسيبته دوقة دي قيلار بفتاة تدعى اميلي اوبرڤيل قريبة صديقيه الكونت دي بوموَن المذكور والموسيو لاكيش ولهذا تمكن من روءيتها عدة مرات . وكانت امها قد آمت من زوجها (اي صارت بلا بعل) منذ زمن طويل وهي ابنة مدام « دي مونتاكي » وحفيدة مدام دي نوايل اللذين قتلا ايام الثورة فمن هنا يتبين انها كانت من اشرف السلالات الفرنسوية واعرقهن في الدين والتقوى وكانت قد ربت اولادها على مبادىء اجدادهم فنشأوا مقتفين آثارهم وزادوا مآثرهم ومفاخرهم التالدة بطارف اعمالهم وكان في عداد انسباء ام الفتاة الضابط البلجكي المذكور آنفاً وهو الكونت دي ميرود . فاقدم دي لاموريسيير على طلب الاقتران بتلك الفتاة النبيلة فاجابته الى طلبته فاستدعيا الاب دي راڤينيان الخطيب

اليسوعي الشهير الى تلاوة صلوة الاكليل فلبي وبارك عقد زواجهما في ٣٠ نيسان سنة ١٨٤٧

وفي تلك المدة لم يكن دي لاموريسيير يتوانى في تدبير شؤون ولايته وكان يقرأ بامعان نظر ما كان يكتبهُ لهُ نوابهُ فيها وكان ايضاً يحضر جلسات الندوة النيابية ويباحث في امور استعمار الجزائر . ولكن خشي ظهور العداوة بينهُ وبين قائده الماريشال بوجو فلم يرضَ الانتظام في اللجنة المعهود اليها نقد مشروع الماريشال المشار اليهِ في سبيل استعمار الجزائر . ثم آتاه الزمن فارتقى منبر الخطابة في ندوة النواب واندفع يبسط ابانه غير هائب في بيان احوال الجزائر وترتيبها وتقسيمها وامور قبائلها وما يمكن للفرنسيس من طرق استخدام اهليهم وتحضيرهم وتنسيق شؤونهم وجعلهم تحت احكام الشرائع الفرنسوية مبيناً باوضح البراهين فساد قول القائلين بالتنكيل بالقبائل وقرضهم واستئصالهم عن آخرهم والانكار على الحكومة في انشاء الطرق الحديدية واحداث الاسلاك التلغرافية واختطاط القرى الجديدة وتسهيل الاستعمار للقادمين من الافرنج وارجاع الحكومة فيها الى هيئة ملكية ايان امكن ذلك دفعاً للاستبداد العسكري

ثم نهض على اثره رفيقه القديم الكونت دي كاتربابه وكان كما نوَّهنا بهِ شديد الاستمساك بعرى الديانة الكاثوليكية فابان للندوة النيابية ان على فرنسا ان تتم اعمال الملك القديس لويس التاسع في الجزائر اذ ان هنالك لمجالاً واسعاً لتوسيع نطاق الديانة . وشكر للقائد لاموريسيير مساعيه في ايجاد الكهنة والرهبان والمستشفيات الدينية في الجزائر وشدَّد النكير على الوزراء الساعين ابعاداً لمن يحسن التكلم بالعربية من الكهنة عن الجزائر ولامهم على وزير الحرب اقدامه على نزع الصليب المقدس من قاعة المستشفى الكبير في حاضرة الجزائر بانه قال :

« ان الدين وحده يتكفل بتنمية المستعمرة الجديدة واحيائها ولا يغني عناء الفرنسيس فيها شيئاً خلواً عن الدين »

ولما فرغ من الخطابة صفق الجمهور بالايدي استحساناً لخواطره وآرائه وآراء القائد وصدق المجلس على طلبهما اذ كان ذلك يخضد من شوكة الماريشال ويبطل عنفوانه تخلق جداً واستقال من المنصب في شهر ايلول سنة ١٨٤٧ فاقلهُ الملك واسند القيادة العامة وولاية المستعمرة باسرها الى نجل جلالته المحبوب وكان عمره اذ ذاك خمس وعشرون سنة فقدم لحاضرة الجزائر وعاد القائد لاموريسيير الى وهران واخذ يجيب على ما كان يسألهُ اياه الامير الوالي المشار اليهِ ملتجئاً في القيام باعباء

لمستعمرة الى خبرة القائد المحدث عنهُ وفطنتهُ ودرايته وسمو مداركه يترتب على هذا التشاور والتآمر نفع عظيم وما اكثر ما افادت متابعة الامير الوالي دي لاموريسير على آرائه الصائبة واقواله السديدة

الفصل الرابع عشر

استنسار الامير عبد القادر

وكانت المستعمرة منذ اكثر من سنة في راحة تامة الاّ ان كل من فيها من امراء وقوّاد وسكان كانوا غير مطمئنين بالاً لاستقرار الامير عبد القادر متبوئاً مكاناً على الحدود خصوصاً وانهُ كان ذا مظهر من الفوز مدة اقامته بتخوم مراكش ولكنهُ لما كان قد مُني بمحنة الاختلاف الذي وقع بين بعض اتباعه وقبائل الريف وهم من احمس الرجال في مراكش لم ينشب ان حاربوه وشكوه الى سلطان مراكش فانفذ انجاله في ثلاثة جيوش جرّارة لمطاردته ومضايقته وبعث الى قائد « وكدا » والقبائل المجاورة ان يقبضوا عليه فارسل « اي الامير عبد القادر » وكيله ابا حمده الى سلطان مراكش واصحبهُ هدايا وتحفاً ورسائل يظهر لهُ فيها خضوعه وطفق في الوقت نفسه يراسل حاكم الجزائر والقائد لاموريسير انهُ يريد الصلح . وعند ابتداء هذه الحوادث نهض دي لاموريسير من وهران في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٤٧ ووصل الى جامع غزوات المدعوّة الآن نيمور ومعهُ اكثر من خمسة الاف جندي مشاةً وفرساناً وعسكر بهم على الحدود في « سيدي وسيني » ليكون على مقربة من حامية « وكدا » المراكشية ليظاهرها على الامير عبد القادر وكان اذ ذاك في موقف حرج كثير الاخطار لان سلطان مراكش قد تجهم لرسولهِ ابي حمده وألقاه في السجن وجرد الامير من الالقاب الدينية وهي « حاج وسيد ومرابط » وامر جميع المسلمين بتركهِ وحشد الجيوش للفتك به فلما دنت منهُ وتولاه اليأس والقنوط نجاةً وتخلصاً من شرهم صمم على البيات ففاجأهم في الليل بين ١١ الى ١٢ كانون الاول واوشك ان يظفر بهم لولا ان المراكشيين قد اوقعوا بجنده غداة ذلك اليوم اشد الايقاع وهم على اشد حال من الاعياء تعباً . فلم يبقَ في وسع الامير بعد هذه الهزيمة سوى الفرار الى الجزائر

فشرعت اسرته وحاشيتـــه وحشمه ورجاله يعبرون نهر الملويا في الـ ۲۰ او الـ ۲۱ من كانون الاول ليلاً وهم عرضة لرصاص المراكشيين فما اتى الصبــاح حتى عبروا طراً وفروا الى اراضي الجزائر ولاذوا بمعسكر دي لاموريسيير مستسلمين باجمعهم خاضعين له ولامته

اما الامير عبد القادر فامسى بعد هاتيك الليلة الهائلة لا يدري اين يذهب فارسل لاموريسيير كتيبتين من الفرسان السباهية في اوقات مختلفة وجه اولاهما الى رأس مضيق على الحدود والثانية الى وسط المضيق ثم ما لبثوا ان صادفوا الامير وهو عازم على الفرار الى الصحراء فقطعوا عليه خط الطريق وحمي وطيس الوغى بين الفريقين ولما بلغ لاموريسيير ذلك اسرع بفرسانه لانجادهم وبينما هو في الطريق اتاه « ابو خوه » احد قواد الامير واثنان من اعوانه حاملين ورقة من سيدهم ليس عليها الا ختمه لعدم تمكنه من كتابة شيء فيهـا بداعي شدة المطر والريح فارسل له لاموريسيير سيفه وواعده من نفسه عهد الامان المؤكد غير مقيد بشرط ولم يمكنه ان يكتب شيئاً لكثرة المطر . وعند المساء ورد رقيم من الامير يحمله اليه صهره مصطفى بن تامي . وفي اليوم التالي جاء الامير والتقى بطليعة العساكر الفرنسوية قرب محلة سيدي ابرهيم (محل موقعة في السنة ١٨٤٦ السالفة كما ذكرنا) فحيته الجنود التحية العسكرية ووصل مساء مع امير الالاي « مونتوبان » الى « نيمور » حيث التقى بنيي لاموريسيـــير فدفع له سيفـه ايذاناً بالاستسلام والاحترام اذ لم يبق له به حاجة . وفي الغد وصل الدوق دومال آتياً من حاضرة الجزائر فقدم له لاموريسيـــير الامير النبيل وسيفه المذكور فقابله قاطباً منقبضاً واوجز في مكالمته واعداً اياه بانجاز وعد لاموريسيير اياه وبعث بالسيف الى زوجة هذا القـائد قائلاً لها « ان زوجكِ هو علة هذا الانتصار الوحيد ونهاية الحرب »

حاشية

وبما ان ذكر هذا الامير الشهير الباسل المغوار لا يرد بعد هذه المرة في تاريخنا لاق بنا هنا ان نلمع الى تتمة ترجمته فنقول انهُ سنة ١٨٥٢ اطلقهُ رئيس حكومة فرنسا الجمهورية من حبس القلعة المذكورة وكان اذ ذاك على منصب الرئاسة نابوليون الثالث ثم صار امبراطوراً واذن له ان يقيم في « بورسه » من ولايات الاناطول العثمانية ثم سنة ١٨٥٧ انتقل الى دمشق الشام برخصة

وفي الـ ٢٤ من كانون الاول بعد الظهر ركب الامير عبد القادر باخرة لوصلته الى المرسى الكبير وما لبث ان سار بآله وبعض قادة رجاله الى فرنسا فما كان من لويس فيليب الملك الا ان الجى انجاز وعد لاموريسيير والدوق دومال وأمر بجعل الامير عبد القادر وآله وحشمه في قلعة مدينة « بو » ثم جعلوا في « امبواز » حيث لبثوا مدة اربع سنوات

اما الحكومة الفرنسية فبدل ان تقدر هذا الحادث قدره طفقت تلوم دي لاموريسيير لعدم اخذه الامير عنوة واقتدارًا وآخر ما كان ان هذا القائد اضطر ان يرتقي منبر الخطابة في ندوة الامة مدافعًا عما فعل ذاكرًا الاسباب التي كانت تمهد للامير عبد القادر سبيل الفرار والتخلص واختتم كلامه قائلًا « فعلى مَ الجدال انما الامير عبد القادر رجل واحد والاحوال لم تزل كما كانت فان كنتم تتفضلون حريته على الشروط التي خولته اياها فاطلقوه ثم خذوه اسيرًا عنوةً واقتدارًا ان استطعتم »

وقصارى الامر ان الملك لويس فيليب انعم بعد اكثر من شهر على القائد دي لاموريسيير بوسام جوقة الشرف من الطبقة الثانية (كران اوفيسيه) وفي اواخر شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٨ ترك لاموريسيير ولاية وهران مفوضًا ولايتها الى كافنياك وقصد باريس للانتظام في ندوة النواب ولكن حدث ما سنذكر من الحوادث انه لم يرجع الى وهران بل هجرها ما بقي من حياته بعد ان اقام بها مدة سبع سنين فاكثر واليًا عليها وقائدًا لجنودها وبعد ان قضى اكثر من عشر سنوات في سائر

من الامبراطور المشار اليه وكان قد عين له راتبًا سنويًا رابيًا جدًا ومما اشتهر به الامير المنوه بقدره الرفيع اياديه البيضاء واثاره الغراء اثناء حوادث دمشق سنة ١٨٦٠ وما زال النصارى في هذه الديار يذكرون تلك الآثار الجليلة فيشكرونها كل اين وان

وما برح مظهر فضل ومصدر بر واحسان حتى توفاه الله في دمشق سنة ١٨٣٨ وله عدة انجال انجاب منهم حضرة الامير الهاشمي المقيم الان بفرنسا وحضرة الامير محيي الدين باشا احد حجاب ياوران حضرة مولانا السلطان الاعظم وحضرة الامير محمد باشا — وكان قد حاز سنة ١٨٦٠ وسام « جوقة الشرف » من الطبقة الاولى واحرز اعظم علامات الشرف والفخر الامبراطورية رحمه الله تعالى « انتهت الحاشية »

المستعمرة الجزائرية دخلها ملازماً وهو في الـ ٢٤ من سنيه وغادرها فريقاً شهيراً وبطلاً مغواراً وقد جاوز الـ ٤٢ من عمره فلنرسل نظرة تاريخية على ما كان من شأنه في مدينة باريس وما حدث هناك من الامور .

الفصل الخامس عشر
ثورة شباط ومعارك حزيران سنة ١٨٤٨
دي لاموريسيير وزير الحربية
بداية المسألة الرومانية

كان يظهر لجميع الناس في بدء عام ١٨٤٨ ان كرسي الملك لويس فيليب موطد الاركان في مملكة فرنسا وان لعيرته آخذة بمجامع قلوب الامة وان تاجه من بعده يكون لسلالته الملكية وكان الناس فرحين جذلين بمظهر حالة اوربا واثقين بدوام السلم فيها آمنين وشك شبوب الحرب طامعين في عودة الحرية وانتشار النظامات والاصلاحات في كل مكان وكان الملك لويس فيليب منشرح الصدر لما يراه من تضافر انجاله على القيام بخدمة الممالك وجمع القلوب على حب ذريته ولكن ما كان كل ذلك ليوطد اركان حكومة قد قامت على مبادىء الثورة والغدر وما كان لويس فيليب ليستطيع ان يعود الى المبادىء الشرعية ومقاومة اهل الفوضى لانه ادرك الملك بقوة الثورة وتعذرت عليه مجاراة مبادىء الحزب الايسر لان بذلك اضمحلال المملكة وعترته .

واتت سنة ١٨٤٨ وازمة مهام المملكة في يد وزارة المسيو « كيزو » منذ اكثر من سبع سنوات وقد اصبحت اي الوزارة هدفاً لسهام جميع الاحزاب دون ان تنتبه الى اصلاح سياستها واسترضاء اعدائها ما امكن شيئاً فشيئاً وما خلا ذلك فان كل الاحزاب كانت مجمعة على احتقار هذه الاسرة المالكة لعدم حسن سياستها وسوء سبب توصلها الى العرش . وقد رأينا ان دي لاموريسيير لم يكن متشبثاً بآراء اي كان من الاحزاب وانما كان مراعياً مجرى الحوادث طلباً للنتائج الحسنة في سبيل نمو الحرية وتقوية السلطة الموافقة روح الشعب .

ثم لما آل اعداء الوزارة الى اليأس والقنوط من الحصول على الفوز باغلبية الاراء في الانتخابات

العمومية لندوة النواب عالنوا الشعب ورعاع القوم والاشتراكيين بالعزم على عقد منتدى حافل واتخاذ مأدبة عظيمة في باريس في ٢٢ شباط سنة ١٨٤٨ فمنع رجال البوليس هذا الاجتماع فشغب الشعب ونهض وتحول ذاك الاجتماع الى هياج ثم الى ثورة وانضم الحرس الوطني اليهم غير متفطنين الى ما يعقب هذا العمل من ثل عرش الملك لويس فيليب المحبوب عند الشعب . ثم عم الشغب في الشعب واضطربت المخافر العسكرية المنبثة في انحاء المدينة ولازمهم النصر مساء الـ ٢٣ من شباط اوكان اكثر الثائرين لا يطمعون حينئذٍ في سوى انقلاب الوزارة وقد بلغهم في ذلك المساء اجابة الملك طلبهم واقتراحه على بعض زعمائهم تأليف وزارة جديدة فناموا على خيلوا فرحين مستبشرين بانتصارهم

ثم في تلك الليلة عينها ازداد القلق والاضطراب وطفق اجواق الفوضويين واخلاطهم يطوفون في باريس لاغطين ضاجين ضجيجاً عالياً مستنفرين الشعب الى الثورة وشرع الاهلون قاطبة يهيئون السلاح ويقتلعون بلاط الاسواق ويحصنون الشوارع والازقة وينتهبون مخازن الاسلحة ويأسرون رجال المخافر وما طلع فجر الرابع والعشرين من شباط الا وباريس باسرها في حال الهياج والاضطراب شاغرة برجلها ولما اصبح الملك وعلم بما جرى من الهياج هاله الامر وجعل لضعف رأيه يحاول درء النازلة سالكاً الى درك بغيته طريقاً وسطى فانهُ فوض من جهة قيادة الجيش في باريس الى صاحبنا الماريشال « بوجو » واخذ يراسل زعماء الفتنة وطلب الى الموسيو تيارس والموسيو اديلون بارو ان يشكلا وزارة جديدة فانطلق ثانيهما لاقناع الثائرين بالرجوع الى السكينة واعلمهم بتبدل الوزراء وارسل الاول من يدعو لهُ الجنرال دي لامور يسيير سريعاً ولما اتاه عرض عليهِ وزارة الحرب فلم يرضها بل طلب منصباً في الجيش الذي بامرة الماريشال معلناً استعداده التام للسلوك بموجب اوامره فاعطوه قيادة الحرس الوطني فاخذ رداء اميرالاي من ضباط هذا السلك وعاد الى الشعب ليسكن هياجهم وينشط عساكره . ثم رجع الى الملك واخبره بتعذر منع الاضطراب وان خلوه من جيش منظم لا يمكنه منع هجومهم على القصر ومن ثم عاد الى الحرس الوطني وفيما عاد أطلق عليه الثائرون عدة قذائف نارية فلم تصبه وضربه احدهم بسيفهِ على ذراعه اليمنى

اما الملك فانهُ خرج من القصر ليستنفر جماعة من جنده في الساحة فلم يخفر احد منهم فعاد غاضباً قاطباً واليأس ملء قلبه فاشار عليهِ الموسيو تيارس بالاستقالة وترك الملك لحفيده

الكونت دي باري (وهو الذي توفي منذ ثلاث سنوات تاركاً حق الادعا بالملك لنجله الدوق دورليان) مع جعل الوصاية عليه لامهِ الدوقة دورليان فاذعن الملك لهُ في ذلك غير مبالٍ بمعارضة زوجته الملكة ماري اميلي اذ كانت تشير عليهِ بالتجلد على الامر حتى آخر رمق من حياته ذبًا عن ملكهِ ولما فرغ من كتابة صك استقالته أُخذ منهُ واذيع كمنشور في جميع انحاء العاصمة « باريس » فلم يحدث توزيعه شيئاً من التأثير و بلغ ذلك الى القائد دي لاموريسيير فحاول ان يفرق الجموع المسلحة و ينزع السلاح منها بعد اعلانه الخبر المذكور والمناداة بهِ بينهم فتكنفه الفوضويون من كل جانب وخانهُ الحرس الوطني فجرح وكان على وشك ان يُذبح و بعد ان اعتقلوه ساعتين اطلقوه وارسلوه الى منزلهِ

وفي تلك الايام بعد ذهاب امر لويس فيليب وزوال ملكه ان الموسيو تيار فرَّ على عربة مخصوصة وتباعد الماريشال بوجو تاركاً ثوبهُ العسكري وركب الملك عربة مع قرينته واصغر انجاله الدوق دي مونبانسيه ورافقهُ امير الاي الفرسان الدارعين وبعض فرسانه واستفحلت الفوضوية وعمت المدينة دانيها وقاصيها حتى كان الثائرون ينتزعون اسلحة الجنود بلا معارض ويلمون في الجيش استصغاراً واحتقاراً ويضربون افراده مستحوذين على المخافر والثكن « مراكز الجند » وما زالوا لاغطين شاغبين حتى توثبوا على ندوة الامة وانزلوا في النواب ورئيسهم ضروباً من الاهانة وألواناً من الضرب وجرحوا كثيراً منهم وتشتت شمل آل الملك واصحابه وآل الامر الى ان ذهب خمسة او ستة من النواب عن الشعب الى الاوتيل دي ڤيل ونادوا بالجمهورية وانشأُوا حكومة موقتة واخذوا يسعون في ترتيب وتنظيم دوائر الحكومة الجمهوريَّة وارسلوا يدعون دي لاموريسيير اليهم ليقلدوه منصب وزارة الحربية فوصل الى الاوتيل المذكور وهو على وشك ان يقتل ذبحاً بايدي اهل الفوضى المنبثين في شوارع باريس ومثل قائماً في نادي رجال الحكومة الموقتة وجاهر باباء وزارة الحربية مبيناً عدم مناسبة قبوله واشار عليهم بالقاء مقاليدها الى الجنرال كافنياك وكيله في وهران واصفاً شدة تعلقه بالمبادىء الجمهورية وابان استعداده التام لقيادة الجيش في الحروب التي ربما تشبّ نارها بين فرنسا وجيرانها

ولكن لم يكن رجال هذه الحكومة الموقتة على اتفاق تام في كيفية تنظيم الجمهورية والاصول الواجب اتباعها والعمل بموجبها وكان لامارتين (شاعر فرنسوي من الطبقة الاولى عامئذٍ من

رجال الحكومة الموقتة وهو الذي توفي سنة ١٨٦٩) واركو واصحاب جريدة الناسيونال يحاولون انشاء جمهورية معتدلة المشرب . اما الباقون وهم «لويس بلان» « ولدرو رولين» «والبر» (والثلاثة من دعاة الثورة في فرنسا واعداء الالفة وكان لهم حتى منقضى حياتهم شأن كبير في المحافل الماسونية وكانوا في تلك السنة سنة ١٨٤٨ من رجال الحكومة الموقتة) فاندفعوا يجاهرون بالمبادىء الاشتراكية والآراء الكومونية قاصدين بثها في ارجاء فرنسا كلها وغايتهم تشييد الحكومة الجمهورية عليها فلم يذعنوا لرأي لامور يسيير ولم يكتفوا بمشورته بل وسدوا وزارة الحرب الى قائد خامل الذكر وهو الجنرال « سو برفيك » وجعلوا الجنرال كافيناك وكيل ولاية وهران واليًا عامًا على المستعمرة الجزائرية بدلاً من الدوق دومال « نجل الملك المستقيل » وكان قد خرج من الجزائر ثالث اذار يصحبه اخوه البرنس دي جوانفيل ورفعوا رتبة الوالي العام الجديد من رتبة امير لواء الى الى رتبة فريق وعهدوا بقيادة المعسكر الاول في باريس الى الجنرال « بدو » والمعسكر الذي في مرسيليا وفي ولايتها الى الجنرال دي لامور يسيير فابى وامتنع ثم صار ثامن اذار تلك السنة عضوًا في لجنة الدفاع الوطني الموكول اليها ان تعني باصلاح حال الجيش وتهيئته لمقاومة سائر دول اوربا

ولا يخفى القارىء اللبيب ما كان يتهدد فرنسا ليامئذٍ من الاخطار بسبب تجدد الجمهورية خصوصًا مع العلم بسابق مجاهدة اوربا وتهالكها على اركاس الجمهورية لاول مرة وتقليص ظل سلطة نابوليون الاول . ثم بعد قليل من الزمن دعت الحكومة الموقتة رجال فرنسا كافة على الاقتراع العمومي مفوضة الحق فيه الى كل رجل فرنسوي بالغ حد السن القانوني وذلك لانتخاب مجلس عام واحد فقط يكون عمله سن القوانين والنظامات الموافقة لهيئة الحكومة وخدمة الشعب بموجب المبادىء التي انتشرت سنة ١٧٨٩ فكان بهذه الواسطة عدد المنتخبين عظيمًا جدًا وكان الجنرال دي لامور يسيير في عداد ارباب هذا المجلس اذ انهُ أُنتخب نائبًا عن ولاية السارت فنادى المجلس المذكور مصرحًا بالمبادىء المذكورة واهمها هذه « حرية الاديان . المساواة المدنية . كل سلطة من الشعب » وما بقي يتفرع عن هذه الثلاثة ولكن لما كان رجال المجلس المذكور اكثرهم ميالين الى حب الراحة والعدل والقوانين اصبحوا في اختلاف بيّن في اعمالهم مع هذه المبادىء التي لا يمكن التسليم بها على وجه مطلق . لاسيما وان مدينة باريس كانت حينئذٍ ممتلئة من اهل الثورة والفوضويين والفعلة وكانوا كلهم مدججين بالاسلحة حاصلين على المؤن والاهب الحربية من

قبل قصد خلع الملك المشار اليه . ولما كانوا قد بقوا بلا عمل غير قادرين على اكتساب معايشهم وسوادهم لا يقلُّ عن ١٥٠٠٠٠ الف نفس امسوا مجالب اخطار عظيمة على الامن والراحة . ثم في ١٥ ايار سنة ١٨٤٨ هجموا على المجلس المذكور مقترحين عليهِ استبدال العلم المثلث الالوان بعلمهم الاحمر وبعد قتال شديد انقلبوا بالفشل والخسار . وقد اشتهر الشاعر دي لامارتين بخطابه لهم اذ قال : ان علم فرنسا المثلث الالوان قد ارتفع منتصرًا على ذرى مدن اوربا كلها وعواصمها اما علمكم الاحمر فانهُ تلطخ بدماء ابناء الوطن في ساحة مارس في باريس

ثم لما رأى المجلس ما حف بهِ من المكاره والخطوب لم يجد بدًّا من الاذعان الى اراء الجنرال دي لامور يسيير فوسد وزارة الحرب الى الجنرال كافنياك فجاء من الجزائر وقد خلفهُ فيها على القيادة العامة الجنرال شانكرنيه . ثم اخذ كافنياك يستعد لمنع تجدد الثورة بان حشد الجيش ودججه بالسلاح وكان الفوضويون يحاولون في ١٥ ايار تلك السنة ان ينتقموا ممن قهروهم واذاقوهم ذل الانكسار والفشل سعيًا في تقويض اركان الحكومة الجمهورية واستبدالها بحكومة فوضوية تلائم اهواءهم فاقاموا يتحينون اول فرصة لاتمام ما يرومون من ذلك .

ولما آنس المجلس من الجيش رجوع قوته الكافية اليه ووفرة تأهبه للنزال اصدر امرًا واعلنه في ٢٣ حزيران في الشوارع يطلب بهِ الى كل سكان باريس ترك السلاح وابطال منتديات الفوضي المعروفة بالامكنة الوطنية فرفض اكثر من خمسين الف فاعل الامتثال لهذا الامر وجاهروا بالعصيان وحصنوا الاسواق والازقة والشوارع وانتشروا في معظم انحاء المدينة واستولوا على امنع مراكزها معتصمين بها ورأى ارباب المجلس ما فعلوا فهالهم الامر وخافوا عواقبه فاقترح احدهم وهو باسكال دوبرا جعل باريس تحت الحصار واحكام القوانين العرفية وتسليم السلطة المطلقة الى احد القواد فصادق المجلس على ذلك الاقتراح وفوضت السلطة المطلقة موقتًا الى وزير الحرب الجنرال كافنياك وكان ذلك في الـ ٢٤ من حزيران فتولى الدكتاتور (وهو لقب خصَّ بهِ كافنياك يومئذٍ ومدلوله صاحب السلطان المطلق) الجديد مهام منصبه متناهيًا في الجد والنشاط واصدر اوامر شديدة الى الجند والفيالق وعالن سكان فرنسا قاطبةً بجعل باريس قيد احكام القوانين العرفية والرسل بالتلغراف الى الولايات لحج في المدد . وقسم الجيش الذي في باريس الى ثلاثة جيوش يقود اولها الجنرال (داميم) والثاني الجنرال (بدو) وكلاهما على ضفة الدين اليسرى

مع قلة اتساعها و يقود الجيش الثـالث الجنرال دي لاموريسيير وموقفه الحربي ضفة النهر المذكور اليمنى ودامت الحرب ثلاثة ايام بطولها نهـارًا وليـلًا وهي ال ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ من حزيران وكنت ترى الجنود والفعلة يقتتلون في الاسواق وتسمع اصوات المدافع والبنـادق تدوي دويًا صاخًا في شوارع باريس فتتداعى جدران مبانيها الانيقة الفاخرة وتتهدم آطامها وقصورها الشاهقة

وقد اشتهر كل من هولاء القواد المذكورين خصوصًا دي لاموريسيـير المبرز عليهم حزمًا وتدبيرًا وكان تقدمه في جهته بطيئًا بطئًا لا ريب فيه وهو وحده ثبت سالمًا الى نهاية المعارك واتمّ ما عليه قبل رصفائه اما هم فقد جُرح منهم الجنرال (بدو) وقتل الجنرال داميم فخلفه الجنرالَ (بريا) فاراد بداءة بدء ترك القتال مسالمة ودعا الثائرين الى الطاعة والخضوع للقوانين فاظهروا رغبتهم في ذلك وسألوه ان يحضر ما بينهم لعقد الصلح فاجاب وفي حال حضوره يصحبه احد حجابه (ياوريته) فتكوا بهما غدرًا بعد ان اذاقوهما الوان العذاب ثم خلف هذا القائد على التعاقب القائدان دوفيفيه (وهو الذي ذكرناه في بدء كتابنـا) ونيكريه وكلاهما ذهب قتيلًا في حومة الوغى

وفي اليوم ال ٢٦ من الشهر المذكور دخل السيد (افر) رئيس اساقفة باريس على الحاكم المطلق كافنياك واخبره عن قصـده الاجتماع بالثائرين ومناصحتهم ودعوتهم الى الطاعة والخضوع مبرهنًا ان على الراعي بذل نفسهُ دون الرعية . فاستحسن هذا القصد منـهُ ومدحهُ على عزمهُ بيدَ أن سمي الاسقف قد حبط لاقدام الثائرين على قتله ظلمًا وعدوانًا بعد اذ كانوا قد امنوه على نفسهُ واصاخوا لهُ سمعًا فمات وهو يقول (ليكن دمي اخر دمٍ أُريق في هذه المعارك)

وعند انهيار حرف ذلك النهار تلاقت جيوش الضفتين بعد ان ابادت الثائرين واستولت على جميع مراكزهم . واستمرت هذه الحرب الوطنية الهائلة ثلاثة ايام و بلغت رزاياها خمسة عشر الف قتيل وثلاثين الف اسير من اهل الثورة . اما الجيش فلم يفقد منهُ الاَّ اربعة من القادة وثلاثة الاف من الجند واما جرحاه فكانوا سبعة من القواد وعددًا كثيرًا من الجنود

ثم كتب الحاكم المطلق الجنرال كافنياك الى دي لاموريسيير يهنئه على هذا الظفر والانتصار قال : « اشكرك ياعزيزي فانك ظهرت عظيمًا في اعين الجميع واتيت اعمالاً مجيدة تربو على ما كان يدور في خلدنا في مدة هذه الايام الثلاثة فاشكرك باسم الوطن والجمهورية لانهُ يجوز لي حتى الان ان اتكلم باسميهما »

وفي اليوم نفسهُ كتب دي لامورسيير الى قرينته هذه الكلمات : « قد تمَّ كل شيء بعد حرب هائلة وتعب دائم مدة ثلاثة ايام ليلًا ونهارًا — قد تمَّ عقد الصلح — الحمد لله اني لست مجروحًا ولا مريضًا لكنني قد اضناني التعب » وهكذا انتهت تلك الوقائع الوطنية الدموية التي يخجل تاريخ فرنسا والحريَّة من ذكرها

وفي الـ ٢٧ من حزيران حضر كافنياك الى المجلس وبعد ان قدم التقارير اللازمة في الاعمال التي اتاها هو والجيش استقال من منصب الحكومة المطلقة المفوضة لهُ موقتًا وفي اليوم الثاني اي في الـ ٢٨ من حزيران اجمع المجلس المذكور على اسداء الشكر لكافنياك والجيش لانقاذهم الجمهورية والتمدن من مخالب الثورة وايضًا فانهُ اجمع على تسليم زمام الحكومة الى كافنياك مع تلقيبهِ بلقب رئيس الحكومة الاجرائية وذلك الى ان تتمَّ اعمال المجلس الاساسية ويحصل الشروع في انتخاب رئيس للجمهورية . فتولى كافنياك مقاليد الامور الاجرائية وشكل وزارة جديدة برئاسته الخاصة انتظم فيها دي لامورسيير وزيرًا للحربية فاستمرا وذويهما في منصَّات الاحكام نحو ستة اشهر متوالية — اي منذ الـ ٢٩ من حزيران الى ٢٠ من كانون الاول سنة ١٨٤٨ — اتيا في خلالها اعمالاً خطيرة ولزما خطة الموادعة والمسالمة مع سائر الدول فكفيت فرنسا بذلك مؤنة حرب اوربية مع الدول . الاَّ انهما لبثا متخوفين من تعرض باقي الدول لشؤون فرنسا الداخلية ولما كانت سائر الشعوب اللاتينية والالمانية في اضطراب عظيم اشفق وزير حربية فرنسا من تطاير الشرر الى دولته فاخذ يجهز الجنود ويعبئ الجيوش فامر بتأليف جيش عدده ثمانون الف مقاتل معزز الجانب بكثير من صفوف المدافع على جبال الالب لتكمل لهُ الاهبة في منازلة عساكر ايطاليا حين الحاجة وكان مزمعًا ان يتولى هو بنفسهُ قيادة هذا الجيش واعد جيشًا آخر على حدود الرين يكون بقيادة الجنرال شانكرنيه وذلك احترازًا من مداومة مجاوريه اضمار الشر لفرنسا وتربصهم بها غدرًا . وقد زاد في عدد الثكن ووسع المستشفيات للجنود ورتب الفرق والالوية وجمع افراد الرديف لسنتين تحت السلاح واطال اجل الخدمة العسكرية . ومما يذكر انهُ كان يعتني جدًا في ترقية من رآه مستحقًا في الضباط وقد ابدى الجنرال كافنياك رئيس الحكومة الاجرائية كل نوع من المساعدة لمشروعات وزير الحربية وطفق يستشيره ويعول على آرائه السديدة ويجلُّ مقامه غير ناسٍ ولا متناسٍ انهُ وان كان

هو الان كافنياك يعلوه مقاماً فمع ذلك قد قضى طويلاً من الزمن بامرته وتخرج عليـهِ في الامور حسن التدبير وما كان ليذهل عن ذكرى ولائه وميله اليهِ متفاخراً بدوام حبه لهُ

ومما هو مشهور من هذا القبيـل ان وزير الحرب الجنرال دي لاموريسيير قدَّم تقارير مسهبة الى المجلس في الـ ٢٠ من تشرين الاول سنـة ١٨٤٨ وكان جميع النواب ورئيس الحكومة الاجرائية حاضرين وطالت تلك الجلسـة عدة ساعات دار فيها البحث والجدال بين وزير الحرب والموسيو تيارس احد اعضاء المجلس (وهو رئيس الوزارة سابقاً على عهد لويس فيليب) بخصوص مدة خدمة الجنود وفي اثناء الجلسـة نهض احد النواب المعارضين لوزير الحرب ولفظ الكلام الآتي موجهاً اياه الى النواب :

« انتم تتكلمون عن شجاعة وفضل الجيش ولكن ماذا يبقى من شجاعتهِ اذا كان من جعلتهُ الصدفة وموافقة الاحوال رئيساً عليهِ يغتنم فرصة نفوذه وسلطته ليتخذ الوظائف العالية كباب مفتوح لترويج اهوائه وامياله ؟ »

وكان هذا النائب يريد التنديد ببعض الترقيات كترقية الجنرال بوسكه والجنرال دي مكماهون (وهما اللذان ورد ذكرهما آنفاً وقلنـا انهما صارا بعد مدة من ذلك التاريخ في عداد قوّاد جيوش « مارشالية » فرنسا وقد حققـا ما كان يأمله دي لاموريسيير من معارفهما) اما دي لاموريسيير فلم يحتدم غيظاً من هذا الكلام المهين بل اكتفى بان لفظ بعض كلمات بيَّن فيها ان خدمات هذين الضابطين حملتهُ على ترقيتهما وانهُ يأمل ان يرى في المستقبل ما يحقق امانيه

ثم قام الجنرال كافنياك والحدَّة آخذة منـهُ مأخذها وقال جهير الصوت حتى سمع رنَّة صدى في نادي النواب : « لمن كلمة الصدفة وموافقة الاحوال كانت موجهة الى الجنرال لاموريسيير وزير الحرب ! ماذا تقول ياحضرة النائب . آأنت الذي كنت واياه في سهول افريقية ؟ انت الذي رأى اعمال دي لاموريسيير ولا ترى من حاجٍ الى تقديمه وتقليده ازمَّة الحربية سوى الصدفة والاحوال ؟ اما انا يامواطنيَّ الكرام وقد عرفت الجنرال دي لاموريسيير منذ خمس عشرة سنـة فيحق لي التعجب من امر واحد وهو بقاءه في المحل الثاني والّا في المحل الاول ! » فصفق لهُ النواب جميعاً بالايدي استحساناً معجبين بعظم المودة الجامعة بين الجنرالين وسمو عواطف رئيس الحكومة ومعرفته جميل لاموريسيير

ولما كنا قد ذكرنا اضطرابات باقي الدول وألمنا في بدء هذا الفصل الى المسألة الرومانية لاق بنا ان نلم بذكر حوادث اوربا لذاك العهد اذ ان معرفتها تكون مرقاة للاطلاع على تتمة تاريخ دي لاموريسيير فنقول :

ان الممالك الجرمانية كانت على تعددها وانقسامها الى باڤاريا وسكصونيا وورتمبرج وهانوفر وبادن وهس وغيرها من الممالك والدوقيات الصغيرة لم تزل تحت نفوذ ظل امبراطورية النمسا ومملكة بروسيا وكانت هذه الاخيرة على صغرها قوية متحدة الكلمة ميالة الى ضم اطرافها وجمع قواها لتقرير الوحدة في دولة جرمانيا . اما امبراطورية النمسا فكانت فسيحة الارجاء متسعة النطاق كثيرة صنوف الرعايا صارفة كل نفوذها الى استبقاء الاستبداد والسلطة المطلقة في جميع ممالكها وتغليب لغة الالمان ونفوذهم على سائر الاجيال والشعوب الخاضعين لها كالطليان والمجار والصقالبة ولما حدثت ثورة باريس في شباط سنة ١٨٤٨ قلقت خواطر الشعوب المجاورة لفرنسا وقامت امة المجار تروم الاستقلال فطردت عساكر امبراطور النمسا وثار عليه اهل فيانا عاصمة المملكة طالبين سن قوانين شورية تقييداً لسلطة الحكومة المطلقة وتناهضت شعوب ممالك ألمانيا وامارتها في طلب تبديل القوانين وتعديلها وهاجت شعوب ايطاليا ايضاً خارجة على امبراطور النمسا وعلى قداسة البابا وسائر امرائهم وملوكهم

وليعلم التلميذ قاطبة ان ايطاليا لم تكن دولة واحدة عظيمة كما تدعي لنفسها اليوم بل كانت ايامئذٍ منقسمة الى تسعة اقسام هذه اسماؤها وصفة حكومتها .

القسم الاول البيامونت وجنوى مع جزيرة سردينيا مملكة واحدة بعنوان مملكة البيامونت او الساردو تحت سلطة ملوك من آل سافوا . وكان في ملحقات هذه المملكة ولاية سافوا الداخلة في حدود مملكة فرنسا ـ لانها ألحقت بعد حين بفرنسا وهي الآن خاضعة لسلطتها ـ وكان ملوك هذه الدولة على ولاء واتفاق مع دعاة الماسونية وذوي الافكار الحرة قصد تصيير ايطاليا دولة واحدة تحت سلطتهم . والثاني امارة موناكو الصغيرة (وهي اليوم مستقلة ولكنها داخلة في حدود فرنسا) والثالث بلاد لومبارديا والبندقية وهي واسعة الارجاء ذات مدن عظيمة كميلانو وفينيسيا وكانت من قبل ولاية واحدة خاضعة لدولة النمسا . والرابع دوقية توسكانا العظمى (غران دوقية) وهي مستقلة يتولاها وما قبلها اميران من ذوي امبراطور النمسا والخامس دوقية مودنا المستقلة . والسادس

دوقية بارما واميرها من الفرع الاول البوربوني . والسابع مملكة نابولي او مملكة الصقليتين وملكها من الفرع الاول البوربوني . والثامن جمهورية سان مارينو الصغيرة . والتاسع اراضي القديس بطرس او المملكة البابوية وعاصمتها رومية وكانت بين دوقية توسكانا الكبرى ودوقية مودن من جهة الشمال ويحدها بحر الادرياتيك شرقاً والبحر المتوسط غرباً ومملكة الصقليتين جنوباً . وكان الخالد الذكر البابا بيوس التاسع قد استوى على عرش البطرسية الجليلة الآثار منذ سنة ١٨٤٦ واخذ يدير شؤونها بهمة عالية وعزيمة مستمرة لا يدانيه تراخٍ ولا يدركهُ فتور متوفراً على اعمال حبريته العظمى وضبط زمام مملكتهِ الدنويَّة حتى اذا هبت شعوب ايطاليا من رقدتها نهض شارل البرت ملك البيامونت واجتاز التيسين ودخل ولاية لومبارديا ناصباً حرباً على النمسا (٢٤ اذار سنة ١٨٤٨) وطفق يدعو جيل الطليان الى الاستقلال فانتصر على النمساويين وطردهم من بلادهم واثار القلاقل والمشاغب في الامارات المجاورة وفي مملكة البابا فقام اهل رومية يسألون قداسة البابا المشار اليهِ سوق جنوده لانجاد البيامونت ومقاتلة النمساويين فامتنع وقال « لست اريد ان اكون حرباً لصنف من خلق الله تعالى فانما الكل عندي بمثابة البنين »

وفي تشرين الثاني من تلك السنة ثار اهل الفوضى بمدينة رومية وعلى زعامتهم مازّيني وستربيني وكاليتي واستولوا على ثكنات المدينة ومعاقلها واطلقوا المدافع على قصر البابا واضطروه الى تغيير وزارته بعد ان قتلوا الكونت رومي رئيس وزرائه فسلَّم لهم بكل مقترحاتهم اضطرارًا . وفي اﻟ ٢٥ من تشرين الثاني خرج البابا من القصر وزايل رومية بثوب كاهن رعية تصحبهُ امرأة سفير النمسا والتجأ الى « غايت » احدى مدن ملك الصقليتين وكتب منها محتجاً على جميع ما جرى في رومية وجعل يستغيث بالدول الكاثوليكية كدولة الصقليتين وبلجكا واسبانيا والنمسا ولاسيما فرنسا وكان قد كتب من رومية بيده رسالة الى الجنرال كافنياك يستشيره ويستحلفهُ بصفة كونه رئيس ابنة الكنيسة البكر لمساعدتهِ واغاثتهِ . فانفذ الجنرال دي لاموريسيير وزير الحرب الجنرال موليير في ثلاثة الاف جندي وامرهم ان ينطلقوا الى رومية مع الموسيو كورسل سفير فرنسا الجديد هناك بعد ان استوثق منهم انهم يحافظون على حرّية البابا في رومية وعلى اتمام ارادته والمدافعة عنهُ عند تواثب الثائرين عليهِ ويصحبونهُ في اية وجهة ارادها . اما الجنرال كافنياك فانهُ اجاب قداسة البابا على رسالتهِ بما ضمنهُ جزيل الشكر لهُ لاحسان ظنه بفرنسا والارتياح الى مظاهرتها اياه وتلطف في دعوتهِ الى

قدوم بلاد الفرنسيس ان شاء واستصوب ذلك وما لبث ان انفذ الموسيو قريليون وزير الاديان الى مدينة مرسيليا لاستقبال الاب الاقدس فيها عند قدومه فرنسا

واما البابا فكان قد غادر رومية كما ذكرنا ولكنهُ لم يرضَ المجيء الى فرنسا اذ انهُ كان غير آمن المحذور هناك ابان انتخاب رئيس الحكومة الجمهورية لاسيما وان في جملة المترشحين لهذا المنصب الخطير البرنس نابوليون بونبارت احد زعماء ثورة رعايا البابا الحادثة سنة ١٨٣٢ وشقيق زعيمها الاخر البرنس شارل الذي قُتل في ذاك الحين

الفصل السادس عشر

انتخاب رئيس الجمهوريَّة — الجنرال دي لاموريسيير سفير في بطرسبرج المجلس الاشتراعي

حان وقت انتخاب رئيس الحكومة الجمهورية على فرنسا والمرشحون كثيرون منهم الشاعر دي لامارتين والموسيو راسبايل والموسيو لدرو رولين من الفوضويين على ان اعظم المترشحين لهذا المنصب قدرًا وخطرًا اثنان وهما الجنرال كافنياك رئيس الحكومة الاجرائية الذي كان قد خدم وطنه اجلّ خدمة والبرنس لويس نابوليون بونابرت الذي ذكرناه في آخر الفصل السابق. وهذا الامير هو احد انجال البرنس لويس بونابرت شقيق نابوليون الاول وُلد في باريس سنة ١٨٠٨ واصبح بعد قتل اخيه ووفاة نابوليون الثاني ابن عمه رئيساً للحزب الامبراطوري وكان قد حاول مرتين الرجوع الى الملك في مدة لويس فيليب وقُبض عليهِ وسجن في قلعة هام مدة طويلة ثم فرَّ منها في زي فاعل والتجأ الى اميركا وبعد سقوط لويس فيليب من منزلتهِ بعث من لندرة بنطاقة الى الحكومة الموقتة يطلب فيها حق الرجوع الى فرنسا ويستدعي ترشيحه للانتظام في عداد النواب وذلك في ١٤ حزيران سنة ١٨٤٨ ولما خاف سوء العاقبة استردَّ هذا الاستدعاء ثم عاد بعد حوادث حزيران الى فرنسا وأُنتخب عضوًا في مجلس النواب في الـ٢٦ من ايلول وفي ١١ تشرين الاول نال امرًا بعدم ابعاد الاسرة البونابرتية واقبل على طلب منصب رئاسة الجمهورية مزاحمًا عليهِ الجنرال كافنياك. واما دي لاموريسيير فلما كان يمقت الجمهورية من حيث هي هي اراد بقاء الامر على حالهِ فلم يقدم على الترشيح

للرئاسة المشار اليها وطفق يسعى وذويه لمساعفة كافنياك براده واكثر من تحذير الناس شر لويس بونابرت منذرًا بسوء المصير على تقدير ظفره وفوزه بغيته . وكان البرنس المحدث عنهُ لا يألو جهدًا في استمالة احزاب الملكية الثلاثة وانشأ يتودد الى الكاثوليك حتى انهُ نظم آخر الامر تقريرًا وكتبهُ بخطهِ الى الكونت مونتالمبر رئيس حزب الكاثوليك وفيهِ جاهر بمبادئهِ الدينية وبعزمه على عدم التسليم بزوال سلطة البابا الدنوية ووعد انهُ ايّان انتهى اليهِ زمام المملكة ابتدر اعادتها اليهِ معززة الشأن موطدة الاركان وكانف المبادىء الكاثوليكية في فرنسا

ثم وقع الانتخاب عاشر كانون الاول سنة ١٨٤٨ وكانت عقباه ما تلاه كاتب جلسة ندوته الموسيو والديك روسو واليك البيان

للبرنس لويس نابوليون ٥٣٣٤٢٢٦ منتخبًا	للجنرال كافنياك ١٤٤٨١٠٧ منتخبًا
للدرو رولين ٣٧٠١١٩ منتخبًا	لراسبايل ٣٦٢٢٦ منتخبًا
للشاعر دي لامارتين ١٩٩١٠ منتخبًا	

وعند ختام تلاوة خلاصة الجلسة قام كافنياك قيام رجل رصين وقور وشكر للقوم على حسن ظنهم بهِ وخص منهم بالشكر لاموريسيير لانهُ على شدة تجافيه عن النزعة الجمهورية ظهر كاعظم ركن من اركانها واقوى عمادٍ لها ثم نزل — اي كافنياك — عن الرئاسة والسلطة للبرنس المشار اليهِ وآثر حالته الاولى على سذاجتها وخلوها عن نصب المنصب وهكذا انتهت اعمال هذا الرجل العظيم المنقطع القرين النادر الاخلاق في طيب اعراق لهذا العهد

وفي الـ ٢٠ من كانون الاول تولى البرنس مقاليد الاحكام وعندئذٍ استقال وزراء كافنياك وفي جملتهم الجنرال دي لاموريسيير تاركًا وزارة الحربية لما نال منهُ بلوغ البرنس لويس بونابرت منصة رئاسة الجمهورية وسقوط صديقه العزيز الجنرال كافنياك مع عظم مساعدتهِ لهُ وكان في تلك المدة القصيرة التي قضاها وزيرًا للحربية قد ارسل الى الجزائر عمومًا والى ولاية وهران خصوصًا عدة الاف من اسرى وقائع حزيران في باريس وهم المحكوم عليهم بالطرد والنفي والابعاد ذلك رغبةً في استعمار البلاد . بيدَ أن حكومة لويس بونابرت التي خلفته على السلطة قد اعرضت عنها ولم تبالِ بهم فماتوا في نزر قليل من السنين شهداء اهمال البرنس لويس ومطامعه السياسية

اما رئيس الحكومة الجديد فقد وسّد وزارات دولة فرنسا الى رجال مختلفي الاحزاب الا

ان اكثرهم كانوا مضادين لمبادىء الجمهورية وهم « اوديلون بارو » والجنرال « روليـار » والفيكونت « دي فالو » احد زعمـاء الحزب الكاثوليكي « وباسي » « وترابسي » « ولاون فوشه » « ولاكوست » « وبوفه » « ودروين دي لويس » احد اصدقائه الخواص . ولم يقرّ احدًا على منصبه غير الجنرال شانكرنيه وهو قائد الحرس الوطني العام على عهد كافنياك وزاده ان ولاه قيـادة الجيش الاول المنظم . اما دي لامور يسيير فانهُ اصبح مذ ذاك الوقت راس دعاة المقـاومات القانونية التي قام بها الحزب الجمهوري كفًّا لمطامع البرنس رئيس الجمهورية ومنعًا لهُ من الوصول الى عرش الامبراطورية . واما كافنياك فعاد الى السكينـة والهدء غير مزهوّ بما ادرك من المجد والعظمة ناسيًا او متناسيًا طائر سمعته وذائع صيته واما « بدو » فكان على حد ما قلنا فيه مرات عديدة متشيعًا لحزب الملكي في الفرع الاول . ولما كانت اكثرية اعضـاء المجلس من الاحزاب الملكية والامبراطورية الذين جعلوا جل مقاصدهم البلوغ بروساء كل من احزابهم الى مآربه واغراضه الذاتية عمدوا الى اختصـاص الموسيو « بولاي دي لامورت » بنيابة رئاسة الجمهورية علمًا بانهُ صديق خاص وخدن مخاص لرئيسها المنوه به موثرينه على دي لامور يسيير عدوه الالد واما « لدرو رولين » رئيس الفوضويين في المجلس فانهُ اخذ يستعد لتهييج سفلة القوم ورعاع الشعب وهدم سلطـة لويس بونابرت بالقوة خصوصًا حين رآه يسوق جيشًا من الفرنسيس بقيادة الجنرال اودينو الى ايطاليا المحاصرة رومية وارجاعهـا الى طاعة البابا الدنيوية — وسيأتي الكلام قريبًا على هذه التجريدة واسبابها ونتائجها — اما الان فيجدر بنا ان نستوفي كلامنا في المجلس وعلاقاته مع رئيس الجمهورية فنقول

ان هذا الاخـير لما تحقق عداوة اكثرية المجلس للهيئة الجمهورية وخاف من جهة أخرى سوء المصير اذا استمر الاعضـاء الفوضويون والجمهوريون المعتدلون معادين لهُ اوقع الخلاف والشغب فيما بين روساء الاحزاب فيه وجعل احد الاعضاء المسمى المسيو « راتو » يقترح فض المجلس نفسهُ ليخلفه المجلس الاشـتراعي وكان هذا الاقتراح في جلسة ١٢ كانون الثاني سنة ١٨٤٩ فنشأ عنـهُ شديد خلاف وجدال ثم صدق عليه بغالبية ٤٧٠ رأيًا يخالفها ٣٣٧ رأيًا وضرب النهار الخامس عشر من ايار موعدًا لنهـاية جميع الانتخابات المتعلقـة بتأليف المجلس الاشتراعي وفي الموعد المذكور جرى انتخاب رئيس المجلس المذكور وكان المترشحون لهذا المنصب ثلاثة وهم

الجنرال دي لاموريسيير من قبل الجمهوريين المتـدلين ولم يظفر بسوى رأي ٧٦ منتخباً « ولدرو رولين » من قبل الفوضويين ولم يصب الأ ٢٧٢ رأياً والموسيو « دوبين » مرشح رئيس الجمهوريّة وقد تمّ انتخـابه باكثرية الاراء اذ اجتمع لهُ ٣٣٦ رأياً

وفي ٢٧ ايار تقوّض المجلس المذكور وخلفهُ المجلس الاشتراعي . وكان رئيس الجمهورية قد اجرى بعض التبديلات في وزارته بان وسد نظارة الخارجية الى الموسيو دي توكفيل (وهو صديق دي لاموريسيير القديم كما سبق) والداخليــة الى الموسيو دوفور بدلاً من لاون فوشه والتجارة الى الموسيو لانجوينه . وكان لهذا مجـلس الاشتراع عدة حقوق منها حق عقد معاهدات السلم وشبوب الحرب وان يكون ابدًا غير محتمل للتقوّض وحق سن الشرائع ونصب اعضاء شورى الدولة وكان اي مجلس الاشتراع يتألف بثمانمائة عضو ومعظمهم من احزاب الملكية والامبراطورية . ولكن كان فيهِ مائتـا عضو من الفوضويين وزعيمهم لدرو رولين المذكور . واما دي لاموريسيير فانهُ لم يجر انتخابه في رئاسة المجلس فعرض عليهِ البرنس لويس بونابرت بواسطة وزير الخارجيـة الجديد قيادة الجيش المسوق لمحاصرة رومية رغبةً في استمالتـهِ فابى هذا المنصب رعايةً لمبادئهِ وتفاديًا من محاربة من كانوا ينادون على الحرّية والجمهورية غير عالم بان سيأتي يوم يجرد فيهِ سيفه للمدافعة عن سلطة البابوات الدنيويّة. ثم اقنعهُ صديقه وزير الخارجية المشار اليهِ بقبول منصب السفـارة الفرنسويّة في بطرسبرج وكانت هذه السفارة يومئذٍ اهمّ السفارات عند فرنسا لاهمية مركز الامبراطور نقولا الاول قيصر الروسية . ومن الغريب ان اعظم ما كان مندوبًا لهُ من المسائل التي ينبغي ان يخابر القيصر فيما هو كيفية حل المسألة الرومانية وهل اغرب من ان جمهوريةً فرنسويّةً يرئسهـا امير بونابرتي كانت تخابر امبراطوريّة مطلقة السلطة رئيسها من الروم الارثوذكس في شأن سلطة البابا الدنيويّة !.

ثم سافر الجنرال دي لاموريسيير في تلك المهمة في الـ ٢٤ من تموز سنة ١٨٤٩ ولبث هناك بسببها الى اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني في تلك السنة نفسها بمعنى انها استغرقت ثلاثة اشهر ونصف شهر آخر . فنذكر الان ما جرى لهُ في تلك العاصمة السحيقة من الاعمال ثم نعود الى حصار رومية وانقضـاء المسألة الرومانية ثم الى كيفية تصرف المجلس الاشتراعي مع الرئيس البرنس لويس . اما دي لاموريسيير فانهُ اجتاز الممالك الالمانية قصد غشيـان البلاد الروسية على حين دولة النمسا كانت معنية بتدويخ العاتين عليها من اهالي الديار المجاريّة على ما مرّ

وكان حولا من بلاد ان الصقلية الاولى وبفتحهم ثورتهم مع سائر سكان المملكة اضطر فرديناند الاول ملك ... الى ... يتنازل عن تخت الملك لابن اخيه فرنسوى جوزف وكان هذا قد حشد جيوشه ودخل بها ... الجلد ... لم يصبه الظفر في كل وقعة فاتخذ الحرب سجالاً .

ثم بلغ حين ... يلسين ... ما خطر في تلك الثورات ما يجلب روح العقرية ويفشو الفوضى ... ان لم يمكن عاجلاً : ... ورائحة في آن ... ما اظهر له من البحث والتدقيق في ... العسكرية لانه اعتقد ان هناك خطراً عظيماً جداً وانه اذا ... الدول المجاورة ... فلا بد من ان ... هذه الدولة النمساوية على مجاراتها ... في المانيا ... وجعلها في المحل الثاني منها . ولقد ارتعدت فرائصه ... من تلك الانقلابات التي لابد من حلولها على رأيه

ووقع في ... ما كتبه من التقارير ... الى دي توكفيل الاول بتاريخ ٧ آب والثاني في ... ايلول ... فيها الكلام ... من جهة التمثيل ثم اختصر كل ما كتب مطولاً بما يلي وهو « لا ينبغي في مصلحتنا ان ننام عن وجود دولة من مثل ... ذات ثلاثين مليوناً من النفوس في جوارنا لا ... اذا ... جميع مجاورينا ونحن على حالتنا غير متقدمين فلا نأمن علينا من ... الى التأخر ... باعتبار المقابلة والموازنة . اجل اني اتحقق ان التجزئة المانيا الان غير موافقة ... وجود امارتها الصغيرة لانتشار الفوضى في كل منها متولدة عن قلة القوة الوازعة قلت ان التجزئة الحالية لا توافق بالاطلاق ... اذا تبدلت حالة المانيا الان فانما يكون منشأ ذلك ابطال المعاهدات ... ونقضت ... الاسترجاع حدود الرين »

ولم يكن في فرنسا يومئذ ... لامورسيير ... متشاغلاً بهذه التصورات والخواطر خصوصاً وان البرنس لويس نابليون رئيس الجمهورية كان متأهباً لمحاربة النمسا وحدها وارجاع ايطاليا والمانيا الى وحدة ... ثم مر في طريقه بمدينة (كراكوفي) عاصمة بولونيا القديمة وتربث فيها بضعة ايام ثم اراد ان يزور ... مقبرة الملوك ووقف ملياً على ضريح سوبياسكي مخلص ... من ... ملوك تلك الدولة التعيسة وكان ذلك قرب غروب الشمس حتى كأنما طن على اذنيه صدى صوت صلوات الرهبان ... بالدير فوق القبر فهاله ذلك الموقف وخرج من هناك باكياً على ... تلك الامة البولونية المجيدة التي ادت عدة اثار وخدم مهمة جداً في جانب

الدين والتمدن وكان من مكافأتها لنا ان جنيت بعد الحرب والتعصب واعتبرنا جورًا وظلمًا من
قبيل الروسية والنمسا وبروسيا واضمحلال اسمها . ثم دار حديث للامبراطور نيقولا من ١٨ كونه الى
فارسوفيا حيث كان نقولا الاول امبراطور الروسية جعل مركزه موقتًا في وسط معسكر
جنود يراقب منه حركات الجيوش والمحتشدات في المانيا وايطاليا ويضبط حليفه ويدفع اليه بحركات
تصبو بهذه حقيقة الى حكومته وطال وقت تلك المقابلة الاولى وكان فيها حديث يستغرق
طويل فاخذ الامبراطور يذكر خصوصية الاحوال ذاكرًا ما اتلف جميع الممالك على يد الفوضويين
الى ان سأل الجنرال رأيه في شأن بقاء الحكومة الجمهورية وامتدادها فقال مصرحًا كل التصريح
ان الجمهورية هي غرض معنوية جامد لا يتفق عنه رجال جميع الاحزاب ورغم اتفاقهم على رجال
فرنسا الذين خدموا لويس فيليب كانوا عالمين بنقائص الملك بهيئة الملكية والا لخدموها لانها
كانت الحاجز المانع من الفوضى تمام الامن وقد سقطت فرنسا الى الحكومة الجمهورية امتحانًا
فالفيناها موافقة جدًا الى حد انها لو لم تحدث انقلابات لم يكن بد من تفريق الاحزاب والتلاط القلق .
قال الامبراطور ولهذا لم اتوقف في اعتراف الجمهورية ــ

ثم تكلم الجنرال عن بروسيا ومطامعها وخوفه من ان تحمل المانيا باسرها تحت سيطرتها
وتستولي على النمسا فقال له الامبراطور « كن مطمئنًا لانه اذا حدث ذلك لان قيم فنكون
نحن واياكم معًا يدًا واحدة في العمل » واخيرًا كان ينتهي انتهيا الى اهم المسائل الحاضرة
كمسألة رومية فانشأ الامبراطور يتكلم عنها باخرًا جهلها قاصدًا بذلك للحاق غضاضة بقدر
قداسة البابا فما تمالك الجنرال ان قال له بحدة وانفعال « من المحتمل وقوع عدة اغلاط في
الحكومة البابوية ولكن لا بد من وجود رومية تحت سلطة البابا ليتسنى له الاستمتاع بتمام الحرية
نظرًا الى الملوك والكاثوليك على اختلاف اجيالهم وشعوبهم اما نحن اريد فرنسا ــ فلتة
يهمنا هذا الامر وان خلت فرنسا عن كونها كاثوليكية فانها تقع في ايدي الاشتراكيين »

وعندئذ شعر الامبراطور بتوقد مبادي مخاطبه فقال له اني اختار كون فرنسا كاثوليكية على ان
تصير اشتراكية وعقب هذه الكلمة بان قال « ان هذه مسألة رومية لا يهمني ان انتهي بقطع
النظر عن كيفيتها ومهما اجريتم فيها فلا اعارضكم لاجله » ثم من الغد لقي الجنرال دي لاموريسيير
الموسيو دي نسلرود مستشار دولة الروسية فدار الحديث بينهما على جميع المسائل الحاضرة وكانت

بعد كان بين المكاتبات التي اتهمت مقال الامبراطور بخصوص بمجاملة رومية وطلب اليه ان تتفق نفسها في هذا الشأن مع دولة النمسا . وكان نويس سفارة فرنسا الجنرال فلوري وهو البرنس ده دي شكلوف بوجهته توجّه الى تارسكوسيلو بعد الاتصال للاتفاق مع امبراطور الروسية على حركات الالتقوا الجيشين ابتعاداً عن الروسية الداخلين بلاد الجيران وبحثهما بتفسير محركاته بحيلة على طلب امبراطور النمسا . فاخذ الجنرال يبيّن للدنس الوزير موضوع مطلوب وزارة فرنسا وحكومتها وذلك ان فرنسا تود عودة سلطة البابا الى رومية ولكن لما كان ذلك يخالف مبادي الجمهورية لزمها ان تشترط على تسليم الامتيازات بموجب شروط معينة تقليد الوظائف الادارية لرجال عالميين وتنظيم القوانين والمجالس بحسب دستور نابليون المستعمل في فرنسا و بالجملة تحديد سلطة البابا بموجب القوانين الاوربية الحالية اي بواسطة القانون الشوري بالطرافة . وطالت المباحثات بينهما وكررت بعدة ايام وكان المستشار الروسي مع شدة كرهه لسلطة البابا يدافع عنها ويجادل الجنرال موافقاً للوزير النمسوي على رد مقترحات فرنسا بالاقناع اولاً بانه لا يحسن ان تحصر الوظائف في رومية في العلمانيين دون الاكليريكيين اما هؤلاء لهم مدار في الناس الخط البنائية حتى في فرنسا نفسها . ثانياً بعدم امكان ادخال الحكومة الشورية اذ ان شعب ايطاليا لم يصل بعد الى ما يؤهله لمعرفة هذه الطريقة وتنفيذها حق قدرها وانما الواجب ان تعاد على البابا سلطته مطلقة كما كانت بيد انه ينبغي ان يكون عنده مجلس شورى قوامه من الاكليريكيين وعالميين يستشيرهم في جميع اعماله واموره وهذه الطريقة الاخيرة هي اكثر موافقة اذ كيف يمكن ان يكون البابا وهو عنوان السلطة الالهية المطلقة خاضعة لهيئة دستورية مقيدة . ــ واستمرت مباحثاتهم في تارسكوسيلو على ما هي عليه خلوًا من ان ينتهوا الى اقتراح يتفقون عليه

وكان دي لامورسيير مدة اقامته بالروسية يراقب القوات الجسدية وسلطة الامبراطور وما للشعب الروسي من الطول والمنة ومبلغ الادراك والفهم حتى تحقق انهُ منقاد الى تشيع فاحش مجرّد عن الحقائق الدينية وانهُ قيد كآلة عمياء تدار بيدي الامبراطور حسب هواه . اما حول الامبراطور واستبداده فكلاهما غريب مهيب لتوقف كل امر على مشيئته وارادته . ومما علمه علم اليقين ان بساطة الروس وعامتهم بهم من شمول الخمول وضرعة التأخر بحيث لا يمثله الخيال وبالجملة فانه تبين ان عند الروسية جيشاً عاملاً يتألف بخمسمائة الف مقاتل واحتياطه الف ومئتا

مدفع هذا خلا الجنود التي في سيبريا والقوقاس وفنلاند وحكومة الاورنبورغ ثم ان الجنود الروسية عبارة عن ثمانية فيالق وفي وقت السلم يكون عدد الضباط واركان الحرب كاملة كما في زمن الحرب وذكر كيفية ترتيب الفيالق وتوزيع قواتها فاعجب بها جداً . ثم ان الروسية قد عبأت في ابان كانون ١٨٤٨ جميع جيوشها وحشدتها على حدودها الغربية وارسلت فيلقين من فيالقها الى المجار كما ذكرنا

والحاصل فانه اختصر كل ما قاله فيها بهذه الكلمات وهي :

« ان الروسية ما زالت حتى الآن متجافية عن الفتوح الغريبة خوف الخلل الحكم لانها حائلة حق العلم بعدم استطاعتها تأليف خواطر الشعوب هناك مع توقعات رعاياها بالملك يمقتون المانيا بالسليقة وينفرون على انكلترة جميع اعمالها ومظاهرها ويميلون الينا بالفطرة فانهم موافقون مصادقون على كل ما نأتيه ونجريه في داخلية بلادنا بشرط عدم تجاوزنا حدود مملكتنا »

ومما صح عندي كما قلنا ان ليس في الروسية كما في الجزائر من يهدي قوة الا الحاكم وان الشعب رعية لا حقوق لها وكان كل ذلك يزيده تقربا من الدين لاعتقاده في نفسه انه لا حرية حقة لجميع من كانوا مارقين من الدين الحقيقي المقدس . — ولقد علم وعمت منزلته لدى الامبراطور نقولا بمساعدته دولة آل عثمان لامتناعها من تسليم القادة المجاريين والبولونيين الذين هاجروا اليها بعد ان ثار المجار وتعاصوا وكانت الروسية تلح مع اوستريا في مسألة تسليمهم اليها وتركيا لا تنفك ممانعة لها ناصرة ومعينة بقوة ساعد دي لامورسيير ثم وفق لتخليح المعي بحمل الامبراطور نقولا على ترك اقتراحه مع شدة عزمه من قبل على استعمال القوة ذوكا للبقية المرومة

وفي ١١ شهر تشرين الثاني بلغ لامورسيير انقلاب وزارة فرنسا لاختلاف وقع بين رجالها ورئيس الجمهورية فاستقال من منصب السفارة وغادر بطرسبرج سريعا وعاد الى فرنسا ليكون في المجلس الاشتراعي مدافعا عن مبادي الجمهورية ضد مطامع ونيمها .. وكان السبب في سقوط الوزراء من مناصبهم مسألة رومية وهذا محل ان نفيض فيها بحثا بعد ان فرغنا من الكلام على سفارة لامورسيير في الروسية فنقول :

ان رئيس جمهورية فرنسا لما كان لمقيداً بوعود سابقة وقد تقدم طالب البلباطحة وظهرت النمسا على دولة البيامونت وداخت ايطاليا فدانت لها باسرها اثر وقعة نوفار (١١ — ٢٠ من اذار سنة ١٨٤٩)

اضطر الى سوق جيش فرنسوي بقيادة الجنرال اودينو كما مرّ آنفاً فوصل في الـ ٢٥ من نيسان الى «شفيتيفكيا» وكان قد تقدمهُ الى رومية من قبل فرنسا المسيو مرسيه مكلفاً ان يجدي القوات التي بين ايدي مازيني وغاريبالدي زعيمي الثائرين ويتعرّف احوالها فانبأ الجنرال لامورسيير ان جيشه كافٍ لفتح رومية ودعاه اليها فاتى وغشيها في الـ ٣٠ من نيسان فصادمهُ الثائرون فهزموه وجنده فلم تجد فرنسا بدّاً من سوق بعث آخر كفوء للحملة ففعلت وانفذ رئيس الجمهورية المسيو دي لسبس (وهو المهندس الشهير فاتح خليج السويس) معتمداً في مخابرة زعيم جماعة العصاة تحرياً للجمع بين مرضاة البابا والكاثوليك والثائرين والماسون دأبه في كل مساعيه لكافة يجب التدخل في شؤون الاحزاب على تنوع النزعات والاغراض متوخياً ما سنح وبرح من المقاصد والغايات .

وجملة القول ان البعث الفرنسوي قد لاقى ما لاقى من المصاعب والمتاعب ولم يجد بدّاً من استعمال القوة فحاصر رومية في ٤ حزيران وفي الـ ٢١ منه دخلها الجيش من ثلاث جهات دفعة واحدة وفي الـ ٣٠ منه اضطر رؤساء الثائرين الى طلب الصلح وفي ٣ تموز فرّ مازيني وغاريبالدي وفي الـ ٢٥ منهُ نادى الجنرال اودينو باعادة رومية الى سلطة البابا . — وفي ٩ آب حدث بعض اختلافات في المشرب بين رئيس الجمهورية والجنرال اودينو فخلفهُ في رومية الجنرال رستولان وأُعيد المسيو دي كورسل الى السفارة في رومية بدلاً من دي لسبس الذي كان مياسراً ملاينًا للعصاة . وكان الجنرال رستولان والسفير دي كورسل مكلفين ان يخابرا قداسة البابا في تشكيل الحكومة طبقاً للمبادىء الدستورية وفي اعلان العفو التام عن العصاة والثائرين قبل رجوع البابا الى رومية . وكان رئيس الجمهورية كما قلنا عدة مرار يجمعهُ من جهة ارضاء البابا والكاثوليك ومن جهة اخرى جماعة الماسون بسبب قدم علاقاته معهم ومشاهم العصاة ولانهُ كان يحب ان يخفض سلطة البابا قبل اعادته . فكتب في هذا الشان الى احد اركان حربه القائمقام ناي (وهو ابن البطل الماريشال ناي احد رفقاء نابوليون الاول) وهو في رومية كتاباً سياسياً شهيراً اودعهُ تشكياته من استبداد وكلاء البابا الحاليين ومطاليبه الرسمية ومرجعها ثلاثة امور وهي «ايلاء الوظائف رجالاً من غير الاكليروس والعمل باحكام دستور (كود) نابوليون والعفو التام» وقد تقدم ذكر هذه المطالب من قبل . وامره يذيع هذا الرقيم منشوراً في جرائد رومية فامتنع الجنرال رستولان آخذاً على نفسهِ عهدة عدم نشره واتفق مع دي كورسل على معارضة هذه المبادىء وشددا عزم

قداسة البابا على الاستخفاف بتهديدات رئيس الجمهورية فاعلن البابا في ٦ ايلول من تلقاء نفسه منشورًا بيّن فيهِ الاصلاحات التي صمم على ادخالها في مملكتهِ ما عدا اقامة شان الحكومة الدستورية واصدار العفو التام وتقليد جميع الوظائف والاعمال الى العلمانيين . ثم عاد رئيس الجمهورية بعد حين الى الالحاح في اقتضاء مقترحاته السابقة توخيًا منهُ لمضادة النادي الاشتراعي وحاول اذاعة صورة كتابه الذي بعث بهِ الى القائمقام ناي فابى عليهِ المجلس وعارضهُ في الامر فاستاء وامر بعزل دي كورسل وقرر نشر امر عزله في الجريدة الرسمية فاعترضت الوزارة على نشر هذا الامر فامر رئيس الجمهورية بتبديل الوزراء جميعهم وكان ذلك في ١١ تشرين الثاني كما رأينا فادّى انقلاب هذه الوزارة الى استقالة دي لاموريسيير من سفارة الروسية

وفي ١٢ نيسان سنة ١٨٥٠ عاد البابا الى رومية — اما المجلس الاشتراعي فانهُ دام مدة سنتين وشهر واحد بعد استقالة دي لامو ريسير وايابه الى فرنسا ابتداء من ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٩ الى ٢ كانون الاول سنة ١٨٥١ وطال الاختلاف في داخلية البلاد وكانت الاحزاب الكاثوليكية مغترّة بمواعيد البرنس لويس رئيس الجمهوريّة ولذلك كانت تساعده واما مضادوه فكانوا جميع رجال فرنسا الشهيرين لذلك العهد وفي جملتهم الموسيو تيارس والقائدان كافنياك ولافو وسائر الجمهوريين المعتدلين وفي مقدمتهم دي لاموريسير وانحاز اليهم القائد «بدو» صديقهم وكذلك كان الحزب الايسر اي الفوضويون ضد رئيس الجمهوريّة وفي مقدمتهم لدرو رولين واميرالالاي شرّاس (الذي عرفناه في الجزائر صديقًا لدي لاموريسير) المشطّ في آرائه . فلما رأى البرنس لويس رئيس الجمهورية كثرة سواد مناوئيه وشدة حولهم قنط من ادراك تاج الامبراطورية لما يحول دونهُ من مقاومات مخالفيه ومعاكسيه وعزم على فض المجلس المشار اليه وتقويض اركانه واركاس الحكومة القائمة متوسلًا لذلك بحادث سياسي لم يجد بدًّا فيهِ من الاستعانة بقوة الجيش واستمالة قواده اليهِ . فلم يجسر ان يفاتح دي لاموريسير بذلك اذ انهُ كان عند رجوعه من بطرسبرج قد رفض العودة الى الجزائر معلنًا لزوم بقائه في المجلس للمناضلة عن حقوق الجمهوريّة والذود عن حوضها وحقيقتها ولذلك كتم الامر من رفقائه كافنياك وبدو وشانكرنيه بيدَ أنهُ ضمّ اليهِ قائدًا آخر اسمه سانت ارنو (وهو الذي عرفناه اميرالالاي في الجزائر) وفي سنة واحدة سماه امير لواء ثم فريقًا وفي خلال سنة ١٨٥١ جعله وزيرًا للحربية

اما السنتان المذكورتان فكانتا عرضةً لجميع الوقائع الجلسية بين دي لامورسيير وحزب الرئيس وكان دي لامورسيير لايدخر جهدًا في صد مطالب الحزب المضاد المذكور ولاسيا مطلب تقليل عدد المنتخبين فانهُ التي في هذا خطبة طنّانة بلغت من الشهرة شأوًا بعيدًا حتى تحدث بها الخاص والعام عدة اعوام ومما يخص بالذكر من كلامه فيها بعد بيان صلاحية الاقتراع العام وموافقته وفوائده وميل البلاد الى الهيئة الجمهوريّة والحريّة قوله الذي ضمن بهِ لخطابه حسن الختام وهو

« كلكم تريدون الحريّة والحكومة الدستورية ولكن اذا كان تهالككم في الغي يخرج بكم عن محجة الرشد والسداد فانكم ولا شك تهيئون لبلادنا حكومة الاستبداد المطلقة السلطان حاطبين في حبل حزبٍ ابى بالامس وما زال يأبى ولن يزال بقاء الحريّة وهو حزب يكره حريّة المطبوعات والخطابة والتعليم الا وهو حزب الامبراطوريّة كأني بكم اليوم تجهدون لاعادة الامبراطورية على ان ارجاعها في الحال لايتعدى حد منفعة لرجل خالٍ من كمال العقل وموئل المجد واصالة السؤدد — اريد انكم تحاولون تجديد الاستبداد النابوليوني على فظاعته وبراءته من الشرف والمروّة على الاطلاق ؟ . . . فهذا هو الحزب الذي تريدون تقويته ! الا فتيقنوا كل التيقن ان جميع ما تأتونه خلافًا لسنّة الحرية والانتخابات العمومية يكون وبالاً عليكم وتسوء نتيجته بالنظر اليكم »

اما القوم فقل فيهم من اصاخ لاقوالهِ وانباءاتهِ سمعًا على حين بات رئيس الجمهورية يعد اسباب الظفر بآربهِ ومطامعهِ فخرج يطوف اكناف ولايات فرنسا ويبثّ في اهاليها عمّالاً ودعاةً ينادون في منتدياتهم ومجامعهم قائلين « لتحيَ الامبراطورية — ليعش نابوليون »

ورأى المجلس الاشتراعي ما كان واحفظهُ هذا الامر فاجمع على تخطئة الوزارة وتسوئتها لسلوكها خلافًا لما يرضاه ويهواه وعزم على ترك تنقيح القوانين (١٩ تموز سنة ١٨٥١) صادرًا في ذلك عن رأي الموسيو تيارس ومشورته اذ قام في النادي النيابي خطيبًا مصقعًا فقال « ان في الاقدام على تنقيح القانون لسعيًا لاعادة الامبراطورية »

وقد عزز الرأي دي لامورسيير بقولهِ خاطبًا من فوق منبر المجلس وهو « انكم تحاولون بتنقيح القانون ان جعلنا تحت نير سيد مستبد فنحن الأُلى دافعوا في ساحات باريس عن الجمهورية لا نريد

الخضوع لسلطـة سيّد — وانتم يا من تريدون ارجاع الامبراطورية ينبغي ان تعـلموا ان ليس لامبراطوركم اهلية المنصب . اما انا فاعالنكم باناً نحن الذين ذادوا وذبوا عن ذمار المدينـة والالفة والذين ارقنا دماءنا في سبيل حب الحرّية ضد لستبداد الاشتراكيـين ورعاع الشعب لا بد وان نتحد يدًا واحدة وباتـكالنا على قوة القوانين وحقوق هذا المجلس بعد استخارة الله تعالى واستعانته نأمل الظفر والانتصار على المغتصب السلطـة فنقوى بذلك على اقرار القـانون وتأييده برغم المتوثب ! . . . »

ثم كتب بعد خمسة ايام الى صديق له يقول « ان كلامي في المجلس انما كان انسكين قلوب الخائفين وخواطر المشفقـين ان يحدث ثورة في خلال السنة الآتية لان المجلس يحب التقرب من رئيس الجمهورية ومجاراته فوق القانون حذرًا من ذلك . ومن ثم فاني ابنت لاولئك المضطربين ماهية القـانون وان من واجب المجلس الدفاع عنهُ واني مستعد ان ابذل نفسي فداء عنـهُ وقد تابعني على هذا القول والوعد تيارس وشرّاس والقادة بدو وكافنياك ولافلو وغيرهم من مشاهيرنا »

اما رئيس الجمهورية فانهُ جعل اهل المجلس بمعزل عن انتخـاب دي لاموريسير نائبًا لرئيس المجلس . — وفي ٤ تشرين الثاني عاود المجلس جلساته لانقضاء العطلة السنويّة وقام الجدال فيهِ وقعد من اجل تعديل القـانون وتجديد الاقتراع العمومي وقام احد رجال الفوضى وهو ميشال دي بورج وخطب ضد مطامع الرئيس وانهى كلامه قائلًا « انهُ بقطع النظر عن شان الجمهورية التي لا تريدون ان تدافعوا معنا عنها لست ارى من حد فاصل لهذه الحال الحاضرة بسوى حد السيف . واذا ألجئنا الى اعمال الحسام فاما ان يكون رئيس جمهوريتنا مثل كرومول (قائد انكليزي شهير امر بقتـل الملك شارل الاول وساس انكلترة مدة عشر سنوات بلقب محام الدولة وتوفي سنة ١٦٥٨) فيصبح فينا مستبدًا مثله واما ان يكون كمونك (قائد آخر انكليزي استولى على انكلترة واعادها الى الستوارت وهم ملوكها الشرعيين سنة ١٦٦٠) فيرجع بنا الى نير هنري الخامس (لقب اطلقهُ الملكيون الشرعيون على الكونت دي شامبور رئيس الفرع الاول البوربوني بعد وفاة جده شارل العاشر سنة ١٨٣٦ وقد توفي سنة ١٨٨٣) واما ان يكـون كنابوليون رجل حادثة ١٨ برومر (وهي التي قاب بها نابوليون الاول حـكومة فرنسا سنة ١٧٩٩ وصار اول قنصل لها)

انكم ستقعون في رباق الاستبداد لان هذا الرئيس الحالي هو مثـل اوتون وكالبا او بالحري

مثل فيتالوس (وهؤلاء الثلاثة هم رومانيون اغتصبوا على التعاقب عرش سلطنة الرومانيين في خلال سنتي ٦٩ و٧٠ للمسيح واشتهر اولهم بحماقته والثاني ببخله والثالث بشرهه المفرط وفسقه المشط وتوفوا ثلاثتهم قتلاً) وسائر ملوك بيزنطية السلطنة السفلى (هذا الاسم الاخير اطلقه التاريخ على دولة اليونان في القسطنطينية) ! »

وفي جلسة ١٧ تشرين الثاني كثر الاضطراب وفشا الكلام العدائي في حق الرئيس حتى ان وزير الحرب عرض تجريد جيش لفض المجلس والقبض على النواب فلم يرضَ لويس بونابرت واشار الى وزيره بالهدء والسكينة وفي الـ ٣٠ من تشرين الثاني استدعي به وبناظر الشرطة في باريس وبالموسيو دي مورني وزير الداخلية وامر للاول بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك ولكل من الاخيرين بمقدار خمسمائة الف فرنك وعهد اليهم بالوصايا اللازمة للعمل

الفصل السابع عشر

حادثة ٢ كانون الاول سنة ١٨٥١ ـ النفي ـ (١٨٥١ — ١٨٥٩) رجوع دي لاموريسيير الى ممارسة الدين

اول كانون الاول نام سكان باريس على جاري عادتهم مطمئنين ولكن عين بونابرت رئيس الجمهورية لم تنم فانبثت الجنود في جميع انحاء العاصمة الفرنسوية بايعاز وزير الحرب سانت ارنو وامير الالاي اسبيناس ودخلوا بيوت من اعطوا الاوامر بالقبض عليهم فعمد عدد من افراد الشرطة الى منزل دي لاموريسيير وفتحوا الباب عنوةً عن خادمه بعد ان جرحوه وكسروا باب غرفة الجنرال وايقظوه قائلين « لم تتبعنا دون ان تنبس ببنت شفة » فلم يبدِ اقل ممانعة بل اخذ ثيابه ودراهمه وساعته وخرج معهم فجعلوه في وسطهم على عربة مغطاة وانطلقوا به مخفوراً الى « مزاس » وفي تلك الليلة نفسها أُلقي القبض بهذه الطريقة على القواد كافنياك وبدو وشانكرنيه ولافلو وامير الالاي شراس وتيارس وباز والخطيب بريه الشهير وغيرهم من رؤساء المضادين واشهر اعضاء المجلس الاشتراكي وسجنوا طراً بعضهم حيث سجن لاموريسيير في مزاس وغيرهم في مون فاليريان والاخيران في فنسان

وعند في ثاني كانون الاول وجد سكان باريس اوامر بتوقيع رئيس الجمهورية ملصقة على جوانب الشوارع وكانها تعلن فض المجلس وتخويل الرئيس سلطة مطلقة ووضع باريس تحت ضواغط الحصر والاحكام العرفيـة ولما حاول الباقون من احرار اهل المجلس ان يعقدوا اجتماعاً جاءهم الجند وفرّقهم بان استاقهم الى السجون . ثم لما كان ليل ٣ و٤ من الشهر المذكور حدث اطلاق كثير من آلات البارود لم يعرف مطلقوها فاغتنم رئيس الجمهورية تلك المناسبة فرصة فاشار الى الجند فاطلقوا نار البارود في الاسواق والشوارع مخافة الثورة على زعمه فقتل بهذه النازلة اكثر من الف نفس فيهم خمسة عشر جندياً لا غير . وكذلك انتهت هذه الحادثة السياسية او بالحري هذه الخيانة التي ارتكبها البرنس لويس نابوليون في جانب الحكومة الجمهورية التي كانت انتخبته رئيساً عليها وحلف اليمين المغلظة انه يقوم على رعاية عهودها وحفظ بقائها واجراء احكام قوانينها . واما الاسرى الذين تقدموا مضياً الى قلعة مزاس وفي عدادهم دي لاموريسيير فانهم مكثوا بها يومين اثنين وكل منهم مسجون في غرفة ضيقة مظلمة كثيرة الرطوبة وفيما هم هناك على تلك الحال السيئة سمع الجنرال صراخ احد المسجونين رفقائه فاسرع الى باب سجنه وطرقه ملياً سائلا عن سبب هذا هذا الصراخ فاجابه السجان بغلظة « الزم انت الصمت ولا تهتم للامر فانه ليس بذي بال وانما هو لغط سجين يؤدّب لعدم انقياده لاوامرنا في « الغرفة المدوّرة » la cellule ronde ومن يمكث بها يومين او ثلاثة لا يلبث ان يعدم العقل فيصير كمن به مس او خرق ! »

وفي رابع كانون الاول نحو الساعة الرابعة بعد نصف الليـل سيق المسجونون السياسيون المذكورون على عجلة كانت معدّة من قبل لنقـل الاقذار وبقي فيها من الرائحة الكريهة ما تدمع له العيون ولشدة ضيقها لم يمكن الجنرال كافنياك ان يبسط رجليه على طول ساقيه الا بقدر ما تهيأ من ذلك لرفقائه . وقد ساروا هكذا وهم لا يعلمون بمصيرهم من العقـاب الاخير الى ان وصلوا الى قلعة هام حيث أُودع كل منهم حجرة ضيقة كثيرة الرطوبة والقتمة صيفاً وشتاء وكان المغتصب قد سُجن هو نفسه فيهـا على عهد لويس فيليب كما ذكرنا فاراد ان يلقي فيهـا اضداده . فلبث دي لاموريسيير ورفقـاؤه ثمة عدة ايام لا يدري احد بمكانهم اول الامر ثم تلطف لاموريسيير لان ارسل الى امرأته يخبرها عن مكانه وذلك ان احد خفراء السجن وضع آلة التدخين (الغليون) على نافذة غرفته فدسّ لاموريسيير فيهـا تحت التبغ ورقة مكتوباً عليها بقلم رصاص ما معناه « قد وصلنا

الى قلعة هام — صحتي جيدة » فاخذها الخفير وكان الامر معهودًا بينهما وارسلها الى زوجة الجنرال الموما اليه وبهذه الوسيلة نفسها استطاع ان يخابر بعض اصدقائه الذين في خارج السجن وكان في مدة اقامته سجينًا قد وجد خرقًا في خشب الجدار الفاصل بين محبسه ومحبس جاره المسيو باز احد اعضاء المجلس الاشتراعي فجعلا يتكالمان على ذلك الخرق عند سنوح الفرصة. ولبثا كذلك الى اخر مدة حبسهما يقص احدهما على الاخر اخبار ايامه الماضية ويخفف عنه ضغطة السجن ويؤنسه في وحشته . اما مدة مكثهم في القلعة المار ذكرها فكانت خمسة واربعين يومًا لم يؤذن لاحد فيها ان يواجههم او يكاتبهم الى ان زارهم ذات يوم كل من المسيو دي تكفيل صديق لاموريسيير القديم والمسيو دوفور الوزيرين السابقين

وفي ٧ كانون الثاني سنة ١٨٥٢ أُبلغ الى اولئك السجنى ان صدر امر رئيس الجمهورية باخراجهم من السجن وابعادهم عن اراضي الدولة الفرنسوية . وفي ٨ منه نحو الساعة الرابعة بعد نصف الليل بدىء باخراجهم من حبس القلعة أُحاد أُحاد يخفرهم جماعة من الجند وكل منهم في شكة تامة — اي مدجج بالسلاح — وكانت الليلة ممطرة شديدة العواصف ولم تأتِ النوبة في الخروج الى دي لاموريسيير الا في اليوم التاسع من كانون الثاني وقد أُذن لقرينته ان تصحبهُ بشرط ان يكون بينهما مأمور (قومسير) من قبل الحكومة . وقد سيق لاموريسيير على هذه الحالة الى مدينة كولونيا التي في ولاية بروسيا الرينية داخل مملكة بروسيا. اما بدو فقد أُرسل مخفورًا الى بروكسل عاصمة بلجكا واما شانكرنيه فقد سيق الى مالين التابعة الى هذه المملكة. وأُرسل لافلو الى جزيرة جرسي الخاضعة لدولة الانكليز. واما كافنياك فقد اضطر البرنس لويس ان يعفو عنهُ فأُعيد الى بيتهِ .

ثم وصل دي لاموريسيير الى كولونيا وهو لا يعرف احدًا من الناس فيها على الاطلاق فاقام ينزل هناك حتى اذا مرَّ عليه ثلاثة ايام مُني بمرض أَلزمهُ الفراش فاستدعى بطبيب فرنسوي النجار يدعى سيليان كان قد زاره حين وصوله وهذا نص ما كتب اليه وهو « لقد تلقيت بالشكر ما عرضت عليَّ اول من امس من حسن المؤاساة وانما حاجتي الان اليك ان تسارع في عيادتي لاني لشعر بآلام عصبية فادحة مستمرة وسببها هو الزامي سكنى سجن ضيق كثير الرطوبة تتسرب المياه من جوانبه مدة ٤٥ يومًا »

اما الطبيب الموما اليه فقد اجاب سؤله وتحقق بمشاهدتهِ والنظر في ما صار اليه ان آلامه قد

برحت به كثيراً ولم تكتفِ بانها مازجت اعصابه وعضلاته بل خامرت قلبه واحدثت فيه التهاباً مولماً فابتلاه ببرحاء الحمى التي لم تفارقهُ موقتاً الاّ بعد معالجة عشرة ايام . ولقد قال الطبيب المداوي ان نوب حرج الصدر وضيق التنفس التي اصابت الجنرال منذ ذلك الحين في جسمه منشأها ايام سجنه بقلعة هام وهي التي افضت به اخر الامر الى الموت يوَيد ذلك خاصةً علم المطالع بان كافنياك توفي سنة ١٨٥٧ وان بدو توفي سنة ١٨٦٣ بهذه العلة عينها التي ألمت فيهما آونة سجنهما في قلعة هام

وبقي دي لاموريسيير لا يقوى على مزايلة الفراش حتى اخر كانون الثاني فاخذ يتأهب لموافاة زوجته في بروكسل حيث كانت نازلة ولما قدم اليها مع طبيبه لم تكن عالمة بمرضهِ وشدة آلامهِ . ثم بلغ الجنرال ان رئيس الحكومة الجمهورية قد امر بضبط املاك بيت آل اورليان الملكي فخافةً على املاكه ان يأمر بها فتضبط فطفق يفكر في التماس الوسائل الضامنة نظام معيشته عند خلوه عن املاكه وراتبه فبدا لهُ في الامر فعزم ان يقوم على تدريس الرياضيات عند الضرورة لما انهُ كان بارعاً في فنها

ثم لما كان دي لاموريسيير بعد شهر وشيع نصف شهر آخر من منفاه ورد لهُ ولسائر المنفيين امر من لدن الحكومة الفرنسوية يبيح لهم الرجوع الى فرنسا ويتضمن الصفح عما فعلوه على شريطة ان يقسموا يمين الطاعة للحكومة الحاضرة ولرئيسها فنفروا جميعهم من ذلك وقد اغلظوا عبارة الجواب لمن خان الشرائع وداس القوانين — يريدون رئيس الجمهورية — وقد غدا يسومهم الخضوع لهُ صاغرين وكتب سانت ارنو وزير الحربية الفرنسوية لذلك العهد الى جميع القادة المنفيين وفي جملتهم دي لاموريسيير ينذرهم بانّ كل من امتنع عن حلف يمين الطاعة يحسب في عداد المستقيلين ويحرم حقوق خدمه وزاد في كتابهِ الى دي لاموريسيير ان رئيس الجمهورية يريد ان يبدّ تلطفاً منه فيختصه براتب تقاعد ويرعى حقوقه . فانكر عليه هذه الكلمة واكبر هذا الضرب من التحامل والجور فاجاب وزير الحربية بكتابٍ نشرته جميع جرائد فرنسا الحرّة وادخر لهُ التاريخ ذكراً لا ينسى على تطاول السنين وتمادي الاعصار وحسبنا ان نروي من نصه ماياتي وهو « ان راتب التقاعد بعد طول قدمة في الخدمة لا تقلّ عن ثلاثين سنة لهو حق ومُلك لا يحل ان ينال منهُ او يلم بهِ ولا سبيل الى هضمهِ بحجة الاستقالة اختيارية كانت او اضطرارية . ولم يعهد ان هضم حق من الحقوق يقال لهُ برّ والختصاص ! »

ثم حرم كل اولئك القوم الذين ابوا حلف يمين الطاعة حق الرجوع الى اوطانهم وحق تناول راتب التقاعد بيد ان المغتصب لم تبلغ بهِ جرأته الى حد ان يجمع عليهم بين الحرمان المذكور وضبط ما ملكت ايديهم من العقارات فلبث دي لاموريسيير قاطناً بروكسل مدة ست سنين كاملة قضاها في عيشة الخلاء والعزلة نائياً متنزهاً عن شواغل البال ومحن الاعمال مستأنساً بقرينتهِ وبنيه وحماته لا يفكر في سوى اغاثة المعوزين من رفقائه غير مدخر في هذا السبيل جهداً تعهداً لشؤونهم وارعاء عليهم

ومما يذكر هنا فيوثر انهُ ندب رجلاً منهم وامرهُ ان يكتب ترجمة جدة زوجته وهي « امرأة دي مونتاكو التي قُتلت ايام الثورة الكبرى » ودفع لهُ على هذا القصد كل ما لديه من محفوظات الحررات العائلية ارادة اسعافه بثمن الكتاب . وكان اكثر زائريه تردداً عليهِ بعض اقارب زوجته من اسرة دي ميرود البلجيكية وكان يأتيه كل يوم الجنرال بدو واميرالالاي شراس يقضيان عنده النهار بطولهِ في الابحاث السياسية وكان الجنرالان شانكرنيه ولافلو يختلفان الى منتداهم في بعض الاحيان وكان شرّاس بينهم منفرداً ببوادر حدته وشدة بغضه للامبراطورية وجماعة مريدي نابوليون الثالث امبراطوراً حتى انهُ قصد الانتقام منهُ فصمم على كتابة تاريخ سقوط الامبراطورية الاولى ذاكراً زلاتها واغلاطها في سياق خبر انهزام نابوليون الاول في واقعة واترلو وكان يزيده بغضاً للدين الكاثوليكي وسخطاً عليهِ اتفاق اكليروسه مع نابوليون الثالث

اما « بدو » فانهُ لم يخرج قط عن حد الهدء والرصانة والاستبصار شأن الرجل العاقل الديّن المعتدل في قولهِ ورأيه وما كان ليسوءه ويغمه الاّ ذكر حادثة ثاني كانون الاول والتفكير في حالة سجنهِ وابعاده . واما دي لاموريسيير فكان ينزع بقلبهِ الى خواطر بدو الدينية ويصدع بارتياحهِ الى مذاهب شرّاس السياسية . واما الرجلان الاخران فكانا مع فقرهما ابيي النفس وانما فقرهما عار على وطنهما . فاجمع الثلاثة الاولون على مساعدة رفقائهم بما يصل اليهِ وسعهم . وكان مبدأ دي لاموريسيير يباين كل المباينة لمذهب شرّاس الفوضوي وكثيراً ما كان يقول لهُ « اذا بلغت ياشراس انت وامثالك الى منصة الحكم ومنصب الولاية فايقن بوعدي لك اني اشبّ عليك حرباً وارفع اعلامي ضدك على ضفة اللوار ! » وكان كل اقصى هم دي لاموريسيير الوصول الى حكومة معتدلة المشرب ملكية شرعية مقيدة ومن ثم اخذ يعتني في لمّ شعث الاحزاب الملكية

وذلك باخضاع اسرة اورليان الملكيــة الى الفرع الاول البوربوني الملكي وطفق يكاتب امراء بيت اورليان ثم اتى الدوق دومال وايم « ارملة » اخيه دوقة دورليان وانشأ يقنــعهم بان ليس لهم من حقوق وان لابد من خضوعهم للكونت دي شامبور وقد اثرت نصائحه تأثيرًا شديدًا حتى ان الدوق دي نيور ذهب الى الكونت المشار اليهِ ودان لهُ خاضعاً واعترفهُ رئيساً على العترة الملكية فرأى منهُ ما سرّه كثيرًا وعلى اثر انصرافه من عنده كتب الى الجنرال المشار اليهِ يثني عليــهِ خيرًا بحسن مساعيهِ في جانبهِ

وهنا يتراءى لبعضهم ان لاموريسيير كان قليــل الثبات في عزمهِ ورأيه لما انهُ يرى طورًا مرتاحاً الى تملك شارل العاشر وتارةً متجنــدًا في خدمة لويس فيليب ثم يلفى متغــانياً عن بقاء الحكومة الجمهورية وبالجملة فانهُ يوجد ساعياً لعقــد الصلح بين فرعي الاسرة الملكية وارجاع الملك الى الكونت دي شامبور . ولكن يدفع هذا الوهم عاجلا ما لو تذكرنا ما قلناه مرارًا من انهُ كان هو وزوجتــه من سلالتين قد اشتهرتا بحبهما الفرع الاول من الاسرة المشار اليها وكلفهما بالمبادىء الدينية الكاثوليكية وان والدته كانت من سلالة خامرتها خواطر اهل الحرية نازعة الى الهيئة الجمهورية . وانهُ هو نظرًا لاختــلافات المبادي التي تشرَّبها على صغرٍ لم يبقَ في وسعهِ ان يختار لاول وهلة حزباً يجاريه ويتابعه ثم بدا لهُ فعمد الى الحيادة غير متشيع لحزب من الاحزاب مكتفياً بقصد اتمام خدمة الوطن والذب عن شرف البلاد وصرف اهتمامه الى ايجاد هيئــة حكومة منظمة تستطيع ان تنيل فرنسا حرّيةً وشرفاً ومجدًا ولا فرق عنده بين ان تكون جمهورية او ملكية

ولما ظهرت خيانة لويس نابوليون الذي نودي بهِ امبراطورًا ثاني كانون الاول سنة ١٨٥٢ باسم نابوليون الثــالث وعلم ان لا قِبل للجمهورية ان تتمكن في فرنسا سعى لاصلاح ذات البين بين فرعي الاسرة الملكية مريدًا بذلك تجــديد عهد الملك للفرع الاول منها بعد الاستيثاق من القائم على رئاستهِ انهُ يسلك في الشعب بموجب قوانين الحكومة الدستورية ومما يثبت عدم تشيع دي لاموريسيير الى حزب الحكومة الجمهورية مع كل مدافعتهِ عنها ما ورد في رقائم كافنياك لهُ من ذلك قوله « يسألني اصدقائي عن اراء المنفيــين من رفقائنا ويتمنون لو تبقى على مذهب حزبنا فاجيبهم انك خدمت الجمهورية ودافعت عنهــا ولكنك لست منا في شيء ولم تحالفنا قط » ومن

قوله فيها بتاريخ ١٣ ايار سنة ١٨٥٣ « ان حادثة ٢ كانون اولال قد قطعت جميع علاقاتك مع الجمهورية لانك خدمتها ولم تكن من المتحزبين المتعصبين لها ومع هذا فقد سببت لنفيك محوى ولو امكن لي ان افاوضك في بروكسل تحديثاً عن امورنا الماضية والمستقبلة فعلت وانا قانط من نظمك في عداد حزبنا »

ومما ذكره التاريخ من غرائب الانباء عن نفي دي لاموريسيير انهُ قصد مرة غشيان مملكة بروسيا لزيارة الاماكن التي انتصر فيها نابوليون الاول على جيوش اوربا فهالها الامر وفرقت خوفاً من سخط نابوليون الثالث لدخول الرجل المنفي اراضيها حتى استقرّ القلق سحابة يومين شاغلاً بلاطها للسبب المذكور

واول ما استوى نابوليون الثالث الى العرش كتب لهُ الاسقف « جاكمه » مطران نانت يهنئهُ ويسألهُ اصدار امر يأذن لدي لاموريسيير وبدو في العودة الى الوطن ولكن ذهب سعيه سدًى ولم يجب سؤله

وقد شاء الله ان يمتحن دي لاموريسيير بسقوطهِ من منزلتهِ بين ذوي الامر والنهي والمضي بهِ الى السجن ثم الى المنفى استتابةً لهُ ولاستعادته الى عبادتهِ اذ كان مذ دخولهِ في الجندية ميالاً الى الدين وقد ساعد العنصر الكاثوليكي في الجزائر على قدر طاقتـهِ مع عدم تمرسه بالامور الدينية ولما اراد الزواج سعى فوجد زوجاً صالحة من بيت مشهور بالتقوى والصلاح والنبل كما ذكرنا ومنذ اقترانهِ بها اضحى مطيعاً لجميع مشوراتها التقوية . وفي سنة ١٨٥٠ ذهب بكاهن الى خاله وهو في حال الاحتضـار اي النزع ليتمم واجباته الدينية فسرهُ صنيعه هذا جداً . وكان ايام كان في المجلس الاشتراعي يقضي اوقات الفراغ بمطالعة كتاب ديني فلسفي وضعهُ العلّامة اوغست نيقولا يدعى « الابحاث الفلسفية » وهو تأليف شهير . وفي سنة ١٨٤١ تلقى بغاية الصبر والتسليم افتراطه ابنةٍ لهُ كانت بكر ولده وهي في الثانية من عمرها قائلاً « ان الله هو الذي وهب لنا هذه الابنة وللواهب استرداد الهبة » وفي تلك الآونة كان لهُ رفيق قديم في المدرسة الحربيـة « مرسو » وهو احد ضباط الجيش البحري الفرنسوي فجعل يكتب لهُ محرّضاً اياه على معـاودة الدين ومن جملة ما كتب لهُ فقرة موجزة اودعهـا رقيماً مؤرخاً في الـ ٢٥ من اذار سنة ١٨٥٠ وهي « لا يكاد يمرُّ بي يوم واحد خلواً من ان افكر فيك . فانك لما كنت تسأل وزير البحرية ان يرفع رتبتي

كنت انا اقدم الطلبات من اجلك الى سيدة عظيمة (يريد بها العذراء والدة الله عليها اشرف السلام) وانني مثابر على طلباتي وتضرعاتي واني ارجو ان يجاب سؤلي فهل انت ترى ان تجعلنا نحن ننتظرك وقتاً آخر طويلاً — قلت نحن لاني لست انا وحدي قمت ادعو لك واسأل لك انارة عقلك . . منذ مدة طويلة وانت محاط برجال لا مأرب لهم سوى الحصول منك على انعامات ومنح ولهذا صرت لا تألف الاصغاء الى صوت الحق ولكن لا يبعد ان يبتليك الله ببعض محن ومصائب يكون فيها للمبتلين نجاة او هلاك لا محالة وهآنذا منبئك عنها لتكون على بينة من الاستفادة بوقوعها يوم تلمّ بك وتعود الى الله تائباً مستغيثاً براحمه »

وكان دي لاموريسيير قد حفظ هذه الرقائم والرسائل بين محررته واوراقه الخصوصية معتبراً بما حوت من المعاني الدالة على النصح واقام يذكر لصديقه البار حسن مساعيه في جانبه

ولما سجن في قلعة هام انقطع الى مطالعة الكتاب المقدّس وحين استوطن في بروكسل اقبل على تصفح كتب الدين الجدلية للعلم بمناحي حل المشكلات الدينية ثم كتب الى الاب كراتري (وهو واعظ لاهوتي شهير نبغ في اواسط هذه المائة) يقول « قد درست علوم الادب والبيان والفنون الرياضية والطبيعية واخذت شدواً من الفلسفة اما اللاهوت فلم اعلم منه سوى اسمه لان طلبته كانوا قليلين منذ خمس وثلاثين سنة . وبعد خروجي من المدرسة قضيت ثماني عشرة سنة في الحروب واربع سنوات في المراكز السياسية وها انا الان في المنفى حيث اراد الله ان يلقيني فيهب لي وقتاً للتفكر والنظر في الامور من حيث يتأتى لي اكتناهها والوقوف على حقائقها »

ومما كان يحول دون تقرب دي لاموريسيير من الدين انما هو كان اذ ذاك من اتحاد رجال فرنسا الاكليريكيين مع نابوليون الثالث واخذهم بناصره بعد اذ نكث العهود وحنث بالايمان وازدرى الشرف . . .

ثم انشأ دي لاموريسيير منذ سنة ١٨٤٨ يقضي فرض الفصح . وفي سنة ١٨٥٥ توخى عظات الصوم التي ألقاها الاب ديشام في بروكسل — وهو الذي صار فيما بعد كردينالاً ورئيس اساقفة مالين — فاعجب بالبراهين والادلة القاطعة التي اوردها الخطيب وتيقن حقائق جميع الامور التي كان في ريب منها ومنذ ذاك الحين صار من اعظم الممارسين لاعمال الدين وشرع في دراسة الكتب الجدلية والفلسفية كتأليف اوغست نيقولا الانف الذكر وكتاب الاب بلمس الاسبانيولي

المعروف بعنوان « مقابلة الدين الكاثوليكي بالبروتستانتي » وكتب الاب شراتري وغيرهم

وكثيرًا ما كان يقول للاب دلكور عند اجتماعهِ بهِ : « نموت ونضني بين زوايا الاكتفاء والادّعاء مع قلة معارفنا فانهُ لم يبقَ في ايامنا من يتعمق في العلوم الفلسفية واللاهوتية فما اعظم علماء القرن السابع عشر الذين كان جلّ اهتمامهم درس اللاهوت والفلسفة بالنسبة الى رجالنا الذين لا يلتفتون الى غير الرياضيات والكيميا والقوانين والطبّ والتاريخ والجرائد فان الرياضيات وحدها تورث عقل المرء جفوفًا واحتراقًا والطبيعيات تضيّقه والبيان يتعبهُ والفلسفة تزيده عجبًا بنفسهِ واللاهوت يحيّرهُ ويدهشهُ ولكن اذا عني امرؤ في طلب هذه العلوم كلها معًا او ببعضها مع اللاهوت والفلسفة حصل اعتدال في التأثيرات المتفاعلة وانتفع الانسان وهذا ما لم افعله حتى الآن يا ابتِ فانني درست بعض العلوم الاّ اهمها فاني اهملتهُ ولهذا تراني اليوم منصرفًا بكليتي الى ترتيب معارفي وافكاري وفي كل يوم احاول اكتساب حقيقة جديدة شيئًا فشيئًا على نحو ما كان لي من ادراك جميع الرتب الجندية » ومما كان يذهله ويزيده حنقًا قلة مبالاة الجمهور بالحقائق المهمة او كرههم لها مع شدة الاضطرار اليها فانهُ قال في هذا الشأن ما تعريبه

« لو برهنَ وجود ديانة مثبتة حقيقتها بالعلم والتاريخ والفلسفة والمعارف ووجود الرجال العظام لاثبتها الماضي والحاضر والمستقبل وهي وحدها يمكنها ان تحلّ المشاكل الحالية وتكفي تلقيمًا لجميع العقول والقلوب والارادات وجميع طبقات الهيئة الاجتماعية وكل التعساء والاشقياء وهي وحدها تثبت السعادة الحاضرة والمستقبلة فاي رجلٍ عاقل لا يريد ان يدين بمثل هذه الديانة ؟ والحال ان الدين الكاثوليكي هو هذه الديانة الجامعة لهذه الصفات ويكفي تأكيدًا لذلك مطالعة بعض كتبٍ ولكن المطالعون الباحثون هم قليلون »

وجعل يرتب عيشته ويسلك بحياته على نهج ديني وما كان يستحي بهذا التبدل واقباله على ممارسة الامور الدينية ومما يذكر هنا انهُ اتاه الموسيو تيارس يومًا يزوره في بروكسل وبعد ان اطال زيارته نهض يريد الانصراف ودعا دي لاموريسيير لزيارته صحوة الغد اي نحو الساعة ٧ فاجابه بامعناه « ليس لي ان ازورك في هذه الساعة لاني فيها اكون حاضرًا للقداس ولكن ازورك الساعة بعدها اي عند الساعة ٨ » فاستغرب تيارس هذا القول وكثيرًا ما باحثه واطال البحث في هذا المعنى

ولكثرة ما توارد على دي لاموريسيير من الدعاوي المالية والعقارية بسبب الارتباكات

كان يدعو لمساعدته الموسيو « اميل بيان » احد كتبة اسرار المجلس الاشتراعي سابقاً وكثيراً ما كان الجنرال يقاطع الحديث ليستلفت انظار صديقه الى امر الديانة ويحضه على تصفح الكتب الجدلية بامعان نظر وكثيراً ما كان يقول له : « ياعزيزي لقد بتنا لا نستطيع شيئاً من الاشياء في هذه الدنيا فان الشرف والحرية وحرمة اليمين كل ذلك قد دُفن بحادثة ثاني كانون الاول ووطئه المتسبب فيها برجله فيجدر بالانفس الأبية الكريمة ان تتقبل نحو السماء توكلاً على مظاهر قدرتها لا غير — لنحتقر اعراض الدنيا لانها دنيئة وخليقة بالازدراء ولنحرص كل الحرص على العمل للسماء والاخرة فانما هنالك امور مقدسة محترمة : هنالك العدل الالهي والرافة الالهية والسعادة الدائمة هنالك غاية الامال ومنتهى الاوطار فليس في خارج السماء شيء خطير يهمنا على الاطلاق »

وكان لا يخلو من الرعدة كل مرة يرى فيها اتحاد اكليروس فرنسا مع نابوليون الثالث ولذلك كتب الى بعضهم يقول « يظن الاكليروس واهمين ان رجلاً دجالاً رجلاً ناكثاً لعهوده حانثاً في يمينه قد اغتصب بالتاج اغتصاباً يستطيع ان يساعدهم ما افظع هذا الوهم ! يتوهم الاكليروس ان هجوم الجنود في الشوارع والازقة والغاء الجرائد والقبض على نواب الامة ونفيهم كل ذلك يعوضهم ما يجدون في العلوم والمعارف من القوة لقد ساء ما يظنون وقبح ما يتخيلون وانهُ لغلط فاضح لو يعلمون ! يحسب الاكليروس ان امرءاً ماسونياً من مثل هذا الرجل المتهم بالاشتراك في حركات ايطاليا سنة ١٨٣٢ وكوائن حزيران الباريسية قد تبدل حالاً وتغير داباً حتى صار يدافع عن حقوق بيوس التاسع وسلطته الدنيوية ان في ذلك لخطأً عظيماً , وغير خاف ان هذا الرجل قد خدع الناس قاطبةً واحتال للظفر بالملك بيدَ أن سياسته الشفعية الحربلوية لا يمكن لها ان تجامع سياسة الكنيسة الكاثوليكية الصادقة . وبالجملة فان اجتماع الدين والماسونية — اتحاد الكنيسة والفوضى مما يحاوله هذا الرجل لمن اشد الامور فظاعةً ولا بد في اجتناب هذا الضرب الغريب ما يجب ان يستعان به تفادياً وتباعداً من الكفر الواضح »

واذ حدثت الحرب دائرة رحاها دفاعاً من جهة فرنسا وانكلترة عن دولة آل عثمان لتوثبات الروسية عليها في اراضي ولايات الدانوب ما تمالك دي لاموريسيير وصحبه وعشائر ذويه ان اسفوا لاهفين من جرَّاء فوات هذه الفرصة التي لم يقدروا ان ينتهزوها لخدمة وطنهم وقود جنودهم الى حرب معظم غايتها محو ما ابقته حوادث فرنسا سنة ١٨١٥ وطلب ذحولها عند من كان السبب

في انكسساراتها ومما يدل على عواطف قلبه وخطرات لبه كتابه الى احد القادة وهو « اني لمستاء جداً مما علمت من انباء الحرب وبعثة جيوش فرنسا وقوادهم الذين نبغوا معي وبامرتي في الجندية وكن على ثقة مني بان دعواتي الخيرية قد رافقت وسترافق بلا انقطاع اعلام دولتنا ويمونها ويبين لي من تضاعيف كتابك لي انك واجف فرقاً مما يحتمل ان يحدث خلافاً للمرجو مما انا فلا اراني محتاجاً الى بيان خطتي التي عولت على انتهاجها عند طروء اقل خطب او كارث لانها معلومة عند الكل واخالك قارئاً ولا شك في ربيع ١٨٥٢ ذلك الكتاب الذي نشرته جرائد فرنسا وبه رفضت مسألة يمين الطاعة المقترحة علينا فانهُ يتضمن بيان الخطة التي سننتها لنفسي وحملتها عليها ولست اعيد عنها . فالله اسأل ان يبعد عن فرنسا ذلك اليوم المشؤوم الذي يضطرني الى حمل بندقيتي كمتطوع عادي ذبًا عن حدودها

ويزيدنا تحققاً بل تأييداً لمكانة بطلنا هذا الحدث عنه وشأنه وجدارته ومنزلتـه في قلوب رجال جندية فرنسا العظام واقرارهم بسمو مرتبته ما كتبه لهُ الجنرال بوسكه الهمام قائد جيش فرنسا الثاني تحت اسوار « سيبستابول » بعد اخذ قلعة « مالاكوف » وهذا معرب الكتاب

سيدي وقائدي العزيز

كلفت صديقاً من اصدقائنا ان يحمل اليك هذا الرقيم وهو يزيدك على ما حواه علماً بما اجنّه لك في صدري من الحب وذكر بيض اياديك المتظاهرة عليَّ ياقائدي العزيز انت الذي علمتني وضع رجلي في المهماز ومرنت يدي ان تضبط اعنة الخيل لا شك انك تصدقني وقلبـك يشهد لي بذلك — ان ذكرك لم يفارقنـا طول مدة هذا الحصار الهائل وهذه الحرب العظيمة وما اتتني اشراط ساعات ضيقة واوقات حرجة الا استجرت بك وكنت احسبك منحى افكاري وخواطري الحسنة فما تجيئني الا من صوبك ولا توجد الا عندك . وما كانت التقـاديم التي انأتك عنا لتذهب بذكراك للدانية منا وتنسي اقوالك الهادية لنا فانّا باجمعنا قد تخرجنا بفن الحرب عليك واخذناه عنك بزاولناه بامرتك وعيسانتك وتحت ظل عنايتك وكانت عصا كنا سالكة وفقاً للقانون الذي اشربنا حبه بتعليمك وتوقيفك وانما غلبنا الروس جرياً على مستراداتك بمظاهرة الجنود الذين دربتهم بحزمك وحكمتك واني لمعترف بفضلـك اينما صادفت نصراً وظفراً فانت انت سيدي واستاذي وكم كنت اود لو أتيح لي ان اقوم ماثلا بين يديك فاقص عليك اخبار هذه الوقائع فتنشرح صدراً

وتطيب نفساً باعمال تلامينك واولادك . ولا بد ان تتبدل الايام فيسمح لي الزمن بشرف مشاهدتك فاصف لك عظم الحبور الذي شملني عند قراءتي كتابك المنفذ اليّ فان كلماته كانت بلسماً شافياً لجراحي ولقد بكيت من فرحي بها « وشدة السرور تبكي » وعددتها من اعظم ضروب المكافأة على اتعابي واكلها ولقد كلفت حامل هذا الجواب ان يخبرك عن كل ما يصعب عليّ ذكره هنا ولكنه ليس في المقدور على الاطلاق ان توصف كما ينبغي شدة حبي لك وتفانيّ في خدمتك وتجلتك وطاعتك »

حاشية : لا بد من ايراد بعض تفاصيل لانباء هذه الحرب فنقول : انفردتْ الروسية في ايقاد نار العدوان فناصبتها الدولة العلية وفرنسا وانكلترة متفقات على مناوأتها وقد تعاقب على قيادة الجيش الفرنسوي العمومية كل من الماريشال سانت ارنو الذي توفي بالهيضة الاسيويّة (الهواء الاصفر) قبل ابتداء حصار سيبستابول في الـ ٢٩ من ايلول سنة ١٨٥٤ والجنرال كنروبر والجنرال بليسيار وكان الجيش منقسماً الى ثلاثة معسكرات او سرايا كان القائم على قيادة الثانية منها طول مدة القتال الجنرال بوسكه اما مدة هذه الحرب فكانت سنتين واعظم وقعاتها هولاً وطولاً هو حصار مدينة سيبستابول الذي دام من بداية تشرين الاول سنة ١٨٥٤ الى ٨ ايلول سنة ١٨٥٥ ثم وقائع « ألما » في الـ ٢٠ من ايلول سنة ١٨٥٤ « وانكرمان » في ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ « وتراكتير » في ١٦ آب سنة ١٨٥٥ وفيها انتصر المتحالفون المذكورون على الروسيين وكان اعظم مظاهر الانتصار على يد الجنرال بوسكه في ألما لبسالتهِ وسرعة غشيانه انكرمان لمساعدة الانكليز وتراكتير لمساعدة عساكر مملكة سردينيا التي كانت محالفة لهم لآخر عهد الحرب على ضد الروسية ولم يكُ فيمن اشتهروا في فتح سيبستابول كالجنرال مكماهون وجميع هولاء القواد قد رأيناهم في الجزائر منتظمين في عداد ضباط لاموريسيير — اما القائد العام للجيش العثماني فكان المرحوم السردار الاكرم عمر باشا الشهير الذي كان قد تولى قدماً حكومة لبنان سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٢ وتعاقب على قيادة الجيش الانكليزي العمومية اللورد راكلان والجنرال صمبصون . وكانت قيادة جيش سردينيا للجنرال دي لامرمورا . وانتهت هذه الحرب بمؤتمر باريس المنقضي في الـ ٣٠ من اذار سنة ١٨٥٦ وقد رقي كل من القادة (الجنرالية) بليسيار وكنروبر وبوسكه الى رتبة ماريشال او شير واطلق على الماريشال بليسيار لقب دوق دي مالاكوف « انتهت الحاشية »

ولعمري ان مثل هذا رقيما صادرًا من قائد قد كلل هامه الظفر في مواقف القتال وهو يقر ويعترف بفضل قائد مغضوب عليه في جانب الحكومة لا يجسر احد ان يلفظ اسمه على حين كونه ملقى في منتأى المنفى لهو اعظم شهادة واكبر برهان على ما لدي لامور يسيير من فضل المدارك والمعارف الحربية ...

وكان الله قد اعد تجربات وامتحانات اعظم وقعاً من النفي لابتلاء هذا البطل الهمام ذلك بانه رزقه ثلاث بنات وغلاماً واحدًا ولد في الـ ٢٨ من ايار سنة ١٨٥٥ ودعي ميشال وقد مرَّ لنا ان كبرى بناته متوفاة . اما ابنه ميشال فانهُ مرض في اخر صيف سنة ١٨٥٦ وهو مع امه وشقائقه في فرنسا بعيدًا عن والده الذي لم يبرح منفياً ولم يبلغ خبر مرضه اليه الاَّ بعد ان صار في مأمن من الخطر فكتب الى زوجته بتاريخ ٤ ايلول سنة ١٨٥٦ ما معناه « احمد الله على سلامة ولدنا ولكنني اقرق وجلًا في بعض الاحايين ان يسترد الله ما وهبه لنا فنفقد الغلام .. وانما ثمة مشيئته فلتكمل وليكن اسمه القدوس مباركاً ومع هذا التسليم التام لله تعالى قد تجد الحيوة شديدة الضنك والتحامل على الانسان ! »

وكتب ايضاً : « اننا في مصائب الدنيا التي نحن فيها الان لمضطرون ان نلتجيء الى الصبر والتسليم لله خصوصاً وان هذا المحن لم تنقضي بعد فلنستسلم الى الرب الرحوم ولنصل قائلين في انفسنا ما كان اليأس والبكاء واكبار الخطوب والعتو شيء منها ليغير ما اراد الله برحمته ان يحمله علينا من النوازل والشدائد »

وفي تشرين الثاني سنة ١٨٥٧ ورد على دي لامور يسيير (وهو يومئذٍ في منفاه ببروكسل وقرينته واولاده في املاكه بفرنسا) خبر مرض ابنه ميشال فما ملك ان صرخ من فوره فقال : « يارباه انت تجربنا بالمحن في هذه الدنيا فارحمنا في الاخرة » ثم كتب لقرينته وهو موقن بالخطر الطارىء على حيوة ابنه الوحيد يقول : « فلتكن ارادة الله ! ان الله هو الذي وهبه لنا والآن انهُ يريد الان استرداد الهبة . لا شك ان وحيدنا يكون حاصلًا على مزيد سعادة في السماء فلنفرح لان محبتنا اولادنا يجب ان تكون لمساعدتهم » ولكن الله قد شاء ان يكون في الارض رجال على قلوبهم ختم فلا تلجها عواطف الشفقة والرأفة والشهامة وان تكون مقاليد الحكومة الفرنسوية ملقاة بين يديهم حينئذٍ . وبيان ذلك ان نابوليون الثالث لمَّا بلغه من بعض اصدقاء القائد المنفي ان ابنه على

فراش الموت في فرنسا وان والده يحب ان يرى منه وحيدًا وحشاشة قلب لآخر مرة اوعز الى سفير فرنسا لدى حكومة البلجيك ان يبلغ اليهِ « اي الى الجنرال » ان حكومتــه تسمح لهُ ان يدخل اراضي فرنسا لمشاهدة ابنهُ وهو في حال النزع ولكن بشرطين اولهما ان يقدّم هو استدعاءً يطلب فيهِ الاذن لهُ في دخول ارض فرنسا والثاني ان يضمن استدعائه المذكور تصميمه على الرجوع الى المنفى بعد شفاء ولده او وفاته قال ففعل السفير ولما بلغ لاموريسيير ما كان من امر الاذن اباه كل الاباء ثم درت بهِ قرينته وهي على راس ابنها المحتضر في فراشه فاشارت الى زوجها ان ارفض هذا الاقتراح البربري ولا تطع ففعل ولم يدخل فرنسا ومات وحيده في الـ ٢٧ من تشرين الثاني سنة ١٨٥٧ دون ان ينظره النظرة الاخيرة وذاع الخبر في فرنسا فاهتاجت الخواطر وقام ابطـال هذه الامة كالقادة (الماريشالية) بليسيـار وكنروبر ومكماهون وغيرهم يرمون نابوليون الثالث بالمثـالب وينكرون عليهِ هذا العمل المستفظع وكتب الماريشال بليسيـار الى رئيسه القديم (لاموريسيير) يظهر لهُ فيهِ استعداده التام لخدمته واشمئزازه مما اتت الحكومة في جانبه ويعزيه على فقد ولده ويصف لهُ صداقته فاجابه دي لاموريسيير بالكتاب الآتي وقد ذكرته بنصه عدة جرائد وهو

عزيزي بليسيار

كنا نعلم علم اليقيـن بانك ممن لم ينسوا رفقاءهم القدماء في الجنـدية وانت الان تزيدنا شهادة جديدة بذلك مما صار لنا حسن تعزية في ابّان كروبنا . انهُ لما كان ولدنا في حال النزع ملقىً على فراش الموت اتى المغتصب يساومنـا حقوقنا في ارض الوطن العزيز وسمائهِ . فلم يأذن لنا في الذهاب لاغماض جفون وحيدنا الا على صورة منكرة لا تفارقها صفة المنفـيين . وبالجملة فان الباب الذي كانوا فتحوه لنـا على حدود الوطن لم يبلغ علوه بحيث يمكن الدخول منه خلوًا عن الانحناء او زحف على الركبتين نعم ان قلبنـا كان لاهفًا واجفًا محترقًا ولكن شرف الجندية تمرّد وابى القبول فرفضنا ما عُرض علينا . انت يا من نعهد مثل هذه العواطف في فؤادك لا بد ان تفهم ماذا عملنا ولكنّ ما احد يعرف غير الله مقدار ما كلفنا هذا العمل وكم اوجعنا واحزننا « اهـ »

ثم ما لبثت الخواطر العمومية ان ثار ثائرها واندفع اعلام الامة ينقمون ما أُجري في جانب دي لاموريسيير فاضطر حينئذٍ نابوليون الثالث ان يرسل امرًا الى سفيره في بلجيكا بان ارض فرنسا كلها مباح دخولها بلا شرط ولا قيد زمان ولا مكان لدى لاموريسيير فيمكنه ان يغشاها اي

وقت شاء . فلما ورده الاذن قال : « اظن ان الكل موقنون باني لا اسدي شكرًا لمن يأذن لي في دخول فرنسا اذ لا يلزمنا شكر من يرد لنا حقوقًا بعد استلابها منا منذ ست سنوات » فترك البلجيك في بداية سنة ١٨٥٨ ودخل فرنسا آتيًا الى املاكه في شيلون متنكرًا و بدون ان يمرّ بباريس خوفًا من ان يلقي التبعة على احد ممن يتظاهرون فرحًا برجوعه .

الفصل السابع عشر

حوادث ايطاليا ورومية سنة ١٨٥٩ و١٨٦٠

الجنرال دي لاموريسيير قائد عساكر البابا سنة ١٨٦٠

قد اشتهرت سنة ١٨٥٨ بحادث اعظم اهمية جدًّا من رجوع دي لاموريسيير من النفي قلنا ان نابوليون الثالث كان في زمن شبيبته احد زعماء الثورة ضد سلطة البابا الدنويّة وكان باقيًا له عداد في رجال الماسونية . وطمعًا بادراك رئاسة الجمهوريّة ثم عرش الامبراطورية اضطر الى التقرب من الحزب الكاثوليكي وكتب العهد على نفسه بالمدافعة عن سلطة البابا المار ذكرها . واذ تسنى له تبوء العرش طفق يسعى مؤكدًا انجاز وعوده الاخيرة مع الاحتفاظ لسياسته الجديدة ولكن ابت الماسونية ان تخليه وهواه غير مطالب بعهوده معها وقد حاول كثيرون من اشياعها في اوقات مختلفة ان يفتكوا بالامبراطور المشار اليه وبزوجته فاخفقوا سعيًا فلم يتمكنوا من القاء الرعب في قلب رفيقهم القديم الى ان اتى رابع عشر كانون الثاني سنة ١٨٥٨ وهو اليوم الذي فيه عمد اربعة رجال من الماسون الطليان الى طرح كرات ديناميت تحت عربة الامبراطور والامبراطورة قصد الاغتيال وهما منطلقان الى ملعب التمثيل « الاوبرا » فقتل عشرة اشخاص وجُرح مائة وستة وخمسون شخصًا فأُلقي القبض على المجرمين الاربعة المذكورين وهم المدعوون اورسيني وبياري ورروديو وغومز وكانوا قد خرجوا من لندرة بايعاز زعيمي الماسونية مازيني ولدرو رولين السابق ذكرهما . فاجريت محاكمتهم وعوقب غومز بالاشغال الشاقة المستمرّة واورسيني وبياري بالاعدام فأُميتا في ١٣ اذار سنة ١٨٥٨ ولكن اورسيني رأى قبل اماتته ان يكتب رسالة واذاعها موجهًا الخطاب فيها الى الامبراطور كأنه قد خان عهوده وكاشفة بانه لا بد للماسونية من الفتك به آخر الامر جزاء خيانته ان أصرّ عليها

فهالهُ ذلك النذر وجعل يتراجع الى رفقتهِ وسياستهِ القديمة فتقرَّب من دولة البياءونت او سردينيا في ايطاليا وواثق ملوكها ماتًّا اليهم بالقرابة والعهود الى ان اشترك مع جيوشها في حرمات الوغى ضد جيوش دولة اوستريا وانتصر على هذه الدولة في عدة وقائع خصوصاً وقعة مونتبلو في الـ ٢٠ من ايار سنة ١٨٥٩ ووقعة ماجنتا في ٤ حزيران ووقعة مارينيان في ٨ منهُ وواقعة سولفرينو في الـ ٢٤ منه وأُبرم عقد الصلح بين اوستريا من جهة وفرنسا وسردينيا من جهة اخرى على ان الاولى تتخلى عن لومبارديا (قسم من ولاياتها الطليانية المدعوة لومبارديا والبندقية كما مرَّ في فصل سابق) لدولة سردينيا وذلك بموجب عهدة زوريخ المنعقدة في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٩

ولكن حدث في اثناء تلك الحرب التي يسميها التاريخ حرب ايطاليا ان جنود سردينيا اقدموا على تهييج رعايا « غراندوق توسكانا » « ودوق بارما » « ودوق مودن » ضد امرائهم فشغبوا عليهم واضطروهم الى الهرب والالتجاء الى اراضي اوستريا . وبعد عقد ميثاق الصلح المذكور اقنع الفوضويون سكان هذه الدوقيات بالانضمام الى سردينيا فانضموا اليهم . وبالنظر الى ما ابدته فرنسا من المساعدة لسردينيا والقيام بنصرتها باذلة دماء كثير من رجالها في سبيل خدمتها قد تخلت لها هذه المملكة عن مقاطعاتها الداخلة في حدود فرنسا الطبيعية وهي المنسلخة من ولاية سافوا وكونتية نيس وفي الوقت نفسه اصبحت امارة موناكو ضمن حدود فرنسا فلم يبقَ في تموز سنة ١٨٦٠ من اقسام ايطاليا التسعة التي ذكرناها في فصل سابق الاَّ خمسة وهي (١ً) مملكة نابولي وصقلية في الجنوب (٢ً) مملكة البابا و (٣) جمهورية سان مارين الصغيرة في الوسط و (٤ً) مملكة سردينيا في الشمال و (٥ً) ولاية البندقية الخاضعة لدولة اوستريا . وكانت دولة سردينيا قد اصبحت كبيرة جدًّا بالنسبة الى سائر الاقسام المذكورة وصحت مجاورة لاملاك البابا وهنا محل ان نذكر سبب اتصال هذه الاملاك الى البابوات وهو

ان اعداء الدين الكاثوليكي يحتجون بما قالهُ السيد المسيح « لهُ المجد » في انجيله الطاهر : « ان مملكتي ليست في هذا العالم ! » فكيف يحق للبابا الذي يدعي النيابة عنهُ في الارض ان يكون ملكًا عالميًّا ؟ فيردُّ عليهم والرد سهل وهو ان السيد المسيح قال « ليست مملكتي في هذا العالم » والمراد ان اصل سلطته لم يكن من الارض ولكن ذلك لا ينفي ان تكون على الارض كما ان سلطة الوالي ليست من سكان البلاد التي يتولى تدبير شؤونها بل تكون فيها

فقداسة البابا قد اخذ سلطته من الله بيد ان محل مجراها هو الارض . واول من ادرك وجوب حرّية البابا وحرّية استعمال سلطته هو الامبراطور قسطنطين اذ هاجر من رومية الى بيزنطية وزاد في مبانيها ودعاها قسطنطينيــة واقتدى بهِ سائر الامبراطورين الرومانيين خلفائه في الغرب فانهم جعلوا عاصمة مملكتهم في راڤنّا او في ميلانو الى ان زالت سنة ٤٧٦ ثم آلت رومية الى متابعة دولة القسطنطينيــة على عهد لاون الايزوري مدمّر الايقونات . وفي عهد خليفة هذا الملك تمرّد شعب روميــة وخرج على الملك لاضطهاده الدين الكاثوليكي ونادى برئاسة قداسة البابا وسيادته على رومية . ثم اتى اسطولف ملك اللومبار ففتح سائر المدن التي لم تزل يومئذٍ خاضعة لسلطــة القسطنطينية واراد الوثوب على رومية وافتتاحها فاستغاث البابا بملك فرنسا « ببين » المدعو القصير فاغاثهُ وتجاوز اليــهِ جبال الالب مرتين وقهر اللومبار وغلبهم على المدن التي غصبوها من ملوك القسطنطينيــة وجعلها وقفًا موبّدًا على ضريح القديس بطرس في رومية ملقيًا فوقه مفاتيحهــا وذلك سنة ٧٥٦

هذا هو اصل املاك البابا الزمنية او مملكة الكنيسة ثم أُضيف الى هذه الاملاك اقطــاع اخرى وقفتها في القرن الحادي عشر الاميرة النبيلة « ماتيلد دي توسكانا » مساعدة للبابا القــديس غريغوريوس السابع الشهير ثم توالت الايام على البــابوات وطرأ من حدثان الزمان ما ادّى الى انتزاع هذه الاملاك او بعضها من ايديهم مرات عديدة ثم أُعيدت الى ان افضت الخلافة عليهــا سنــة ١٨٤٦ مع رئاسة الاحبار الى البابا بيوس التاسع كما رأينا . وقد ذكرنا ان سلطة البابا الدنيويّة قد سلبت منهُ سنة ١٨٤٩ ثم رُدَّت اليهِ سنة ١٨٥٠ وفي الحرب الطليــانية الشهيرة التي اتينــا على ذكر معظم حوادثها اقتحم جماعة من فوضوي سردينيــا ودعاة الماسونية اراضي املاك البابا واثاروا سكان جبال « الرومانين » فارسلت مملكة سردينيا عساكرها الى هذه الولاية وضمّتها عنوةً واقتدارًا الى املاكهــا . فلما رأى البابا بيوس التــاسع سوء حاله وتأهُّب الماسونية وسردينيا لاهتضام حقوقه واسترداد مملكته استغاث باوربا ونشر الاعلانات الاعتراضيــة فلم تجبه حكوماتها بشيء وذلك ان فرنسا او بالحري نابوليون الثالث كان عاملًا على هدم تلك السلطة ولكن خلوًا من ان يتظاهر بذلك وباتت اوستريا لا تجسر على مساعدة البابا خصوصًا بعد انكسارتها الاخيرة وامست مملكة نابولي نفسهــا على شفا خطر لا تلبث ان تضاف الى سردينيا . اما بروسيا

والروسية وانكلترة فقد اصبحنَ متشفيات بعضاً منهنَّ للبابا والدين الكاثوليكي وتحقيراً لسلطته .
ولما رأى البابا ذلك عزم على الذب عن حقوقه بحد السيف واخذ يبحث عن قائد شهير حرّ غير مقيد بجهة وقد تباعد عن مشاكل السياسة فيتأتى له ان يعهد اليه بقيادة جيشه فبدا له فارتاح الى استدعاء الجنرال دي لاموريسيير وفي الوقت نفسه لم يكن على ثقة من انتدابه لهذه الخدمة وارتضائه بها وظيفة علماً بانهُ قد طالما حالفهُ النصر وطار لهُ شهرة بعيدة في الحروب فما يسهل عليه ان يتولى قيادة عسكر ضعيف القوة لا يؤمن عليه معهُ ان يبتلى بالهزيمة لاول مرة في حياته ؟ أترى يرضى من كان حامي ذمار الحرّية والجمهورية قيادة جند مرتب في خدمة البابا على حين كان عند اعداء الدين كأنهُ رجل الاستبداد والعسف والجور ؟

وآخر ما كان ان البابا كتب الى الموسيو دي كورسل (وهو الذي رأيناه سنة ١٨٤٩ سفيراً لفرنسا في رومية وخدناً صفياً لدي لاموريسيير) ان يكاشف صديقه القائد المشار اليه بامر هذه القيادة وقبولها فانطلق اليه دي كورسل فوجده في باريس في تشرين الاول سنة ١٨٥٩ وكان عنده يومئذٍ الماريشال دي مكماهون اتاه ليخبره عن انتصاراته في ايطاليا ويعترف بما لهُ عليه من الطول والفضل . وحين فرغ دي مكماهون من حديثه اقبل دي كورسل على الجنرال دي لاموريسيير وذاكره في قيادة جيش البابا فاجاب الجنرال فوراً « اعلم ان هذه المسألة هي التي اودّ اراقة دمي كله دفاعاً عنها » ثم تبع ذلك التصريح عدة مفاوضات دار بينهما فيها الحديث على اخطار الاملاك البابوية ووجوب المدافعة عنها ووسائلها

ثم بعد ذلك جرى مراسلة طويلة في هذا الشان بين الجنرال ودي كورسل واذ اتضحت وجوه المسألة عمد قداسة البابا الى مخابرة القائد بصفة رسمية فانفذ اليه صديقه القديم الضابط دي ميرود الذي كان فارق الجندية واوى الى فريق الاكليروس وصار مطراناً وتولى وزارة الحرب في مملكة البابا فوصل السيد دي ميرود واخوه الكونت دي ورنر الى قصر « بروزل » مقرّ دي لاموريسيير في ٣ اذار سنة ١٨٦٠ فصرَّح لهُ السيد دي ميرود ان قداسة البابا يطلب مساعدته ويستنجده ويأمل حضوره وقبوله تلك المهمة على ما يحدق بها من المخاطر وانهُ هو نفسه يخاطبه بلسانه . فاجابهُ دي لاموريسيير قائلاً من فوره

« اذا دعا الاب ابنه ليدافع عنهُ تهين على الولد الامتثال » ولما علمت قرينة القائد بمدار

الحديث صادقت على جواب قرينها وفي غد ذلك اليوم تقدم الزوجان الى مائدة الإسرار المقدسة في كنيسة بروزل وخصصا حياتهما لله تعالى ولخدمة نائبه في الارض . ثم ان القائد كان متيقناً انكساره ومع ذلك لم يبطىء دقيقـة واحدة وكان يجيب الحاولين حمله على عدم اجابة الدعوة « ليس على الابن ان يجادل اباه »

ثم لما اكمل استعداداته غادر قصر بروزل في ١٩ اذار بعد ان عهد الى احد اصحابه ارسال هذا الرقيم الى صديقه رفيقه الجنرال بدو واليك نصه : « صديقي العزيز : انني آسف لعدم تلاقينا في نانت وتعذر موافاتك حيث انت الان . وقد كلفت قرينتي ـ وان لم يمكنها ان تراك ـ فاحد اصدقائنا ان يخبرك عمّا عزمت على اجرائهِ . وحقيقة الامر لا رجاء لي الاَّ بالله فقط اذ فيما اعتقد لا يمكن الانسان ان يتم ما انا عازم على اجرائهِ . وعلى هذا لا يعدّ ضرباً من الجرأة والاقدام ولكن من قبيل بذل النفس تغريرًا في هذه الدنيا على الاطلاق ـ فهآنذا اودعك وموعد ذهابي مضي ربع ساعة من كتابة هذا الرقيم « اه » صديقك المخلص

لاموريسيير

ثم سافر الجنرال في ذلك النهـار بحجة انهُ شاخص الى بلجكا فوصل بروكسل حيث لاقى السيد دي ميرود واحد اصدقائه المدعو فرنسوى كاتوار الذي كان كاشفهُ بما عزم عليهِ ووعده بالمسير معهُ وكان قد دفع اليهِ السيف الذي اخذه من الامير عبد القادر ليقـدسهُ بالذود والحاماة عن حقوق البابا ومنها انطلقا معاً الى كولونيا ثم الى تريست حيث ابحرا على باخرة يقال لها اوريان « اي المشرق » وفي الـ ٢٧ من اذار وصلا الى مدينـة انكون (يذكر القارىء ان دي لاموريسيير وصل الى حاضرة الجزائر على باخرة اسمها اوكسيدان « اي المغرب ») وما لبثا ان طافا المدينة ومثلاها بصورٍ جغرافي وحصلا على العلم الكافي بعـدد رجال حاميتهـا وضروب ادوات الدفاع المدخرة فيها وكلف رفيقه ان يضع رسوم ما ينبغي صنيعه فيها . ثم بعد يومين كتب في صفتهـا الحاضرة ما يقتضي تحصينها تقريرًا مطولاً وانهاه الى وزير الدولة البابوية الكردينال انطونلي الشهير

ثم وصل رومية ليل ثاني نيسان ورفع عريضة للبابا يقول فيها انهُ قدم طوعاً تحريًا لارضاتهِ وانهُ مستعد للمدافعة عنهُ خلا انهُ لا يقدم على محاربة فرنسـا . فاجابهُ قداسة البابا بما دل على فرحهِ بقدومه واشتيـاقه اليه فمثّل دي لاموريسيير بين يدي قداسة البابا وباول مقابلة اعجب « اي القائد

من وفرة حكمته البابويّة ودعته ولطفه وثباته ورباطة جاشه وعظم توكله على العناية الالهية كما ان الاب الاقدس قد راقه ما رآه فيه من سمو المدارك وسعة المعارف وشدة الاقدام والجرأة وعرف له مظهر مخاطرته دفاعاً عن حقوق الكرسي الرسولي ووعده ان يكون ابداً آخذاً بيده معيناً له على جميع مناويه وعضداً في كل اعماله ومشروعاته . ولكن كان يحول دون تسميته قائداً عاماً لعساكر البابا مانعان عظيمان احدهما من قبل نابوليون الثالث لان هذا الامبراطور قد ابقى في رومية جيشاً عدده ستة آلاف جندي للمحافظة على عاصمة البابا متظاهراً بصفة اعظم محام عن املاكه وفي الوقت نفسه كان معروف عند الجميع انه الدّ عدو لدي لاموريسيير . والمانع الاخر من قبل رجال حكومة البابا خصوصاً وزير دولته الكردينال انطونلي

اما بالنظر الى فرنسا والمانع الاول فالكل كانوا يعلمون ان دي لاموريسيير هو اعظم عدوّ لنابوليون الثالث . ولما نمي الى سفير فرنسا في رومية وهو الموسيو دي كرامون خبر تعيين دي لاموريسيير قائداً للعساكر البابوية اعلن عزمه على اخراج جيش فرنسا من رومية ثم آل اخر الامر الى ارتضائه قائداً بشرط ان يحصل على الرخصة في ذلك من لدن مولاه الامبراطور رعاية لاحكام قوانين فرنسا ولكنّ مثله قائداً أنف من استئذان الدولة الامبراطوريّة في الذهاب الى فرنسا لرؤية وحيدة لاخرمزة على فراش الموت ما كان ايروض نفسه ان يستأذن الامبراطور في تقلده قيادة جند البابا لاسيما وانه كان قد تحوط للامر بان اشترط لقبول القيادة المذكورة عدم الاقدام على مناوأة فرنسا كما رأيت وكتب في هذا المعنى ما يأتي :

« ان صفة مستوطن في مدينة اركوفي ورتبة ضابط في المدفعية بسويسره ما منعا لويس نابليون ان يصير بعد حين من رعية فرنسا ونائباً عن الامة ثم رئيساً للجمهورية ثم امبراطوراً (كان لويس نابوليون في عهد لويس فيليب قد اتخذ لنفسه جنسية سويسريّة) اما انا فاني في هذا المشروع الذي اقدمت عليه لا أبالي بالانكسار ان يقيض لي الله كوني فرنسوياً بموجب قوانين نابوليون الثالث او غير فرنسوي . وان قدر الله لي النصر وعدتُ الى فرنسا فان الشعب كله يبتدر لقيامي ويعيد اليّ حقوقي . وقد قال احد اجدادنا القائد مونلوك « ان نفسي هي لله وان سيفي للملك ولكن شرفي هو لي اذ لا سلطة للملك عليه » اما انا فاقول اني وهبت سيفي لقداسة البابا وها ني أسلم روحي لله ولكني لا اريد ان اكون مديوناً بشيء لمغتصب فرنسا محافظةً على شرفي

ثم ان قداسة البابا لما كان لا غنىً لهُ عن نابوليون الثالث اضطرَّ ان يلتمس منهُ باسمهِ رخصةً في القيادة لدي لاموريسيير فرخص لهُ. ثم كتب بعدئذٍ اي دي لاموريسيير الى الجنرال غويون قائد الحامية الفرنسويّة في رومية الكتاب الآتي

من رومية في ٧ نيسان سنة ١٨٦٠

ايها القائد

ان المرزأ بحادثة ثاني كانون الاول يأبى ان يكون في رومية الاَّ قائدًا عامًّا لجيش البابا . ولَّما كنتُ قد أُعطيتُ سلطةً حربيةً ـ جندية فقط وكنتُ قد اصبحتُ فوق محور السياسة رأيتُ من واجباتي الاولية استئناف المخابرات مع قائد الحامية الفرنسويّة اتمامًا للمهمة العالية الخطيرة التي عطف عليَّ الاب الاقدس بان وسدها اليَّ . ولذا فارجو منكم ايها القائد ان تقابلوني في قصركم نهار الاثنين القادم في الساعة التي تعينونها لرئيس حجَّابي وهو امير الالاي المركيز دي بيمودان حامل هذا الرقيم اليكم « اه » « دي لاموريسيير »

ومن ذاك الوقت اضمر الامبراطور نابوليون الشر لعدوه القديم وكاد لهُ المكايد التي وقع بعد ستة اشهر في حبائلها . اما الجنرال غويون فانهُ بذل ما في وسعهِ من انواع المساعدة الحقيقية لدي لاموريسيير. ثم بعد يومين اعلن لاموريسيير بصورة رسمية تقلده قيادة الجيش بالمنشور الآتي الموجَّه الى الجيش قال :

ايها الجنود

قد تنازل قداسة سيدنا وابينا البابا بيوس التاسع ودعاني الى المدافعة عن حقوقهِ المهتضمة المحفوفة بالاخطار فلم اتوقف عن تجريد حسامي . وقد تأثرتْ عمًّا كل العالم الكاثوليكي عند سماع صراخ قداسة البابا الموجه نحوهم من اعالي بلاط الڤاتيكان مكاشفًا اياهم بالاخطار المتكنفة ارض ميراث القديس بطرس فامتد كربُ استيائهم كاسرع شيء من اقاصي الدنيا الى اقاصيها . وحقيقة راهنة ان الدين المسيحي انما هو مذهب العالم المتمدن بل هو عنصر حياة التمدُّن وروحه خصوصًا وان البابوية هي محور الدين المسيحي الحقيقي . وقد اعترفت جميع الامم المسيحية باعتقادها وتيقنها هذه الحقائق العظيمة التي يتألف منها إيماننا . ان الثورة لهذا العهد تتهدد حرّية اوربا كما كان يتهددها قدمًا بربر المغارب واهل البادية والان كما في الماضي ما برح مقام البابوية مركز التمدن ومركز حرّية العالم

فالمدافعة عنهما هي نفس المدافعة عنهما . ثقوا بمساعدة الله « ايها الجنود » وتيقنوا انهُ عزّ وجلّ يعدّ بعنايتهِ نشاطكم واقدامكم ويجعلكم اكفاء للذب والدفاع عن هذه الاملاك التي شاء ان يكل المحاماة عنها الى ايدينا واسلحتنا « اهـ »

« رومية في ٩ نيسان سنة ١٨٦٠ »

القائد العام

دي لاموريسيير

ورأى رجال الثورة واصحاب مبادىء سنة ١٧٨٩ ما في هذا المنشور من تشبيه مبادىء الثورة برجال البادية والبربر فجعلت جرائدهم تنشر مقالات التنديد بدي لاموريسيير ساخرةً منهُ زاعمة انهُ غيَّر مبادئه القديمة حبًّا بتولي قيادة الجيش . اما هو فلم يعبأ بذلك بل شرع حالاً في تنظيم الجيش وتسليحه وزيادة عدده . ولم يكن عند البابا حينئذٍ سوى احد عشر تابورًا يتألف كل منها بستمائة جندي ليس لديهم سوى اسلحة قديمة وما عليهم الا اثواب بالية ممزقة تلوح في وجوههم امائر الذل والانكسار واليأس والقنوط منذ انهزامهم في « الروماين » في العام الماضي . وزد على ذلك انهُ لم يكن لدى هذا الجيش سوى كوكبة واحدة من الفرسان وعدد قليل من المدافع اكثرها لم يكن يصلح للاستعمال وما كان اولئك متعودين الحروب والقتال واذ كان قداسة للبابا قد استنصر بشعوب الكاثوليك اتاه الوف من الشبان المتطوعين فيهم اربعة الاف متطوع من سويسرا وثلاثة الاف من ايرلندا وخمسة الاف جندي نمسوي ارسلتهم حكومتهم سرًّا تحت شعار التطوع . وكان فيهم ايضاً مئات من متطوعي فرنسا وبلجكا

ولما كان دي لاموريسيير قد قرر لزوم تعبئة عشرين او خمسة وعشرين الف جندي لحماية املاك البابا اخذ يتلقى الوافدين اليه بحسن القبول وينظمهم ويدربهم فألف من النمسويين ستة طوابير منظمة وابقى على قيادتهم الضباط الآتين معهم . ولرغبة سفير البابا لدى دولة النمسا في ازدياد المتطوعين عمد الى وعد كل من اتاه باربعين متطوعاً برتبة ضابط ولهذا كثر عدد الضباط جداً بالنسبة الى عامة الجند وكان يرقي الى رتبة ضابط كل شريف من المتطوعين

اما دي لاموريسيير فانه كدرئ لما ينشأ عن ذلك من قلة الترتيب فامر بالامساك عن قبول المتطوعين النمسويين وسعى في اتخاذ طريقة لتقليل عدد الضباط . وكان النمسويون المذكورون مدربين على القتال عارفين القوانين العسكرية الا انهم بسبب انكسارات دولتهم الاخيرة تولاهم القنوط

واليأس وقلت نهضتهم وحميتهم في حومة الوغى . واما رجال سويسرا فكانوا منذ القديم يؤلفون حرساً خاصاً للبابا ثم ان من خمسة توابير معروفة بالتوابير الاجنبية ثلاثة اشتهرت وهي في قيادة امير الالاي شميد باخذ مدينة « بيروز » بعد ان كان قد احتلها عسكر سردينيا . وكان رجال هذه الامة المتطوعين اشداء الّا ان رجال الثورة اخذوا يلقون الفساد فيما بينهم وينفقون على هذا القصد كثيراً من الاموال التي بذلتها لهم حكومة سردينيا . واما الارلنديون فانهم كانوا اثبت ايماناً ولكنهم لمّا كانوا لا يخدمون الّا وهم بامرة ضباط من جيلهم وابناء جلدتهم وليس فيهم ضباط جديرون بتولي القيادة اضطر دي لامور يسير ان يؤلف من افضلهم رجالاً تابوراً واحداً سماه تابور القديس باتريك وعرض على الباقين ارجاعهم الى وطنهم فعاد منهم عدد كثير

اما جماعة المتطوعين الفرنسويين فانهم كانوا اوفر تأهباً من غيرهم خضوعاً للقوانين العسكريّة وثباتاً في مواطن الحرب على ان معظمهم من الشبان الاغرار المولعين بحب الجدال والانتقاد النازعين الى كثرة الاستخفاف باهل رومية الممتلئين بغضةً لحكومة فرنسا . ولذا فان دي لامور يسير اختار عدداً كثيراً من شبانهم الاغنياء والف منهم سريّة فرسان على نفقتهم الخاصة وجعل القيادة عليهم للكونت « دي بوربون شالوس » ثم عمد الى ما يشغلهم به وقت الصلح فارسلهم افواجاً يطوفون في ولايات مملكة البابا مستخدماً عنده على التعاقب خمسة او ستة رجال منهم معاً بحيث عرفهم كلهم واختبرهم وانتقى افضلهم فالف منهم اركان حرب الجيشه . واما الباقون الذين لم يدخلهم في فرقة الخيالة فقد جمعهم مع متطوعي بلجيكا في تابور واحد يعرف بالتابور الفرنسوي البلجيكي وهو الذي صار اخر الامر عماد الجيش البابوي المعروف باسم صنف الزواف البابويين وعهد بقيادة هذا التابور الى البيكباشي الشجاع « دي بيك دي لياڤر » وقسمه الى خمسة بلوكات وولّى على كلٍ منها بعض الذين كانوا ضباطاً في الجيش الفرنسوي او غيره ومنهم الكونت دي شاريت الذي كان في عسكر دوق دي مودين وقد أُعدَّ ان يكون جنرالاً على جيش البابا

ثم جاء الكونت دي كاتلينو الفرنسوي مستصحباً عدداً كبيراً من الشرفاء والنبلاء وعلى ثيابهم الصليب الاحمر ايذاناً بتطوعهم لخدمة نائب المسيح في الارض وما عدا هذه الجنود الاجنبية المؤلفة من نمسويين وايرلنديين وسويسريين وفرنسويين وبلجيكيين على ما تقدّم بيان كيفية تنظيمها فيجب ان نضيف الايين من المشاة وتابورين من القنّاصين مؤلفين بجند

من سكان مملكة البابا رتبهم دي لاموريسيير ودربهم مبعدًا من بينهم بالتدريج من ايقن انهُ مواطىء لاهل الثورة وضمّ صفوتهم الى متطوعة البلدان الاجنبية . وخلا ذلك فانهُ كان في مملكة البابا خمسة الاف جندي داخلين في عداد الجندرمة الّا انهم كانوا كلهم خاضعين لامر وزير الداخلية فلم يستطع دي لاموريسيير ان يأخذ منهم للجيش العامل سوى الفرقة التي كانت في الرومانين وعددها الف جندي من المشاة وثلاثمائة من الفرسان وقد وفق دي لاموريسيير الى ان اذن لهُ وزير الداخلية في استعمال رجال الجندرمة لحراسة المدن والمحافظة على الراحة في مدة غيبة الجيش

وبهذه الواسطة وهذه الاهتمامات توصل دي لاموريسيير في اشهر قليلة الى ايصال عدد الجيش من سبعة الاف الى ثمانية عشر الف جندي . . . ثم لم يكن لدى البابا في كل مملكتهِ سوى سبعة صفوف (بطاريات) من المدافع منها خمسة للمحاماة عن المدن واثنان للسهل وكل منها مؤلف باربعة مدافع من عيار ٦ وعدة مدافع متفرقة الكرات من عيار ١٥ ولم يكن في الجنود من يقومون باستعمال هذه هذه المدافع بل كان لخدمتها بعض رجال معينين من الاهلين لا يعرفون فنّ المدفعية ومن الممتنع او المستبعد تعويدهم رعاية قوانين الجندية ولم يكن في رومية مدرسة مدفعية ولا ترسانة او معهد لاصلاح السلاح فاخذ دي لاموريسيير يسعى في اتخاذ طريقة لمشترى مدافع واسلحة والحصول على ضابط يستولي ادارة المدافع وبينما هو يزور قلعة سانت انج التي كانت في حوزة الحامية الفرنسويّة برومية صادف فيها اليوزباشي بلومنستيل رئيس المدفعية في الحامية المذكورة فسرّهُ مرآه واعجبهُ ما هو عليهِ من الخبرة والمهارة ورباطة الجأش فدعاه ان يمضي معهُ الى مقرّه ففعل وهناك ابدى وفقًا لاشارة دي لاموريسيير ما ينبغي من التعليمات اللازمة لحجابهِ (ياورانه) في شان مدافع السهل . ثم عرض عليهِ الدخول في خدمة البابا مع بقائهِ في الجيش الفرنسوي فلم تأذن لهُ حكومة فرنسا في ذلك فطفق دي لاموريسيير يتلطف لاقناعهِ بالاستقالة من مأموريتهِ واعدًا اياه بنيل العوض عن فقد حقوق خدمه عشرين سنة كان قضاها في جيش فرنسا وذلك بانهُ يرقيه من رتبة يوزباشي الى رتبة قائمقام عسكر وما زال بهِ حتى اذعن لهُ وانقاد عملًا برأيه وثقة بوعده فرفع عرض استقالته الى وزير حربية فرنسا وشفعهُ دي لاموريسيير بكتاب منه يتضمن التماس سرعة اقالته

وكان وزير الحربية اذ ذاك الماريشال رانهون فاجابه الى ملتمسه واقاله للحال وكتب الى لاموريسيير يخبره بذلك ويبين له تمنياته القلبية لنجاح مشروعه ويذكر المدة التي قضاها هو وراندون في خدمته في الجزائر . والحال اخذ بلومنجتيل في تهيئة للمعامل المدفعية واستجلاب الصناع والعملة والادوات واصلاح المدافع وما مضى غير قليل من الوقت حتى صار المعمل منها يصلح لصنع المدافع والاسلحة والادوات النارية والحديدية ولكن لما كان ذلك ليس بذي وفاء بالمراد لقصر المدة اقنع الدوق دي بريزاكيا المتمول الفرنسوي وكان قد عرض نفسه وماله لخدمة البابا — ان يوصي باستصناع مدافع في معامل بلجيكا .

ثم كتب دي لاموريسيير الى ڤيانا يبتاع خيلاً للفرسان ولجر المدافع وثلاثين مدفعاً ومن جملة ما قال في كتابه ذاك ما يلي :

« تخاف انكلترة وسردينيا تهددانا علانية بالسلاح وان فرنسا لمتمسكة عن امدادنا بشيء نية وفعلاً فعندنا لا نستطيع ان نسأل احداً شيئاً سوى امبراطور النمسا فنتقدم اليه راجين من جلالته ان يهيئ لنا ما ينبغي للذب والدفاع من العلم المنتصر في « ليبانت » وعسى ان نأتي به من « لوريت » الى « انكون » فيما اذا لم يكن بد من الالتجاء اليها .

وكانت لممالك البابا تمتد طولاً من البحر المتوسط الى الادرياتيك — اي من الشرق الى الغرب فتزيد على ثلاثمائة وعشرين كيلومتراً وكانت كثيرة الاتساع على شاطئ كل من هذين البحرين بيد انها كانت قليلة السعة في الوسط بحيث لا تزيد سعتها على مئة كيلومتر ولهذا كانت منقسمة الى بقعتين احداهما منتهية عند بحر الادرياتيك وفيها مدينة « انكون » وهي ثغر (اسكلة) بحري يبلغ سكانه اذ ذاك نحو خمسة واربعين الف نسمة . والبقعة الاخرى منتهية عند البحر المتوسط وفيها رومية عاصمة المملكة . ولما كانت هذه المدينة قد احتلتها حامية فرنسوية وكان قائدها الجنرال غويون قد تأهب للمدافعة عنها اضحى دي لاموريسيير قاصراً همه على الاشتغال بالدفاع عن « انكون » ومن شرقي المملكة فجعل واركان حربه يطوفون في المملكة لتفقد الامكنة التي يمكن الذب عنها ولاختيار المواضع الحصينة والمواقع المنيعة فغادر رومية في ١٧ نيسان ذاهباً الى بيروز وهي مدينة كبيرة قريبة من حدود مملكة سردينيا ومعظم اهليها ميالون الى مبادئ الثورة وعند وصوله اليها استقبله نيافة الكردينال بتشي رئيس اساقفتها (وهو قداسة

امام الاحبار لاون الثالث عشر المالك سعيداً لهذا العهد) وذلك مساء ١٩ نيسان يصحبة النائب الرسولي حاكم المدينة والجنرال شميد وضباط الحامية وفي غد ذلك اليوم تفقد مراكز المدينة واحوالها فالفى اكثر ساكنيها قد أشربوا في قلوبهم حب الثورة . ثم تحوّل من بيروز الى كوريو وهي بلدة صغيرة ومنها الى مدينة فانو فبلغها في الـ ٢٢ من نيسان وهناك ورد رقيم من الموسيو دي كورسي قنصل فرنسا في « انكون » يخبره فيه ان جمعية الماسون في فلورنسا قد حكمت عليه بالقتل ويحذّره غوائل الماسونية . فاجابهُ دي لاموريسيير بكتاب يقول فيه :

« اشكركم على انبائكم اياي بما فيه خير لي واعلموا موقنين اني قبل خروجي من باريس ما كنت لاشك في استهدافي لمثل هذا الخطر النازل بي الآن . وقد تقضى عليّ عدة سنين في الجزائر وسنة ١٨٤٨ لم اخلُ فيها كلها عن امثال هذه الشدائد والاخطار ولكني واثق بان الله الذي حفظني اوانئذٍ هو يقيني اليوم شرّ العدو فأَكِل امري الى العناية الالهية مستسلماً الى مشيئة الله تعالى يصنع بي ما يريد »

اما مدينة « فانو » فهي فرضة على الادرياتيك وعلى حدود مملكة سردينيا وفيها حامية قليلة العدد وكان فيها تابور من جند الفلاحين الجاورين المتطوعين فاتيسر لاموريسيير تسليحهم واختصاصهم بمعاونين لضباطهم ليدرّبوهم التدريبات العسكريّة وفوّض الى احد حجابه (باورانه) الموسيو دي شيڤينيه الاهتمام في استنفار فلاّحي جبال اسكولي المجاورة للتطوّع في جيش البابا . ثم انتهى في الـ ٢٧ من نيسان الى مدينة انكون وكانت من اعظم المدن شأناً باعتبار اهمية موقعها الحربي وعلاقاتها التجاريّة مع تريست وفيوم والمشرق الاَّ انها كانت الى ذلك العهد خلواً من ان تهدي بنورها البواخر والمراكب ليلاً فانشأ فيها منارة تضيء على مسافة اربعين ميلاً في البحر واتى عدة اصلاحات وترميمات في قلاعها واسوارها وزاد حاميتها عدداً وابعد عنها حاكمها العسكري ومعاونه وابدل منهما ضابطين من احسن قوّادهِ وهما الكولونيل كيرا واليوزباشي كبوشيني وولى على المدفعية امير الالاي روكان الفرنسوي وأمر باحتفار اقنية لجرّ المياه الكافية شرباً للاهلين والحامية وبناء طاحونين تديرهما قوة النار لاخراج دقيق الحنطة طعاماً وقوتاً لمن في تلك المدينة اذا حاصرها العدو واجتهد في ايجاد مقاولين توسلاً باموالهم الى انشاء سكة حديد تصل ما بين انكون ورومية صاعدة في ماسيراتا وتولنتينو وبيروز . وما اوقدت نار الحرب حتى كاد ان يتم مشروع السكة المذكورة .

وكانت أنباء هذه الاعمال كلها مع التقريرات الرسمية ترد كل يوم الى رومية فيستبشر بها قداسة البابا ويعجب بما هنالك من مظاهر الهمة والنشاط والحمية والاقدام مفتخرًا بقائده الجديد المشار اليه

ثم عاد لاموريسيير الى رومية فاكمل سائر الاستعدادات حتى اذا حدث هجوم من جهة ثائرة سردينيا على حدود مملكة البابا نهض الى الثائرين الجنرال دي بيمودان ونازلهم وكسرهم وفتك بهم فتكاً ذريعاً فامر اذ ذاك دي لاموريسيير بتوزيع قواته فجعل تابورًا في انكون وآخر في فولينو وتابورين في « سبوليت » وتابورًا في رومية اما التوابير القسمة الباقية فقسمها ثلاثة اقسام كل منها ينتظم ثلاثة توابير ويتبع كلاً منها كتيبة من الفرسان وصفان من المدافع وفرقة من الجنود لتمهيد الطرق وسرية لخدمة الجرحى والمرضى من العسكر . وجعل مركز القسم الاول في جهة بيزارو بين جبال ابنين وبحر الادرياتيك ومركز الثاني في جهة بيروز ومركز الثالث في جهة فيتارب بحيث كانت مراكز الاقسام الثلاثة متجهة الى حدود مملكة سردينيا

وفي ٢١ من ايار رحل عن رومية يرابطها الجيش الفرنسوي وخرج بتوابير الجيش الجديد يمرنهم على المسير والحركات الجندية سائرًا بهم الى فيتارب مركز القسم الثالث من الجيش وتفقد مراكزه وامر ان توصل بمدينة بيروز باسلاك التلغراف وابتنى جسرًا على نهر التيبر عند مدينة « اورت » الصغيرة وسن طريقاً من فيتارب الى نارني. ثم كر الى رومية راجعاً ومن فوره خرج الى سبولت فانكون فبيزارو فزار شطري الجيش الاول والثاني وسار بالقسم الاول على شواطىء الادرياتيك من بيزارو الى سينيغاغليا وتفقد حامية انكون وعزز مدافعها واجتلب لكل مدفع نحو ثمانمائة كرة وجهز لكل بندقية من بنادق الجند اربعمائة حشوة اي قذيفة واكمل اسوارها ولما كان عالمًا بمكان هذه المدينة من عظم الشأن كتب الى الكونت دي كاترابارب في فرنسا (وهو الذي كان رفيقه المعاون في جيش الجزائر الاول سنة ١٨٤٠ وفي ندوة النواب سنة ١٨٤٦) يستدعيه لمساعدته في خدمة البابا والدين فلبى دعوته مسرعاً فوصل الى انكون في ١٣ اب سنة ١٨٦٠ فألقى اليه لاموريسيير قيادة الجيش وازمة الحكومة هناك وقال له :

« ينبغي لك ان تسرع في عمل لائحة تودعها بيان جميع المراكز والمواقع ليعلم كل واحد مركزه وقت القتال — ويجدر بك ان توطد الاتفاق بين رجال الحامية والسلام في المدينة واذا وقعت في ارتباك وحيرة فاصنع ما انا صانع من الاستغاثة بالروح القدس وهو يعينك »

فاقبل الكونت دي كاتربارب على مباشرة مهام مأموريته واتمام وظيفته من طريق الوفاء والاجادة واقفاً نفسه في سبيل إعداد لوازم للدفاع عن المدينة المذكورة التي باتت دي لاموريسيير ينزلها منزلة آخر ملاذ له فكتب ما يلي :

« اذا اهملت فرنسا وتسامحت اوستريا بنقض معاهدة « فيلافرانكا » متغاضية عن غشيان ثوار سردينيا ارض البابا فلا اقل من ان نأتي من بيتي لوريت المقدس بالعلم الذي سلّمه البابا القديس بيوس الخامس الى بطل « ليبانت » وهو البدن جواق ونذهب به وبقداسة البابا الى « انكون » انظر ما اذا كانت اوربا باسرها تصبر ساكنة وادعة عند رؤيتها البابا اخيذاً بين ايدي برابرة القرن التاسع عشر مستهدفاً لكرات مدافعهم وقذائفها او انها تضطرب وتهتز لمثل هذا الامر العظيم ويثور ثائرها ! »

ولكن كان قد دنا اليوم الذي يحاصر فيه العلم المقدس في « انكون » لتتم معرَّة فرنسا واوستريا وسائر الدول الكاثوليكية ويعم عارهنّ بسكوتهنّ وقعودهنّ عن نصرته وحمايته ! الخ —

الفصل الثامن عشر
(كستلفيدراردو وانكون سنة ١٨٦٠)

كان رجال الثورة واحزاب ملك سردينيا واشياعه قد تخيّلوا في بلدي الامرّان ممالك البابا غنيمة يسهل اخذها فطفقوا يلقون الفتن في مملكة نابولي وصقلية عائثين لحيازتها عنوةً واقتداراً والتوثب على مملكة البابا بلا معارض فذهب الفوضوي غاريبالدي الشهير بالفي ثائر الى مرسالا احدى ثغور (اساكل) صقلية صوب الغرب حيث خرج الى البرّ عاشر ايار بمساعدة الاسطول الانكليزي وباقل من شهرين ونصف آخر استولى على كل الجزيرة ما عدا قلعة مدينة مسينا ، ثم انتقل من الجزيرة الى القسم الثاني من المملكة في جهة نابولي ، ولما رأت مملكة سردينيا سهولة انتصار غاريبالدي جاهرت بنصرته ولكن لم تجد بدّاً من اجتياز ممالك البابا توصلاً الى مملكة نابولي . وقد تقدم ان دي لاموريسيير كان قد جمع وجهّز نحواً من خمسة وعشرين الف مقاتل منقسمين الى ثلاثة عساكر ومنهم مرابطات للمدن وحامياتها ولما كان نابوليون الثالث نازعاً الى اي عمل يفضي الى احباط مسعى دي لاموريسيير برح باريس شاخصاً الى الجزائر تفقداً لاحوال مستعمرتها فر

بولاية ساقوا على قرب عهد ضمها الى فرنسا ولقي في حاضرتها شامبري فيكتور عمانوئيل ملك سردينيا ووزيره كافور والجنرال سيالديني واشار ثمة الى الملك والجنرال باجتياز حدود المملكة البابوية والايقاع بدي لاموريسيير ظلماً وعدواناً وتشتيت شمل جيشه بلا داعٍ ولا مسوّغ سوى التظاهر بقصد طرد اللصوص والدعّار الاجانب من اراضي ايطاليا (يراد باللصوص الاجانب الاشراف والمتطوعون من الاجانب المحتشدين لخدمة البابا والاخذ بناصره) ثم زايل نابوليون الثالث شامبري واتى الجزائر عاشر ايلول سنة ١٨٦٠

وبعد ظهر هذا النهار نفسه ورد على الجنرال دي لاموريسيير وهو في الحدود صوب مدينة «اورفيانو» بلاغ رسمي من قبل الجنرال «فانتي» احد قواد مملكة سردينيا يحمله اليه حاجب من حجابهِ (اي احد ياوران فانتي) ومؤداه ان ملك سردينيا مقدم على محاربة قداسة البابا انقاذاً لايطاليا من غاشية اللصوص الغرباء (كذا) وان جنوده متأهبة زاحفة قصد دخول مملكة البابا عنوةً اذا اصرّت الجنود البابوية على مقاومة الهياجات الوطنية او اذا حاربت مدينة وقع فيها هياج وطني او اذا لم تخرج من كل مدينة ذات شغب وهياج

وكان قبل هذا الاعلان بثلاثة ايام ان جنود سردينيا توثبت على حدود البابا. فارسل لاموريسيير هذا البلاغ الى الكردينال انطونلي واضاف عليهِ ما يلي :

«لا يفتقر هذا الاعلان الى زيادة ايضاح وانما هي سوى تتمة حكاية الذئب والخروف. اذاً تريد سردينيا الحرب. ولا ريب ان هذا الاعلان سيذهل جرائد العالم المتمدن لانهُ يومض الى الذرائع التي يلتجأ اليها اهل الثورة في محاربتنا اما انا فاني موطن نفسي على القتال واني مستخير الله فيهِ وهو الرب القدير الذي لا يهتم لكثرة العدد وشدة القوة !»

ثم التفت الى رسول العدو وابان له ان لا مناقشة له ان يقبل او يشهر الحرب مشيراً الى خداع مليكه وقائده وختم كلامه قائلاً :

«ومع كثرة عددكم لا يخشى ضباط جيشي وآحاده ان عليهم الدفاع عن الشرف والمجد وعدم الاكتراث بعدد العدو» الخ

وفي تلك المساء نفسه استدعى الجنرال فانتي حاجبه (ياوره) قبل وصول جواب البابا وفي ١١ ايلول اجتاز الحدود وحاصر بيزارو . وكان القسم الاول من جيش دي لاموريسيير في ترني على

ضفاف التيبر بقيادة الجنرال دي بيودان والقسم الثاني في فوليني بقيادة الجنرال شميد والثالث في ماسيراتا بقيادة الجنرال دي كورتن والى لاموريسير بفرقة واحدة الى سبوليت ليكون على اهبة للانجاد لاي قسم من الاقسام المذكورة اذا هاجمه العدو. وفي ٢٠ ايلول ورده من وزارة حرب البابا خبر عن لسان سفير فرنسا في رومية مؤداه:

« ان نابوليون الثالث كتب الى ملك سردينيا يقول ان فرنسا تقاومك اذا حدثتك مطامعك على اقتحام اراضي البابا متوثباً فاحذر شبوب الحرب عند اول حركة عدائية تبدو من جهتك ».

ولكن كل ذلك كان تكملة خداع وتتمة حيلة توصلاً للفتك بجيش دي لاموريسير اما هذا القائد فقد امر القسم الاول الذي بقيادة دي بيودان بالمسير صوب ماسيراتا (وهي مدينة صغيرة قريبة من انكون في جنوبيها) وارسل الى القائدين دي كورتن وشميد ان يحشدا عسكريهما اولهما في انكون والثاني في بيروز وان يتأهبا لمنازلة العدو. وكانت غاية دي لاموريسير الوصول بستة الاف مقاتل الى انكون قبل ان يغشاها العدو وكان متكلاً على ان بيزارو وبيروز يقفان في وجه العدو ليتمكن هو من اتجاله عن بلوغ انكون. ففي ١١ ايلول جمع قوات القسم الاول الذي مع بيودان وضم اطرافه وفي ١٢ منه وصل هو الى فوليني في اربعة توابير وثماني مدافع وتبعه بيودان في اربعة توابير وثمانية مدافع وثلاثمائة فارس. وفي ١٥ منه عند الصباح وصل دي لاموريسير الى ماسيراتا وهي على ٣٢ كيلومتراً لا غير عن انكون وهناك بلغه ان مدينة بيزارو لم تقو على مدافعة العدو سوى اثنتين وعشرين ساعة وان خمسة واربعين الف جندي بامرة الجنرال سيالديني قائمين على تلال جاذي غربي انكون ليأخذوا طريقها عليه وان اسطولاً سردينيا معززاً بزهاء ٦٠٠ مدفعاً كاد ان يغشى لجة انكون على قصد رميها بكرات مدافعه فانطلق من ماسيراتا الى قرية صغيرة تدعى «بورتو دي ريكاناتي» وهناك ارسل بعض المدافع والمؤن الى انكون وفي ١٦ ايلول نحو المساء وصل مدينة لوريت (تقدم لنا ذكر هذه المدينة عدة مرار) وهي مشهورة بالذخيرة بيت مريم العذراء والدة الله «عليها السلام» وقد نقلته اليها الملائكة باعجوبة في اواخر القرن الثالث عشر وهي منحى زيارات الاتقياء من كاثوليك العالم وعلى مذبح هذا البيت كانت بداية الجنود البابويين اذ رأوا انه لا بد من طرد الجنود العادين منها لان بعض طلائعهم قد كانوا قد اتوها. وفي صباح اليوم ٢٧ من ايلول استعد دي لاموريسير وجنوده للقتال فتقدموا الى مائدة الاسرار الالهية المقدسة

وتناولوا جسد الرب واستغفروه مستشهدينه على انهم متفانون في سبيل خدمة تابه على الارض والدفاع عن الدين والحق وقضوا ذلك اليوم طلباً للراحة

وفي ١٨ ايلول المذكور ابتدىء القتال وكان كما قلنا بامرة دي لاموريسيير الجنرال دي بيمودان وثمانية توابين معززون بستة عشر مدفعاً وثلاثمائة فارس (والكل نحو سبعة الاف جندي ليس الا) اما الاعداء فكان عددهم خمسة واربعين الف مقاتل معززين بسبعة وثمانين مدفعاً . وما خلا ذلك فان شيد القائد كان قد استسلم للعدو بلا حرب في مدينة بيروزه رابع عشر ايلول فاخذت جنودهم تنسل من كل حدب علاوة على العدد الاول ثم استعرت نار الوغى في قرية كستلفيدردو قبالة لوريت وكانت غاية حركات دي لاموريسيير المرور بين الاعداء انتهاء الى انكون ولما كانت الطريق المجال صادعة في شاطىء البحر مجتازة جدول موزونيه امر دي لاموريسيير دي بيمودان عند بدء الواقعة ان يعبر الجدول المذكور ودام القتال مدة خمس ساعات ثم انجلى عن انهزام الجيش البابوي وقد فقد منهُ قتلاً ثلاثة آلاف رجل وفي مقدمتهم الجنرال دي بيمودان وتمزق الباقون اشتاتاً وقد أُسر منهم اكثر من الفي مقاتل

اما دي لاموريسيير فانهُ استطاع الزحفة على انكون في اربعمائة مقاتل فقط بينهم ضباط وجنود فولجها عند الساعة الخامسة بعد الظهر فاستقبله جمهور الاهلين والجنود والكونت دي كتربانوب فاقبل عليه وقال لهُ ما يلي : «لم يبقَ للبابا جيش» ثم ما لبثا ان توجها معاً الى القصر قصر هذا الكونت حاكم البلدة واخبره وجيزاً ما امكن الايجاز عما جرى عليه وما كان من عقبى الوقعة ودونك ما روى الكونت عن دي لاموريسيير من الخبر قال في ذلك

«انهُ لم يزد على هذا النبا كلمة واحدة تشف عن غضب او حنق وكان يتوسم في محياه ويلوح من كلامهِ امارات صحة اقتناعه باتمام ما عهد اليهِ والتسليم المجرَّد الى الله تعالى والخضوع التام لارادته مع بذل نفسه ومجموع همته الطائرة وبالحق اني اعجبتهُ واعجبت بسمو مداركه وعلو مكانته وهو في حالة المغلوب المنكسر كما كنت ممتلئاً اجلالاً آونة انتصاراته»

ثم عالج جميع الضباط بعزمه المعهود تأهباً للاستمرار في القتال مدافعاً حتى اخر دقيقة عن المدينة وكان الاسطول الطلياني السابق ذكره قد بدأ بها بصليه ناراً حامية ولم يكن اذ ذاك بين يدي دي لاموريسيير سوى خمسة الاف مقاتل يدافعون عنها وقد حاصرتها القوات العظيمة براً وبحراً

وكان الكونت دي كتربارب قد اكثر فيها من المؤن والذخائر وادخل اليها كثيراً من الطحين والغنم

وفي ١٩ ايلول تمكن من اجتلاب بعض ما بقي للجيش المغلوب من المال والسلاح وفي جملة ما اتى به مقدار مليوني فرنك وآخر ما كان من امره انهُ وثق راهبة من راهبات الحبة اللعازريات فبعثت اليه عشراً منهنَّ ليقمنَ على خدمة المستشفى العسكري فخصص لهنَّ الكردينال رئيس اساقفة انكون كنيسة القديس عبد الاحد الكبيرة لتكون مستشفى وابتدر الاهلون اسعافهنَّ باربعمائة فراش لاسرَّة الجرحى والمرضى هناك

ومن ضروب التهكم والعبث انهُ بينما الكونت دي كتربارب يعد مقتضيات النجب والدفاع قبل معركة «كستلفيداردو» المذكورة خوفاً عليها من الحصار ورد الى قنصل فرنسا في انكون رسالة من السفير الفرنسوي برومية هذا نصها

«كتب الامبراطور من مرسيليا الى ملك سردينيا اذا ما داست العساكر السردينيوية اراضي البابا فاني لا اجد بدًّا من مساعدته. وقد اصدرت الاوامر اللازمة سوقاً للجنود الفرنسويَّة من طولون وعن قريب تصل. ولا يمكن ان تتسمح الحكومة الامبراطوريَّة مع ملك سردينيا في التوثب والتعدي»

وبناء على طلب الكونت دي كتربارب ذهب احد مأموري قنصلية فرنسا حاملاً هذا الرقيم الى الجنرال سيالديني الطلياني وسأله التوقف عن المسير ومتابعة الحركات العدائية فاجابهُ قائلاً

«سكن روعك ياصاح لاننا قد رأينا منذ خمسة عشر يوماً امبراطوركم في شامبري ونحن ندري ما ينبغي اعتباره»

وبنا هذا ذلك فالاً في ٢٨ ايلول كتب وزير خارجية فرنسا الى البارون دي تاليران سفير دولته في مملكة سردينيا يقول:

«قد امر الامبراطور حتماً ان تخرجوا حالاً من طورين (عاصمة مملكة سردينيا) شهادةً منكم على صحة تنصله من الاشتراك في الاعمال العدوانية التي تأتيها سردينيا خلافاً لمشورته»

كل ذلك كان يعبوب خدع وحيل ومكايد تدس لها وديرها الامبراطور نابوليون الثالث تظاهراً بمسالمة البابا على حين كان عنده الفعلي معاضدة اهل الثورة والملوكية

ثم ان حصار مدينة انكون قد دام عشرة ايام خرب ثلثاها في اثنائه وقتل به اكثر من ثلاثة

ارباع الحامية ولم يكن لدى الحامية الا مائة وثلاثة عشر مدفعاً يقابلها ٦٥٠ مدفعاً في الاسطول المناوي. المار ذكره ومئة وخمسون مدفعاً في جيش سيالديني

وفي مساء الـ ٢٨ من ايلول امر لاموريسيير برفع العلم الابيض ايذاناً بالاستسلام اذ ان كل رجال المدفعية قد قتلوا وانفذ احد ضباطه الى الامير بيرسانو قائد الاسطول المذكور يخاطبه في في التسليم وكان قبل رجوع الضابط قد استدعي اليه الكونت دي كتربارب فاتاه مسرعاً فاذا به بين ضباط اركان حربه يتمشى على سطح القلعــة وهو واجم لا ينبس ببنت شفة وكان له في خلال تمشيه وقفات يتلوها نظرات كأنها مأصولة بالشرر . ثم التفت اليه وقال :

« اذا ابى علينا العدو الاستسلام فكم يكون لي من الرجال فاعتمدهم واتكل عليهم ؟ » فقال له الكونت « عندي الف ومئة من الرجال » قال الجنرال « مثل هذا العدد هو كافٍ لوقاية القلعة ومرابطتها ونحن نستطيع ان ندافع عنها بتخلينا عن البلدة الى آخر نفس وما بقي فينا رمق وهكذا نتم واجباتنا لو قُدّر لنا اقل امل بالعون من احد . . . بيد ان اقدامنا الان على هذا الامر الجلل يكون عقيماً ومشهد انتحار وتفانٍ غير مجدٍ مجداً ولا معيد خيراً ولا دافع ضيراً »

ثم ان الكونت اختتم انباءه عن تسليم المدينة « انكون » بقوله « ولقد كنت افكر في احوال هذا الجندي الباسل الهمام الذي انتصر على الامير عبد القادر ورفع اعلام الحضارة والمدنية في صحراء افريقية والذي لم يذق طعم الهزيمة والانكسار والذي دافع احسن دفاع عن الهيئــة الاجتماعية والتمدن المسيحي فاراه اليوم مكبوتاً منكسراً اخيذ حربٍ في يد عدوٍ لا شهرة له في الفتوح وانما حاز الغلبة والنصر بعوامل الخداع والغدر وحبائل الغش والمكر وكثرة عدد الجنود »

واما سيالديني فلم يحفل برفع راية التسليم البيضاء وتابع رمي المدينــة المذكورة بالنار وحاول الهجوم والاندفاع على ثلمة في السور قصد الاستيلاء عليهــا عنوةً وقهراً خلافاً لجميع اصول المدنية المرعية في مثل هذه الحال ولكن حبط سعيه فاخفق وارتد ناكص الجد مضطراً ان يرضى بالتسليم نزولاً على قضاء الله تعالى الذي بيــده النصر يؤتيه من يشاء

وفي الـ ٢٩ من ايلول ابحر دي لاموريسيــير ودي كتربارب واركان الحرب على دارعة امير البحر بيرسانو ثم أركبوا باخرة تجارية مدعوة كافور فذهبت بهم الى جنوى طائفة بهم حول ايطاليا كلها فوصلوها اي جنوى سابع تشرين الاول فوجد دي لاموريسيير رقيماً من قداسة البابا بتاريخ

الرابع منه وهذا نصهُ الشائق :

« اذا وجهت نظري الى الله سبحانه وتعالى وتأملت حوادث الزمان احني رأسي مطأطئاً واخضع لجلالة الحق الذي سمح بعنايته الغير المدركة ان تتم هذه الامور وهذا هو واجب التسليم والخضوع الذي ارى نفسي مضطراً اليه . ولكن عند التفاتي اليك ايها القائد المحبوب اشعر ولاشك بواجب معرفتي الجميل الذي قلدتني اياه بخدمتك العظيمة التي اتيتها في جانب الكرسي الرسولي والكنيسة الكاثوليكية المقدسة واشترك فيما اصابك من البؤس والغم وانت على الصواب بيد اني اتقدم اليك مناصحاً ان ترفع عينيك نحو الله الذي كتب في سفر الحياة اعمالك وعزمك الكريم المقدس . . ان اعداء الدين والحق لا يعدمون ملتمساً لتكذيب وقائع التاريخ واخباره ولكن ستتفق كلمة جميع الكاثوليك الحقيقيين وذوي الانفس الطاهرة البارة على التعييد لذكرى جميع ما جرى في ممالك الكنيسة اذ ان ذلك عندهم بمثابة انتصار عظيم علماً بان فئة صغيرة تكاد ان لا تذكر بالقياس الى الجيوش والفيالق قد تألفت وانتظمت باهتمامك وتدبيرك واضطلاعك وحسن درايتك حتى باتت كفوءاً لكبت اهل الثورة واحباط مساعيهم لو لم يعدهم العدو من الخارج حالة كونهم معززين بجيوش جرارة وقد توفرت لديهم انواع الحيل وضروب الخداع . . . فقد سمح الله تعالى بوقوع ما تم فلتكن ارادته المقدسة مباركةً ولكني اريد منك ياقائدي العزيز ان تكون واثقاً بدوام اكرامي الفائق لشخصك ومعرفتي قدرك وحنوي الابوي واقامتي على هذه العواطف وهانذا باعث من لباب قلبي لك ولقرينتك ولكل من كريمتيك بفيض البركة الرسولية ! »

وفي الحال الحّ لاموريسيير على حاكم جنوى ان يأذن لهُ في الذهاب الى رومية فأذن لهُ بذلك . ولكن يأبى التاريخ ان يأتي على ذكر ما ألحقهُ رجال سردينيا ودعاة الثورة من الاهانات المنهالة على هذا البطل ورفقته وذويه الى ان بلغوا رومية وكان قداسة البابا عازماً على الخروج للاقاة الجنرال دي لاموريسيير الاَّ انهُ وفد عليه بغتةً وخلا به ملياً دون ان يكون معهما ثالث فمرت بهما عدة ساعات والاب الاقدس يظهر من نفسه تناسي احزانه تطييباً لقلب القائد وشكراً لهُ على تفانيه وركوبه الاخطار في سبيل خدمة الكنيسة الرومانية المقدسة

ثم خرج لاموريسيير من لدن الحضرة البابوية واجتمع عدة ساعات مع اركان حربه ووضع في

خلالها تقريرًا مطولاً ضمنهُ اخبار وقائع العشرين يوماً التي مضت بين الـ ١٠ الى الـ ٣٠ من ايلول وهي مدة الحرب ورفعهُ الى قداسة البابا فاعجب بهِ غاية الاعجاب وشهد لواضعه قائده بانهُ يحسن الجمع بين استعمال القلم والسيف

ثم عزم دي لاموريسيير على الرجوع الى فرنسا مبقياً القيادة العامة على عهدتهِ وقد وعد انهُ يعود بعد ستة اشهر الى مبعثهِ . وعندئذٍ جرى تقليل عدد الجيش ولم يبقَ عقيب تلك الحرب في طاعة البابا الأ رومية ومدينة سيفيتافكيا وميناها والاراضي المجاورة المعروفة عند المؤرخين « بالبريّة الرومانيــة » بمعنى انهُ لم يبقَ للحبر الاعظم سوى سدس املاكه فقط

وكان قبل سفر لاموريسيير الى فرنسا ان مجلس النبلاء (الشيوخ) في تذاكر فاجمع على منحه لقب برنس روماني فابى وبلغ البابا اباءه ذلك فارسل لهُ وسام المسيح من الطبقــة الاولى وهو اعظم الاوسمة لدى قداسة البابا مشفوعاً بالكتاب الآتي وهو بنصهِ الكريم

« عرفت الآن ان اتضاعك منعك من قبول الالقــاب التي كنت أُريد ان أُظهر بها نوعاً من معرفتي قدر العمــل المسيحي الذي اديتهُ محافظةً على حقوق الكرسي الرسولي المقدس . وانما هذا صنيعي كنت مندوباً اليهِ بحكم قلبي وارادة جميع أُولي العدل والديانة وما هم بقليــل . على ان اضطرارك اياي للعدول عما كنت عزمت عليهِ من هذا القبيــل يحملني ان اغالب ارادتي تحرّياً لمرضاتك . ومع ذلك فلا اجد بدًّا من انا راك معلقاً بصدرك الذي نصبتهُ هدفاً لرصاص اعداء ميراث الكرسي الرسولي علامة شرف منسوبة الى السيد لهُ المجد ربّ هذا الميراث ومالكه . ولا جرم ان ذلك يكون رابطاً جديدًا لك مع وكيل من لست انا الأ احقر نوابه على الارض والذي يكون موضوع مكافأتنا وثوابنا كلينا في الآخرة ودار البقاء »

ثم زايل روميــة شاخصاً الى باريس فالفى على طريق بيتــهِ آلافاً من الكاثوليك ينتظرون قدومه فحاول اولاً التخلص منهم ثم مرَّ بينهم وهم يقولون باعلى اصواتهم « ليعش دي لاموريسيير . ليحيَ بيوس التاسع » فشكرهم ببضع كلمات وطلب اليهم ان يؤدوا هذا التمجيد والتعظيم الى قداسة للبابا مختصاً نفسه بالهزيمة والانكسار ومحققاً انتصار الكنيسة

ثم شرع كاثوليك فرنســا في الاكتتابات مرصدين ما يحصل منها ثمناً لسيف مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة يجعل تقدمة لهذا البطل المسيحي واذ دري بالامر كتب الى زعيم القائمين بهذا

المشروع ما يلي :

عن بروزل في ١٫٢ كانون الثاني سنة ١٨٦١

سيدي

« اراك تريد ان تخبرني عن عزم كاثوليك فرنسا على ان يقدموا لي سيفاً فخرياً ثميناً يمثل ذكر الاعمال الحربية التي قمت بها عاماً اول في ولايات البابا · وتراني شديد الشعور جزيل الشكر لما اعتبروه من جدّي وعملي محاماةً ودفاعاً عن حقوق السلطة الدنيويّة مع عدم حصول نتيجة فعلية عنهُ ولكنني ارى من واجباتي ان اعلمك بان مجرّد قبولي السيف الذي تريد تقديمه لي يفضي بي الى الخروج عن حد التقليدات والعادات المرعية في فرنسا باعتبار الامور الجندية . لان التقليدات المذكورة لا تجيز تقدمة سيف او تذكار لقائد الجيش ما لم يكن قد انتصر في وقعة حرب او استولى على مدينة في احوال مشهورة او دافع عن بلدة مدة تزيد على الاوقات التي عيَّنها الخبيرون في الحروب والحال اني لم اوفق لاتيان امر من هذه الامور في الحرب الاخيرة فلقد غُلبت في حومة الوغى على الولايات التي كانت مسلمة اليّ وعلى المدينة التي حوصرت فيها وفقدت كل المدافع والجنود والاموال . ولكن ان قلتَ لي معترضاً بان الحالة الادبية قد تغيرت من ذلك الحين وان ارباب الكرسي الرسولي قد تجدد املهم وعادت ثقتهم بقوة حقوق السلطة الزمنية وان اعداءها قد تراموا الى الشقاق والانقسام وان هذه فرنسا ابنة الكنيسة البكر قد تجدد فيها روح الشجاعة والحمية الدينية قلت فلا يكون ذلك من عمل البشر بل من الله فقط ولا استطيع ان انسى ان قائداً حامى عن شرف علمه فقط هو غير خليق باقل مكافأة . . . أرأيتَ ياسيدي الاسباب التي تلجئني ان ارفض بالاطلاق تقدمة السيف المذكور لي على يدك . فجد ياسيدي متفضلاً بابلاغ هذا الجواب مني الى من كلفوك ان تخابرني »

ثم اقام دي لاموريسيير بقية حياته يراعي عن بعد احوال مملكة البابا الصغيرة ويكاتب كلاً من السيد دي ميرود وزير الحربية البابوية والجنرال كنزلو وبلومنستيل اميرالاي المدفعية ودي مورتيله اميرالاي معيَّناً في قضاء ديون مملكة البابا والزام مملكة سردينيا بقسم منها يعادل ما اخذته توثباً من اراضي المملكة المذكورة

وكان في بدء عام سنة ١٨٦١ قد ورد كتاب من الملك فرنسوى الثاني صاحب نابولي يدعو به

دي لامور يسيير اليوليوليه قيادة جيشه ورد غارات غاريبالدي عنه فاجابه بما دلّ على الاباء والامتناع مصرحاً بانهُ لا يخدم الّا البابا وفرنسا وكان سيالديني بعد انتصاره على دي لاموريسيير واستيلائه على مملكة البابا قد دخل اراضي مملكة نابولي واستولى عليها كلها وحاصر الملك فرنسوى الثاني في مدينة « غايث » مدة اربعة اشهر وما زال حتى فتحها في ١٣ شباط سنة ١٨٦١

وفي ١٨ منه افتتح فيكتور عمنوئيل في تورين اول مجلس عرف بنادي النواب (البرلمان) في ايطاليا واتخذ هو لنفسه لقب (ملك ايطاليا) لان ايطاليا كانت خاضعة لهُ باسرها ما عدا ما بقي تحت حكومة البابا وولاية البندقية التابعة لاوستريا . وفي بداية ١٨٦٢ حاول بعض الغاريبلديين اثارة الفتن في رومية فكتب دي لامور يسيير الى البابا يقول :

في هذه الآونة المحزنة التي تمرّ علينا وتلقاء الشدائد والاخطار التي تكتنف قداستكم من كل جهة اتقدّم واطرح على قدميكم تعلقي بذاتكم واستعدادي التام لخدمتكم . . . وقد كنت شخصت الى رومية عند ابتداء اخبار الحرب لولا خوفي بان وجودي في رومية يقلق بال حكومة فرنسا و يثبط حركات حاميتها هناك و يكون سبباً في عدم اشتراكها بالمدافعة عن حقوقكم . ولكن اذا ارتأت قداستكم خلاف ما ذكرت فاني قائمٌ على قدم الطاعة والخضوع لاوامركم مستغنماً هذه الفرصة لاستئناف المكاشفة بعزمي وقصدي و بالجملة فاني لا استطيع ان اختم عريضتي هذه خلواً من شكركم بالاصالة عن نفسي والنيابة عن قرينتي على ما اوليتمونا من النعم باتحافنا الشمعة التي كنتم قداستكم حامليها بيدكم المقدسة في العيد الاخير . فقد تقبلناها كذخيرة مقدسة ونحن جاثون واعيننا ملاءى دموعاً وحفظناها ذكراً ثميناً يكون عربون البركات لعائلتنا « اه »

اما جواب البابا لهُ فكان في ١٦ نيسان سنة ١٨٦٢ وهو لقد وجدت بالعواطف التي اودعتها كتابك اليّ مقرونة اهتماماً لشأني وتطلعاً الى حالتي احسن مسلاة عن الكرب وابلغ تأساء عند المحنة وما كنتَ بذلك لتزيدني علماً بكمال حبك اياي او برهاناً على صحة المبادىء التي اعهدها فيك لانك اثبت لي اكثر من مرة شدة تعلقك بي وحرصك على مقاصدي . فليبارككَ الرب ولتشعر اسرتك الكريمة بنتائج البركات الالهية . . اما ما يتهددنا بهِ ذلك القائد الذي يخدم الثورة وسردينيا في وقت واحد وهو حاصل على مساعدتها فليست تهديداته الان بذات بال . نعم ان اخلاء بعض حدود ولايتي من الحاميات والمرابطات الفرنسوية قد احدث قلقاً واضطراباً

ولكن قد قام مقام الفرنسويين هنـاك جنود الزواف مع سائر فرق جند حكومتي فعاد الامن واستتبت الراحة بسطوتهم اذ انهم كلهم يتذكرون انهم غرس يدك وانهم وان كانوا فئة قليلة فشجاعهم ليست بقليلة وايضاً فان تعلقهم بي ليس بقليل . . . ثم لما كانت الحامية الفرنسوية قد عاودت اتمام المحافظة والمرابطة ثمة لم يبقَ على جنودي ان تأتي اقل عمل او حركة . ولهذا تجدني لا اقدم على استدعائك اليَّ قصد توليتك قيادة جيش وادع في مركزه غير عامل شيئاً . ولكن ان كنت ترى من الموافق ان تجيء لتجدد عزائم عساكرك فاني اجدني سعيداً في ارتياحي الى لقائك فاعانقك معانقة المشتاق واباركك عن قرب كما اني اباركك انت واسرتك عن بعد « اه »

اما عسكر البابا فقد كان أبعِد منه قسم كبير ولم يبقَ في عداده احد من النمسويين والايرلنديين واما العساكر التي من سويسرا وفرنسا وبلجيكا فانهم الفوا طابوري الزواف وعدده الف وخمسمائة مقاتل بقيادة اميرالالاي « اليه » والقائمقام دي شاريت . وفي سنة ١٨٦٧ بلغ عددهم في وقت ستة الاف جندي ومجموع عساكر البابا مع انفار الجندرمة في تلك السنة كان نحواً من عشرة الاف . . . وعلى قلة عددهم المفرطة كان دي لاموريسيير يفتخر بقيادتهم و يتمنى فرصة مناسبة للرجوع الى رومية ليدافع ثانية عن البـابا باذلاً دمه ومعارفه في هذا السبيل . . .

قلنا ولقد كان معتقداً ان نابوليون الثالث يستمر محافظاً على بقاء رومية للبابا وانما سبب ذلك رغبة الامبراطور المشار اليه ان يكون في وقت واحد مدافعاً عن سلطة البابا ومشاركاً في اعمال الثورة . ولكن كره الله الماكرين المنافقين فانهُ بهذه السياسة السرطانية الشفعية قد بات مبغضاً الى الكاثوليك ودعاة الحكومة الزمنية مشنوءاً عندهم من اجل اشتراكه في اعمال اهل الثورة وكذلك نفر منهُ الثائرون وابغضوه لمحافظته على روميـة للبابا ولما وقع في شرك سياسته لم تساعده ايطاليا وعاقبه الله على معركة كستلفيداردو وحصار « انكون » بتسليم سيدان وحصار متس وباريس وسقوطه من عرش الامبراطورية واستئصال ذريته ولعنة اسمه على صفحات التاريخ فليعتبر بهِ وليتعظ كل يحاول ان يشرك بالله متخذاً الماسونية لهُ مذهباً في اعماله

خاتمة

قضى دي لامور يسير كل المدة منذ رجوعه من روميــة الى جين وفاته اي من ١٨٦٠ الى ١٨٦٥ عائشـاً عيشة الخلاء في منزلهِ تارةً في قصر بروزل وتارةً في شيلون وآونةً في باريس مهتماً منقطعاً الى عمل البر والحسنات مع الفقراء وانشاء المشروعات الخيرية في شيلون والسعي في توحيد كلمة الكاثوليك في فرنسا وجمعهم كلهم الى حزب واحد لمعارضة مشروعات الحكومة المعادية الدين وحرّية التعليم. ولما كتب لهُ الكونت دي شامبور مدعي الملك يهنئه على اعمـاله في كستلفيداردو وانكون اغتنم الفرصة لجـاوبته وسألهُ ان يأذن لاشياعه في دخول مجالس الامة والاشتغال بالامور السياسية التي كان منعهم منها الى ذلك الوقت

وفي انتخـابات ١٨٦٣ العمومية تداخل بالذات وكان هو الباعث على انتخاب الموسيو لانجوينه من الاحرار الكاثوليكيين عضواً في ندوة النواب وكان هو بنفسهِ يتداخل في انتخـابات البلدية في بلدية « لوروكس » التابعة لها ارضه في شيلون ويهتم بحالة فقرائها . ومن الشواهد على ذلك انهُ لما كان في منفى بروكسل وقد خاف ان تستولي الحكومة على املاكه طفق يرسل دراهم الى كل عائلة من فلاحي تلك البلدة واختص من بينهم عائلة واحدة ببذل الحنطة لها . وكان يوصي ابنته وهي في السابعة من عمرها ان تأمر بمشترى بقرة لعائلة اخرى قوامها تسعة اشخـاص منهم سبعة صبية صغار.

وسنة ١٨٥١ كان قد اسس ديراً للراهبات اللعازاريات في لوروكس وجعل مستشفى للمرضى ومدرسة للاحداث ابناء الفقر مجاناً . وقضى مدة منفاه يكاتب زوجته من بروكسل ورئيسة الدير حريصاً على قضاء حاجات الدير والمستشفى متطلعاً الى مداق الامور هناك حتى ان الدير والمستشفى صارا آخر الامر الى نجاح عظيم ابتدا من سنة ١٨٥٧ بقوة اهتماماته فيهِ وبما ارصده لهُ من الريع السنوي من املاكه الخاصة

وفي تلك السنة عينها عرض عليهِ صديقه كاهن رعية لوروكس لزوم تكبير الكنيسة والاسعاف بالاثاث اللازم لها فبذل لهُ الجنرال كل النقود الكافية لذلك . وفي مدة سنتين او ثلاث شُيّدت الكنيسة الجديدة على نفقتـهِ الخاصة مع كل معارضة البلدية لهُ في تلك الجهة

وكان شفوقاً رفيقاً بخدمهِ وشركائه حتى انه ما كان ليضع حداً لعواطف الرفق والشفقة . ومن قبيل ذلك انهُ لما كان سفيراً لدولته في بطرسبرج أُنبي . ان احدى بنات خادم غرفته قد توفيت ولكن لم يذكروا لهُ اسم الابنة فكتب ما يلي :

«كيف تخبروني ان خادمي فرنسوى قد فقد احدى بناته ولم تسموها لي ولكن لما كنت عالماً ان لهُ اربع بنات اكتفيت باخباره ان احداهنَّ مريضة خوفاً من وقوعه في هذا الارتباك العظيم حالة كونه رفيقي مع بعد الشقة عن الوطن

ولتتذكر انَّا نكون كلنا ابداً وخصوصاً تجاه الموت اخوة متساوين»

وبعد ست عشرة سنة ورده وهو في بروزل خبر وفاة ابنة بستانيه في شيلون فكتب لهُ ما يلي : «عزيزي لويس ما اعظم هذه المصيبة التي اخبرتني عنها وما اخلقني ان اشاطرك الاسى في رزيئتك ومصاب زوجتك ولكن ينبغي لنا ان نقول ان الله لا يجرب سوى خائفيه . فلتكن مشيئته مباركة وليتقبلنا يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا ازواج برأفته وحينئذٍ تجد بين الملائكة عزيزتك اميليا فتشجع يالويس واودعك معانقاً اياك»

ثم حدث ان احد نواطير املاكه كسرت رجله فاستمر — اي الجنرال — مدة ستة اسابيع يزوره كل يوم لعيادتهِ وتعهد حالته . وكان لاحد خدمه المدعو ارنست ابنة صغيرة فلما بلغت السادسة من عمرها انطلق بها على عربته الى مدينة اميان ليشتري لها ثياباً

ومما مرَّ يعرف تعلقه بالدين وممارسته اعمال الديانة وتسليمه امره التام الى الله تعالى منذ التفت الى الحياة الاخرى وعرف غرور الدنيا فانهُ كان قد جعل الدين اقصى غايات اعماله موجباً على نفسهِ مزاولة جميع الاعمال التقوية التي تأمر بها الكنيسة مرشدة ايانا اليها وكان يجهد نفسهُ دائماً في مطالعة الكتب الدينية وتاريخ الكنيسة ليجعل جميع اعمالهُ مطابقة للمبادىء الدينية وكان لا يزال دأبه اصلاح نفسهِ وصيرورتهِ قدوة صالحة لغيره فانهُ لم يهمل قط الانقطاع امساكاً عن اكل اللحم في الايام الحرجة في كل اينٍ وآن مع اي الناس كان وسواء ذلك في محله او في المنازل العمومية ومحطات سكة الحديد وكان يواظب على تلاوة الفرض والصلوة في ايام الصوم بعد غروب الشمس وهو جاثٍ مع زوجته وابنتيه وخدمه . وفي ايام الآحاد والاعياد ما كان ليواجه احداً او يحدث زائراً من زائريه قبل خروجه من منزله الى الكنيسة قصد سماع القداس الالهي حتى انا

عاد كان ينكر عليهم عدم روّيته اياهم في الكنيسة

ثم حدث ان حماته مرضة . فطلبت القربان المقدّس وقبل الاتيان بهِ اليها اهتمّ الجنرال بتزيين الممشى الذي كان لا بد للكاهن ان يمرّ فيهِ حتى اذا اقبل الكاهن ثمة نهى فعلته عن العمل وسجد واياهم اجلالاً للقربان الاقدس . — وكان مثابرًا على قراءة ما يختص بكل يوم من فصول الانجيل ورسائل القديس بولس وكان اذا لم يفقه معاني بعض الآيات المقدسة لجأ الى طلب التفسير ليمكنه ان يفسرها بنفسه لزوجته وابنتيه . وكثيرًا ما صبر نفسهُ على جعل اعماله تطابق المشورات الموردة في الرسائل المذكورة . وقد طالما عُني في اصلاح طباعه وترويض نفسهِ مع تقدّمه في السن

وكان في الجزائر معروفًا بخلة وهي استعماله بعض الكلمات التي يتناقلها الجنود مع مخالفتها للاداب والدين وكان يكثر من القسم والحلف ولكن مذ اتقى الله وتعلق باعمال الدين امتنع بالكلية عن التفوه بهذه الالفاظ وعن حلف اليمين . . . وكان يقضي وقته يحث جلساءه ومحدثيه على الخضوع التام لما تأمر بهِ الكنيسة وتنهى عنهُ خلافًا لما يزينه لنا دعاة حرّية الافكار . وبالجملة فانهُ كان في مدة الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من عمره مثالاً صالحًا للجميع وذا سيرة حسنة طاهرة جدًّا

ولما اتت ساعة الرحيل من هذه الدنيا الفانية كان على احسن استعداد للقاء ربهِ وهو منفرد في قصر بروزل بعيدًا عن زوجته وابنتيهِ اللواتي كنّ وقتئذٍ في شيلون وكان منذ سجنوه في قلعة هلم قد مُني بمرض القلب وبات عرضة للموت الفجائي عند كل نوبة تحدث لهُ ولذا لازم حسن التأهب لفراق هذه الدنيا والاشراف على الابدية في كل دقيقة . وآخر يوم قضاه في هذه الحيوة هو عاشر ايلول سنة ١٨٦٥ فانهُ تناول فيهِ الاسرار المقدسة في كنيسة بروزل واتمّ جميع معدّات السفر ليذهب الى شيلون قصد اهله عند عائلته في غد ذاك اليوم . وقضى ليلته تلك سامرًا مع كاهن بروزل يتحدثان بما للغفرانات من القوة والفاعلية والمنفعة للانفس التي في المطهر حسبما تعتقد الكنيسة المقدسة . وعند انصراف الكاهن قام دي لامور يسير ودخل غرفته وطالع بعض صفحات من تاريخ الكنيسة حسب عادته ونام عند الساعة الحادية عشرة . وبعد ان نام ساعتين ونصف ساعة استيقظ وبهِ جهد وتعب شديد جدًّا فقرع ناقوس استدعاء خادمه فاتاه مسرعًا فقال لهُ

« الكاهن . الكاهن حالاً ادع لي الكاهن » فانطلق الخادم الى معهد كهنة الرعية — وهو قريب جداً من القصر الذي فيهِ المدنف — وما مرَّ عشر دقائق حتى عاد الكاهن والخادم معاً وفيما هما صاعدان درج القصر سمعا صوت الجنرال وهو بما بقي لهُ من القوة يستغيث قائلاً : «الكاهن الكــاهن » فلما دخلا غرفته وجداه جاثياً على ركبتيه امام سريره يقبــل الصليب المقدس ايمًا تقبيل فجثا الكاهن الى جانبه وابتدر منحه الحلَّ . ثم قام وحاول انهاضه وادناءه من نافذة الغرفة ليأخذ هواء ولكنه ما تمــالك ان ينطق بكلمة فاشار اليهِ بنظرة ايذاناً بالشكر لهُ ثم ما لبث ان فاضت روحه بعد عشر دقائق

ومن الغد وصلت قرينته و بنتاه وفي الحال نقلت جثة هذا البطل من قصر« بروزل » الى شيلون ووضعت في كنيســة القديس فيلبرت المذكورة في اول كتابنا لتدفن هناك . وقد اتفق الجيش الفرنسوي وكاثوليك فرنسا باجمعهم على تكريم جنازة الفقيد حيث مرَّت فعند وصولها الى مدينة « اميان » صلى عليها اسقفهــا وقام خطيباً مؤبناً يعدد مآثر الفقيد بعبارات فصيحة ما كان ليحسنها في موضوع آخر . اما وقد بلغت الجنازة الى باريس فلا تسل عما جرى لها هناك من التعظيم والتكريم فان المدينــة باسرها قد حفَّت بالجثة آسفة لاهفة على البطل الفقيد واما المشهد في مدينة « نانت » فصفته هي ان جميع سكانها قد حشدوا الى الكنيسة التي فيها الجنازة متزاحمين حتى كاد يطأ بعضهم بعضاً قصد تزود آخر نظرة لهذا البطل الذاهب الى الابدية . وآخر ما كان انهُ في كنيسة فيلبرت قام الجنرال تروشو وابن الفقيد نيابةً عن الجيش الفرنسوي « ترشو هو احد تلامذة دي لامور يسيير في جند الجزائر وهو الذي تولى خطــة الدفاع عن باريس حين حصــارها سنة ١٨٧٠ » وعقبه الكونت دي كترابارب وابنه اصالةً عن نفسهِ ونيــابةً عن الجيش البابوي . واختتم خطب التأبين الكاهن ريشار « وهو الان نيافة الكردينــال ريشار رئيس اساقفة باريس » بان ذكر الفقيــد وعدَّد مناقبه بلسان اكليروس فرنسا وقد استمر جمهور اكليروس هذه الامة عدة اشهر مواظباً من تلقاء نفسهِ على اقامة القداسات وصلوات الجناز على نفس هذا الفقيد الهمام . ولما بلغ البــابا بيوس التاسع نعي قائده بكاه بكاءً شديداً و بعث الى قرينته بالبركة الرسولية مشفوعة بذخيرة من جسد القديس كريستوف شفيع القــائد وامر باقامة جناز حافل في كنيسة القديس بطرس برومية على نفسه . . . وقد وجد عليهِ الاشتراكيون والماسون

بداعي دفاعه عن الالفة والدين ولكن بغضتهم اياه وتحاملهم عليهِ حتى انهم لم يدخروا جهدًا في سبيل اسقاطه واضطهاده في هذه الدنيا كل ذلك هو الذي اكدً لهُ حسن الثواب والاكرام لدى رب السماء والارض على تمادي الابدية وكذلك جزاء من بذل نفسه متفانيًا في سبيل الذود عن الدين والكنيسة والدفاع عن رأسها المنظور . . .

لاموريسيير لقد ظهرت آثار مساعيك الغرّا
للدين الحق وبيعتهِ ذكرًا خلّدتَ بهِ فخرا
فجزاك الله برحمتهِ اجرًا قد كنت بهِ احرى

انتهى

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٢	١٧	دي روبيو	دي روبينو
٢	١٨	سلفسنتر	سلفستر
٣	١	١٧٥٩	١٧٩٥
٤	٦	١٨٣٦	١٨٣٨
٥	١٨	جوعورتا	جوغورتا
٦	٣	وزملاءه	وزملاءه
٧	١٨	المارشال	الجنرال
٨	٥	خرج	يخرج
٨	٢٤	فروخ	فروج

قد تُرك سهوًا العددان ١١ و١٢ في تغيير صفحات الكتاب فتكون الصفحة ١٣ هي التابعة فعلًا ومعنويًا للصفحة ١٠

صفحة	سطر	خطا	صوابه
١٣	٢	الاخير	الاخيرة
١٣	١٥	عم الملك	ابن عم الملك
١٧	١٢	في الايام	في هذه الايام
١٨	٨	كثيرًا ما قاتلنا العرب	كثيرًا ما قاتل الفرنسيون العرب
٢٨	١٥	وثرتيبه	وترتيبه
٢٩	٤	لا غتى	لا غنى
٢٩	٨	أرسل	أرسل
٢٩	١١	القارير	التقارير
٣١	٥	باسمهُ	باسمهِ

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٣١	٨	القبص	القبض
٣٤	٩	لكتا	لمكتا
٣٥	٢٣	لا لجاريه	لا ليجاريه
٣٧	٢٣	وفي سنة ١٨٢٧	واتى في سنة ١٨٢٧
٣٨	٢١	عزلت القائد العام الجنرال دي مشال	عزلت الجنرال دي ميشال
٣٨	٢٢	القائد الكبير الجنرال تريزل	الجنرال تريزل
٣٩	٧	اسمه البركالي	اسمه البركاني
٣٩	٢١	بالتشطب	بالتثبط
٤٢	٢	لجنرال	الجنرال
٤٢	١١	شانكاريه	شانكارنيه
٥١	٨	وبسأل	ويسأل
٥١	١٤	عادوا يشعرون	ما عادوا يشعرون
٥١	١٤	من اراتة	من اراقة
٥٣	٩	اليوزاشي	اليوزباشي
٥٤	١	مسكن	فسكن
٥٤	١٤	بوفاة اصغر اخوته	بوفاة اخيه
٥٤	١٥	في مدينة المكسيك	في مدينة مكسيكو عاصمة المكسيك
٥٥	٢٢	بحماية	بحامية
٥٦	١	شتور	شتورا
٥٧	١٤	اذا رضيت	اذا ما رضيت

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٥٨	١٦	وقد انضاه	وقد اضناه
٥٨	١٧	سيخوخته	شيخوخته
٦٠	٢	لان الحيول	لان الخيول
٦٤	١٣	للفرنسس	للفرنسيس
٦٧	٨	الفصل الاول	الفصل التاسع
٦٨	٧	ا ليش	الجيش
٦٩	٤	باعمالهُ	باعمالهِ
٧١	١٩	سجونهُ	سجونهِ
٧٢	١٣	وكان قد جدّد مبانيها	وكان قد جدّد عبد القادر مبانيها
٧٤	١	١٢ تموز	١٢ تموز
٧٦	٢٢	المكث معهُ مع معاودة	المكث معهُ على معاودة
٧٦	٢٤	وتروشي	وتروشو
٧٨	٢	لا يعادله موقع	لا يعادل موقع
٧٨	٢٣	ما لم يكن في الحسبان »	ما لم يكن في الحسبان
٧٩	٧	بصعاب الامور	بصعاب الامور »
٧٩	٢٤	ال وق	الدوق
٨٠	٧	مصطفى ابن اسمعيل	مصطفى بن اسمعيل
٨٠	١١	سوى منسوح	سوى منسوج
٨٠	١٢	بان ادراك ثاره	بان عليهم ادراك ثاره
٨٤	٨	وحماقتة	وحماقته
٨٤	١١	ليس اقل	ليس لهُ اقل
٨٤	٢٢	. . . .	الفصل العاشر الاعمال الادارية

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٨٧	٦	الكاثوليكية المشأة	الكاثوليكية المنشأة
٨٧	٦	الماريشال كالي	المريشال ڤالي
٨٨	٢٤	ين ومناوئيهم	الدين ومناوئيه
٨٩	١٨	اوشكت الحرب ان وحدود	اوشكت الحرب ان تنحصر في ولاية وهران وحدود المستعمرة الغربية
٨٩	٢٢	واصطلالاء	واصطلاء

انهُ قد وقع غلط في توقيع الصفحات الاربع المنمرة ٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ فيجب التقيد بالنمر المذكورة دون التفات الى محلّاتها لان هذه النمر موضوعة بحسب المعنى

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٩٩	٢	عرم	عزم
١٠٠	١٢	القلعة تأخر يومين في الطريق لادراكهِ	القلعة ولو تأخر يومين في الطريق لادركهُ
١٠٠	١٦	فانهُ رأى	فانهُ لما رأى
١٠٥	٢٤	بعشرين	بعشرين
١٠٦	٢٢	اعاد الهجوم	اعاد الهجوم »
١٠٦	٢٤	توادي	تواري
١٠٧	١٠	دويخ	تدويخ
١١٠	٧	او اضطارهم	او اضطرارهم
١١٢	٢١	ن يعيش	ان يعيش
١١٢	٢٢	اهجر	هجر
١١٤	٢	الداتي	الذاتي
١١٥	٤	باعجنا	باجمعنا
١١٩	١٦	باعلربية	بالعربية

صفحة	سطر	خطا	صوابه
١١٩	٢٣	جلالته المحبوب	جلالتــه المحبوب الدوق
		وكان	دومال وكان .
١٢٢	٦	منير	منبر
١٢٢	١٩	١٨٣٨	١٨٨٣
١٣١	٢٤	يتولاها وما قبلها	يتولاها وما بعدها
١٥٤	٣	لا نسيطيع	لا نستطيع
١٥٦	١	مشا دك	مشاهدتك
١٥٧	١٥	والعتو شيء	والعتو ولا شيء
١٥٧	٢٢	لمساعدتهم	لسعادتهم
١٦٠	٢١	مملكتي ليست في	مملكتي لبست من هــذا
		هذا العالم فكيف	العالم فكيف
١٦٠	٢٢	ليست مملكتي في	ليست مملكتي من هذا
		هذا العالم	العالم
١٦١	٥	على عهد لاون	واما في عهد لاون